سلمان ناطور

ستون عاما

رحلة الصحراء

ذاكرة .. سفر على سفر .. انتظار



الشروق

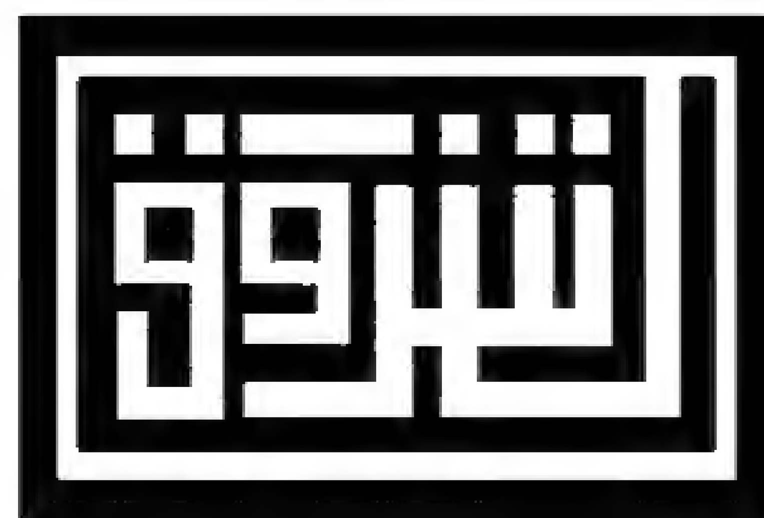
ستون عاما/ رحلة الصحراء

ذاكرة

سفر على سفر

انتظار

-u!ÞU!½ ÊU!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!LK!Ý



2009

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2008/11/4019)

921.71
ناطور ، سلمان
ستون عاماً: رحلة الصحراء/ سلمان نايف توفيق
ناطور.- عمان: دار الشروق، 2008
( ) ص
ر. إ. : 2008/11/4019
الواصفات: التراجم//تراجم الرجال/
تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

ISBN 987- 9957 - 00 - 387-6 (ردمك)

- ستون عاماً : رحلة الصحراء .
- سلمان نايف الناطور .
- الطبعة العربية الأولى : الإصدار الأول 2009 ، (*ذاكرة ، صدر لأول مرة عن مركز "بديل" في بيت لحم ، 2006 . * سفر على سفر ، صدر لأول مرة عن مؤسسة "تامر" ، رام الله ، 2008 . *انتظار ، يصدر لأول مرة) .



دار الشروق للنشر والتوزيع
هاتف : 4618190 / 4618191 / 4624321 فاكس : 4610065
ص.ب : 926463 الرمز البريدي : 11110 عمان - الاردن

دار الشروق للنشر والتوزيع
رام الله: المنارة - شارع المنارة - مركز عقل التجاري هاتف 02/2961614
غزة: الرمال الجنوبي قرب جامعة الأزهر هاتف 07/2847003

ولدت بعد حرب 1948.

دخلت المدرسة في حرب السويس.

انهيت الثانوية في حرب حزيران.

تزوجت في حرب اكتوبر.

ولد الأول في حرب لبنان، ومات ابي في حرب الخليج.

حفيدتي سلمى ولدت في الحرب التي ما زالت مشتعلة.

المحتويات

ذاكرة

إلى ندى



في شقـــوق الوجـــه

فــالخط الأول الذي يمتـــد من أعلى حنكه وحتى طرف حاجبيه يكون عام الثورة الأول..

والخط الثـــاني الذي تقــوس على أســـفل جبهته تكون عام القحط..

والخط الثـالث المتـعـرج فـوق الخط الثـاني تبلور عام التشريد..

وأمــــا الخط البـــارز وهو الـذي يمتــــد من "النيع" الأيمن حتى "الـنيع" الأيسـر.. ويخـتـفي فوق الذقن.. فهو خط الاحتلال..

وليـس من قــبــيل التــهـريـج أن يصـبـح أبو محمد خارطة لتاريخ فلسطين..

فأبو محمد واحد كبقية أهل فلسطين.

الدليـــل

" إذا تأخرت فاعلموا أنني في خربة أبو حرب"، وخربة أبي حرب أرض مساحتها عشرة دونمات تقع في الجهة الغربية من الشارع الذي يوصل بين "عين حوض" و "عين غزال"، وهذه الأماكن الثلاثة مرسومة بخطوط متقطعة ونقاط سوداء على خارطة فلسطين. . فلسطين. . يوم كانت بنايات شارع الملوك ملكا لعائلة الطبراوي. . ومركز شرطتها حاليا كان مكتبا لشركة الزراعة العربية المساهمة ليميتد. . ويمتد من أول شارع يافا وحتى مفترق شارع " السلام". . عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحافـز

"سأبحث عن حمار يحملني إلى الخربة !" الحمار كان معدا لينقل الشيخ "أبومحمد" من مخيم جنين إلى خربة "أبو حرب". "ولماذا لا يركب السيارة فهي أسرع" ! لأن الطريق إلى الموت هي نفس الطريق إلى الحياة ! هذه حكمة، فلسفة خاصة بأبي محمد. . مثلما انتقل على الحمار هو وعفشه من الخربة إلى المخيم . . فعلى الحمار سيعود من المخيم إلى الخربة. وما دامت هذه فلسفته فلا يحق لأحد من أبنائه أن يعارضه. على الحمار وضع الملح. . والخبز. . وعلبة من السمنة. . وتحرك كمن نوى الوصول إلى بيت الله الحرام. . وكمن يعتمد في سفره الشاق الطويل على الله. . الذي لا يحمد على مكروه سواه.

شقـــوق

عـام الـهـزيمة هو العـام الذي سـجل فـيـه أبو مـحـمـد أنه بلغ سـبـعين حولا . . ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . . وإذا زدت عليها أحد عشر عـامـا . . فـيكون أبو مـحـمـد قـد بلـغ واحـدا وثمـانين عـامـا من أعـوام الاحتلال على التمام والكمال . . ومن خلال تجاعيد وجهه تستطيع أن تعـرف أن تاريخ نموه تماما مثل الحلقات على جذع شجرة الزيتون . . فالخط الأول الذي يمتد من أعلى حنكه وحتى طرف حاجبيه يكون عام الثورة الأول . . وهو يشبه الشق السوري الإفريقي . . ومنه تكون البحر الميت . . ونهـر الأردن . . والخط الثاني الذي تقـوس على أسفل جبـهته تكون عام القحط . . والخط الثالث المتعرج فوق الخط الثاني تبلور عام التشريد . . وهو يحتوي على عشرين "طعجة" . . وأما الخط البارز وهو الذي يمتد من "النيع" الأيمن حتى "النيع" الأيسر . . ويختفي فوق الذقن . . فـهو خط الاحتلال . . وليس من قـبيل التـهريج أن يصبح أبو مـحـمـد خارطة لتاريخ فلسطين . . فأبو محمد واحد كبقية أهل فلسطين .

الطريـــق

من لا يعرف الطريق بين مخيم جنين و"خربة أبو حرب" . . حمار أبو محمد لا يعرفها لأنه ولد بعد سنة الهزيمة . . في أحسن الحالات يستطيع الوصول إلى مفرق "مجدو" . . عند حاجز الشرطة . . وهو دائما عندما كان يصطدم بجندي حرس الحدود . . ذي القبعة الخضراء كان يرجع . .

لأنه يدرك بأن هذا الجندي أقوى منه . . ولا فائدة من "المناطحة" معه . . وهكذا يصبح الحمار حمارا في جغرافيا فلسطين عند حاجز شرطة الحدود . . على الخط الأخضر . .

قطع أبو محمد الطريق على حماره حتى وصل صنوبرات "البخشة" . . وتذكر أن اسم المكان أصله تركي . . جاء من البكاشه أي الغابة . . هذا حسب معلوماته . . (ملاحظة : لم تفحص في القاموس التركي - العربي المصدر الصريح لهذه الكلمة . . لكن . . ليكن هكذا كما يعتقد أبو محمد)، وهناك نزل عن حماره ليتناول بعض الخبز والسمنة ، ويقضي حاجته قبل أن يدخل قرية دالية الكرمل . . ثم واصل الطريق . . بعد استراحة قصيرة . . ودخل القرية . . وتوجه إلى أصدقائه الذين يذكرهم منذ عام التشريد . دخل البيت لم يعرفه أحد من أهل البيت . . عرف عن نفسه فتذكرته صاحبة البيت . . وسألته فورا عن أم محمد ، فقال لها : ماتت أم محمد . فقالت : الله يرحمها . فقال : يرحم أمواتكم ، وصمت . ولما جاء صاحب البيت ، لم يعرف الضيف لأول وهلة ، لكنه سرعان ما تذكره ، تذكر فيه الخط الذي يشبه الشق السوري الأفريقي . . وعينيه الزرقاوين . . ابتسم . . ورحب به . . وعانقه فقد كان صديقا حميما للمرحوم والده . .

- هؤلاء الشباب لا يعرفونني . . أنا أبو محمد . . أكلنا الخبز والملح مع حياة المرحوم سنين طويلة . . أنا عشت في بيتكم . . أنا أبني محمد ولد في هذه الدار . . أنا أبو محمد المشرد المقطع الموصّل .

- أهلا وسهلا يا شيخ .

- أنا أصبح عمري أكثر من ثمانين سنة . . قلت : قبل أن أموت سأقابل أصدقائي . . وجئت لأودعكم الوداع الأخير . . أنتم أفضلتم علي . . ولا أستطيع أن أنكر فضلكم . . لقد تركت زوجتي خزانة عندكم . . وعندما جئت قبل عشر سنوات إلى هنا وجدتها كما هي . . أم محمد فقدت الخزانة . . وأنا فقدت أم محمد . . وهذه سنة الحياة . . هذه مشيئة القدر . قد تسألونني لماذا جئت . . أنا أعرف أنني سأموت بعد أسابيع معدودة . . أنا سأموت مثلما مات والدكم . . ومثلما ماتت أم محمد . . ولا أحد منا سيبقى خالدا على وجه الأرض . . كلنا إلى زوال . . كلنا سنموت عاجلا أم آجلا . . قلت آتي إليكم أسأل عنكم وعن أولادكم . . وأذهب إلى أرضي في " خربة أبو حرب" . . فقد سمعت أن اليهود يفلحونها . . وأنهم صادروها . . وأنا أحمل كوشان في الأرض . . ولا يحق لأحد أن يفلحها غيري بدون إذن مني . قلت آتي إلى الأرض وأفلحها أنا حتى أموت فيها . . فمن يعلم : بتروح حكومات وبتيجي حكومات . . بتموت ناس وبتحيا ناس . . وهالأرض بتظلها أرض بترابها وحجارها وصوانها . . وأنا سأدفن نفسي في هذه الأرض كي أظل ثابتا لا أتغير . . مثلي مثل هالتراب" .

البئر

قبل غروب الشمس . . ركب أبو محمد حماره . . واتجه غربا . . كان الحمار يتحرك بتثاقل . . كانت الشمس تترامى في البحر . . قلب

أبي محمد صار يلوح كرقاص الساعة في صدره . . أحس بضيق . . أخرج الهواء من رئتيه . . تنفس بعمق . . أطلت علية "خربة أبو حرب" . أحس بالخوف . . قد تنطفئ شعلة حياته قبل أن تطأ قدمه الأرض . . الشمس سقطت في البحر- أحس بالبرد . . كان لا بد من الاستراحة لقضاء حاجة . . تقدم . . بناية شاهقة حجبت عنه شجرات السرو التي تسيَج أرض "خربة أبو حرب" . . الحمار لم يعد يقوى على الحركة . . وقف عند الحاجز . . الشرطي ذو القبعة الخضراء . . ولا فائدة من "مباطحته" . . الحمار يحس بالاختناق . . لأنه لا فائدة من "مباطحة" ذي القبعة الخضراء . . أبو محمد كذلك يحس بالاختناق . .

يوقفه الشرطي . . يسأل عن هويته . . لا يفهم لغته . .

-"يا خواجه ! هل هذه خربة أبو حرب؟"

- شو هذا خرب . . خكي فادي . . هذا نير عتصيون . . أنت بيفهم يا خمار . . ؟

- هذا الحمار يا خواجه . . لا يفهم لغتكم . .

رفض الشرطي أن يسمح لأبي محمد بالدخول مع حماره، كان بحاجة إلى لغة خاصة ليقنع الحمار بأن يتفاوض مع الشرطي . . مشى على الرصيف . . أصطدم بحاجز حديدي . . لم يمت . . بحث عن حاجز آخر ليصطدم به ويموت . . كان الظلام قد خيّم على الأرض . . ولفه مثلما لف شجرات السرو المنتصبة منذ عام التشريد . . تذكر البئر التي حفرها قبل أن تصل مصفحات الجيش . . كان مطمئننا . . توكل

على الله، لم ييأس فقد أبلغ أهل بيته أنه إذا تأخر فهو موجود في "خربة أبو حرب" . .

قرية

على سبع تلال ترتفع عشرات الأمتار عن سطح البحر تقع في بلاد العجم قرية اسمها " داليا" . . ورغم أنها لا تبرز على الخارطة إلا أنها معروفه في جميع بلدان العالم . . لأنها جميلة . . ولان أهلها ربطوا مصيرهم بمصير أهل " الذمة والوجدان " ولأنهت أنجبت كل الأنبياء . . . ولان فيها مصنعا للكلسات النسائية وآخر للفرو . . .

وذكر اسمها في كتب التاريخ ، فقد قال عنها الرحالة " ابن وزوزه " أنها بنيت زمن الأمويين لتكون محطة للبريد على طريق الشام . . وورد ذكرها في كتاب الحاخام " يحزقيل أبو دبوس " حيث كتب عشرات الصفحات مسلسلا تاريخها منذ أيام " البيت الأول " اذ قامت على أنقاض قرية يهودية سميت " بيت دالي " وما زالت أنقاض كنيس يهودي قائمة على بعد خمسة كيلومترات جنوبي القرية ، تشهد باسم الله والتوراة أن اليهود هم أول من استوطن التلال السبع لأن الله قدم ستا منها لشعبه المختار وارتاح في اليوم السابع وتركها اليهود بعد أن احتل العرب بلاد الشام في القرن السابع الميلادي . . واقسم الحاخام أن يعيدهم اليها ثانية . وأما المؤرخ أو المستأرخ الأستاذ سمعان سمعان فقد أعاد تاريخها إلى ما قبل ثلاثمائة عام . . زمن الحاكم فخر الدين إذ بني

فيها معبدا . . وقصرا . . وسكن فيها رجل محترم . . ألف أغنية " الأمل " لأجل عيني ابنة الحاخام يحزقيل . . وأقسم أن يعبد حبيبته اليها ثانية .

أهل هذه القرية جماعه من أهل " الحكمة " . . كانوا فلاحين وكانوا بسطاء . . وكانوا يحبون بعضهم البعض وكان يسكن بينهم شيخ فقير الحال . . طيب السمعة يحب الحكمة ويحب الجماعة . . وكان نبيا وليس كالأنبياء . . لم يدخل كهفا في حياته . . ولم ينزل عليه جبرائيل . . لم يقرأ ولم يكتب . . والحكمة علمته أن يقول الحكمة . . لا أن يدعيها . . فأسموه الأعرابي الحكيم . . ورفض أن يقال عنه الحكيم . . فسقط اللقب الثاني وظل أعرابيا " حاف " والحمد لله رب العالمين .

شلومو

كان الأعرابي متواضعا . . لم يعرف متى ولد . . ولم يحسب حسابا للزمن . . لم يذكر لحظة خوف . . رغم انه كان قلقا طوال الوقت . . وكأن القلق ولد معه . . يلتصق به كالتصاق ذراعيه بمنكبيه . . لم يحس مرة أنه ضعيف . . بل كان أقوى أبناء قريته . . كان يؤمن بالله . . ولذا امن بالحرية ! !

وكان أهل الحكمة طوائف ومللا . . ولم يحب أحدهم الآخر . . لكنهم كانوا يتحدون ساعة الخطر . . وكان هناك ما يوحدهم . . ففي الأربعينيات مثلا عندما هجم أهل القرية المجاورة ليسرقوا "الطرش" صاح الجميع" جاي يا غلمان " وخرجوا من بيوتهم وظل هو قابعا في بيته . .

ولم يحرك ساكنا . . فاتهموه بالخيانة . . . والتآمر . . ولم يحرك ساكنا . . ونجح أهل القرية المجاورة في أن ينهبوا خمسين رأس غنم . . . وأهل الحكمة لم يحركوا ساكنا . . حتى جاء البوليس الانجليزي وأطلقوا رصاصة في الفضاء . . فانقض الجميع على القرية المجاورة . . نهبوا وجرحوا . . وقتلوا . . وسجلوا هذه الحادثة في سجل البطولات والتاريخ .

وأما الضابط الانجليزي فقد كان يشرب القهوة في بيت الخواجة شلومو مندوب الوكالة ، في بيته الجديد على أرض " الشلالة" . . وسمع دوي الرصاص . . عندئذ ابتسم وضرب كفا بكف . . وبلع ريقه وراح يحدث مضيفه عن زوجته الشقراء . . التي كانت جميلة وجذابة واليوم أصبحت جعداء .

- سئمت منها . . ابحث عن واحدة سمراء قمحاوية . .

قال الضابط ورفع كاس الكونياك إلى فمه . .

قهقه الخواجة شلومو ووعده . .

- غدا مساء .

مخاتير

كان في القرية ثلاثة مخاتير ، الأول عينه أهل القرية ، والثاني عينه الإنجليز ، والثالث عين نفسه بنفسه . وامتاز المختار الأول بإخلاصه لأهل القرية ، كان يصلح بينهم . . كان يحبهم فكانوا يحبونه . . كان يوقع

على التصاريح الرسمية دون أن يسأل الشخص عن عائلته . . ويكتفي بقرش أو قرشين فقط على كل معامله .

والمختار الثاني كان مكروها . . لأنه هو سبب الخلاف بين أهل القرية وأهل القرية المجاورة الذين ينهبون " الطرش " . . ولأنه كان هو السبب في مـقـتل سـلامـه المحـمـد في ارض "النزازه" . . ومع كل هذا كـانت له خدمات . . وكان يحل من المشنقة . . وهو الذي دبر رخص " البواريد " من حاكم اللواء . . وهو الذي ساعد الكثيرين في تهريب اللحوم والجبنه واللبنه إلى المدينة المجاورة . .

وأما المختار الثالث فلم يعرف أحد كيف أصبح مختارا . . كانت حوله عائلة كبيرة . . وفي صباح يوم صيفي أعلن : "أنا مختار . . أنا مختار البلد والحاضر يعلم الغايب . . والعتب مرفوع والرزق على الله . . " وبنى خلال شهر بيتا كبيرا . . من حجر . . وفيه مضافة وخمسون مقعدا . . وطقم قهوة سادة . . ولبس قمبار روزه أصفر . . وحطة وعقال وقال لأقاربه :

- أنا المختار . . أنا المختار.

ورددوا كلهم كالببغاوات أنت المختار . . أنت المختار . والتف أقاربه حوله . . وعمرت المضافه . .

كان المختار يغيب مرتين في الأسبوع . . يختفي دون أن يقول لأحد إلى أين هو ذاهب . . ويعود وعلى ظهر حصانه " شوالات " لا يعرف أحد ما بداخلها . . وكان الخواجه شلومو يزوره أكثر من ثلاث مرات في

الأسبوع . . يحدثه عن كل شيء . . كان الخواجة جذابا في حديثه . . يفهم كل شيء . . على الطاير . . فأحبه أقارب المختار . . خصوصا عندما كان يروي لهم نكات بدوية . . بلهجتهم ، تماما بلهجتهم :

- والله ابن حرام .

همس أحد الجالسين في الديوان في أذن رجل مسن جلس بجانبه . . فتوقف الرجل عن "تنقيب مناخيره" ومسح أنفه بطرف الحطة . . وهز رأسه وقال :

- غريب . . كيف تعرف المختار على هذا الخواجه "البندوق" . .

لم يجب احد على سؤاله . . لم ينطق أحد ببنت شفة . . إلا الأعرابي . . لم يطق الصمت . . ضرب الأرض بعكازه . . وصك أسنانه . . وانتصب على رجليه . فأثار انتباه الحاضرين والخواجة معهم ، وصرخ الأعرابي في وجوههم :

- بعتوها . . بعتوها بمسحة ذقن يا أولاد ال . . .

وخرج وهو يتمتم ويداه ترتجفان . . وعصاه تكاد لا تحمل جسده الهزيل .

وسأل الخواجه :

- من هو هذا الشيخ ، لأول مرة أراه في ديوانكم العامر .

وأجاب المختار على الفور : مجنون يا خواجه . . مجنون .

ثم رددوا كالببغاوات : مجنون يا خواجه . .

الحنتريش

الحنتريش : كلمة عبرية مصدرها عربي . الأصل " قنطار ريش" ؛ ولفظها عامة العرب "قنطريش" ، والمستعمرون "كنتريش" وأما أولاد عمنا الذين تضايقهم القاف العربية فأسقطوها من الأبجدية ، ولفظوا الكلمة : "حنتريش" ، وهكذا تعلمناها نحن "الغرباء" .

الحريق

القرية الواقعة في بلاد العجم . . كان يسكنها خمس عائلات كبيرة وعشرون عائلة صغيرة . . عشر منها طفيلية أو متطفلة أو في " ظل الحيط الواقف " وخمس منها " دايرة على السترة " وواحدة بيت ذكاء . . وواحدة بيت شجاعة . . وواحد من اللاجئين . . وواحدة " فراطة أو حنتريش" والأخيرة اشتهرت بالمشاغبة والهمالة .

ومن بين العائلات الكبيرة كانت عائلة تنافس عائلة أخرى على الزعامة . . ولم تكن هناك انتخابات سرية ، مباشرة ، عامة . وحدث مرة أن دعا رئيس العائلة الكبيرة حاكم اللواء لحفلة غذاء على شرف الحاكم ، حضرها لا يقل عن ثلاثمائة شخص . . أكلوا ما مجموعة – مع ما فرقوه على الجيران والأقارب – " شوال رز ، وعشر ذبائح " . . حتى كلب الحاكم نال حصة من " القص " . . أخذتها زوجته في كيس ورق . . خصيصا للكلب الذي يستريح يوم الأحد ولا يغادر المنزل ولهذا السبب رفض الاشتراك في الحفلة التكريمية . .

كانت الحفلة في أول الأسبوع، وفي آخر الأسبوع حضر الحاكم حفلة تكريمية في بيت زعيم العائلة الثانية . . وحضرها خمسمائة شخص وكلب الحاكم ولم تحضر زوجته لأنها ظلت تحرس الدار . . وذبح الزعيم عشرين رأس غنم . . وألقيت الكلمات في الحفلة، تكلم الحاكم باللغة الانجليزية وترجم ابن المختار . . وصفق الجميع ولم يفطن الكلب أن يأخذ لقمة واحدة لسيدته . .

اشترت العائلة الأولى " بابور " طحين . . واشترت العائلة الثانية معصرة زيت . . فأرسل حاكم اللواء رسالة تحية وتقدير للعائلة الأولى على هذا الانجاز . . وأرسل رسالة مماثلة للعائلة الثانية . . ثم قام بزيارة إلى العائلتين . . ولما أحست زوجة الحاكم بأنها سمينة . . وأن فساتينها أصبحت ضيقة قرر زوجها أن يتوقف عن الزيارات إلى أن تنتهي فترة "الرجيم" . . فأرسل مساعده وأخبره أن "بابور" الطحين قد احترق . . وأن الوضع متوتر في القرية . . وأن عائله "المعصرة" هي التي أحرقت البابور .

وفي ساعات الليل هاجم أفراد عائلة "البابور" العائلة الثانية وهدموا المعصرة . . وقطعوا بالبلطات شابين من خيرة شباب عائله "المعصرة" . وفار الدم، واشتعلت النار، والبوليس طوق القرية المجاورة . . وحاولوا أن يصلحوا ذات البين بين العائلتين لكنهم تلقوا أوامر من الحاكم بأن لا يتدخلوا حتى يحضر . . ولما حضر كان الدم يجري مثل "المي" . . وأمر الحاكم بإبعاد العائلتين عن القرية . . وفعلا، بقيت ثلاث عائلات كبيرة، ومن كل عائلة عينوا مختارا، مختار عينه أهل البلد، ومختار عينه الانجليز، ومختار عين نفسه بنفسه .

القروط

كان من بين أفراد عائلة الحنتريش شاب في الخامسة والعشرين، جاء من بلاد بعيده. وادعى أنه ينتمي للعائلة. كان شابا ابن.. ابن حرام.. فنان سرقة.. ولكنه كان "شريفا".. ولم يسرق من الفقراء، ولم يسرق كل ليله إلا غنمه واحدة..

كان يذبح الغنمه ويهربها إلى المدينة المجاورة.. ويبيعها "لحم صافي طازج للانجليز".. للضباط الانجليز.. في البداية كان عمله صعبا وخطيرا.. ولكن عندما ذاقت زوجة ضابط بوليس حيفا طعم هذا اللحم.. نادته وطلبت منه أن يحضر لها كل يوم رطلا طازجا.

وقال لسيدته: "التشيك بوست يا مظام.. والأمباشي يفتشني كل مرة.. ويا ليتك تعرفين أين أخبئ اللحم."

ولم يخبرها أين يخبئ رطل اللحم، ليس لأنه خاف أن "تفسد عليه" وانما خاف أن تقرف منه.. ولكنها طمأنته:

لا تهتم.. قل لهم أن هذا للمستر "بروكر".. المسز بروكر.

وأصبح العمل سهلا.. عالمكشوف.. يلف اللحم في ورقه.. ويضعها في كيس جلد.. وعند نقطة التفتيش يغمز الامباشي.. ويستمر في طريقه..

وفي أحد أيام الثلاثاء استدعاه المستر بروكر إلى مكتبه، في الرئاسة.. ولم يعرف الشاب سبب ذلك.. وخاف أن يكون أحد أبناء

القرية قد أخبر عنه . . وأول ما فكر به هو أن يطلب من المسز بروكر لأن تتوسط له أمام زوجها . . لأن العقاب على التهريب . . قطع رقبة .

وتوجه إلى الرئاسة . . وكانت أطرافه ترتعد . . واصطدم عند البوابة بشرطي يعرفه . . من أهل القرية . . حياه بلغته . . فلم يرد الشرطي . . ولما "ضرب السلام" . . وحياه باللغة الانجليزية . . تكلم الشرطي وسأله :

- ماذا جئت تفعل في الرئاسة؟

- لقد استدعاني المستر بروكر . . ولا أعلم ماذا يريد .

ابتسم الشرطي . . وهز رأسه . . وربت على كتف الرجل وقال :

-حتى أنت يا قروط؟!

وابتسم " القروط " . . واطمأن . . واستفسر عن رقم الغرفة التي يجلس فيها الضابط . . وأخذ يصعد السلم المؤدي إلى غرفة رقم **203** في الطابق الثالث .

كان المستر بروكر ينتظره في مكتبه . . ولما دخل أغلق الباب خلفه . . وغاب . . وخرج بعد أكثر من ساعتين . . ونزل السلم ، بهدوء ، ببطء إلى أن وصل إلى البوابة . . عندها توقف ونادى الشرطي :

-اسمع ولا . . من اليوم وصاعد لا تستجوبني . . ولا تتدخل في شؤوني!

العصابة

المستر بروكر كان يحب كل من هو حنتريش . . أو يستلطفه . . لكنه لم يزر أحدا منهم حفاظا على جلالته عز وجل ولكي لا يفتح عليه أبوابا مغلقة . . أو -حاشا وكلا- كي لا يدنس طهارة تاج جورج الخامس . . .

وكان استلطافه لهؤلاء يثير غيرة المشايخ والوجهاء . . وحين كانوا يسألونه كيف يستقبل مثل هؤلاء القواريط؟ كان يجيبهم أنه مسؤول . ولا فرق عنده بين فقير وغني . . والناس في نظره سواسية كأسنان المشط وهو متسامح . . وقلبه كبير ، فيثير إعجابهم لدرجة أن الجميع قالوا عنه انه ابن حلال رغم أن أمه انجليزية . . ويزداد ثقتهم به واخلاصهم له فيتركون أشغالهم ويتسابقون إلى بيته أو مكتب الرئاسة ليخبروا عن أولاد "اللمم" الذين يخبئون البواريد في التبان ، وتصل الخبرية إلى عصابة زعران ، فكانوا يدخلون في ساعات المساء . . وعند مدخل القرية ينادون أحد الأهالي ويأمرونه بأن يركض في الشارع ويصيح بأعلى صوته : يا أهل البلد . . وصلوا النشامة . . وصلوا . . احتلوا بلدنا ، فيدب الرعب في قلوب الناس . . ويغلقون أبوابهم وشبابيكهم . . وخلال لحظات تتحول القرية إلى خربة مهجورة من السكان . . وتخلو من أية حركة ، وبعدها يجوبون في شوارع القرية . . حتى يصلوا إلى بيت المختار الذي عينه الانجليز . . يحتلون البيت . . ويأمرون المختار بأن يعد لهم الطعام . . وأن يبعث جماعته لينادوا أهل القرية كي يتجمعوا

على البيادر للتفتيش والتحقيق . . والمختار ينفذ الأوامر دون أن يحرك ساكنا . . وعندما يتجمع أهالي القرية كان الزعران يمسكون اثنين أو ثلاثة منهم وينهالون عليهم بالضرب والرفس إلى أن ينطقوا ويعترفوا بأن البارودة الانجليزية موجودة في حفرة قرب عين الشمالية . . ملفوفة بالجلد مع خمسة " أمشاط فشك " . . ويتهامس الأهالي :

- مسكين اللي بيعلق مع أولاد اهالحرام . . الله يقطعهم .

وفي إحدى هذه الحملات التي تكررت أكثر من ثلاث مرات أسبوعيا امسكوا الأعرابي . . وأخذوه إلى منطقة وعرة خارج القرية . . وربطوه بالحبل . . وانهالوا عليه . . وسألوه والعصي تنهال على جسده المنهار . . .

- أين تخبئ البواريد؟

- لا يوجد عندي سلاح !

- أنت كاذب . أنت خائن !

قال له رئيس الزعران وشده من شعره وضرب وجهه بالأرض فتهشم وسال الدم من أنفه وجبهته .

وأعادوا السؤال وبصقوا عليه وضربوه . . وظل الدم يسيل من وجهه . . وهو يحاول أن يرفع رأسه ليسألهم " أخون من ؟ "

- أنت تخون الثورة ! !

" الثورة . . هيه . . الثورة" أنتم زعران . . زعران . . لا تتآمروا على الثورة . .

هذه الكلمات كادت تخنقه لو ظلت في حلقه . . الثورة . . الثورة . . وهؤلاء . .

ولم يعرف كيف انهالت عليه اللكمات . . والضربات . . ولم يعرف كيف اختفى عنهم وكيف اختفوا عنه . .

وما عرفه في وقت لاحق أن قوات الثورة حاصرتهم في وادي الملح . . وهو ظل يتنفس . . وعاد بخطوات ثقيلة ليبشر أولاده بأن الثورة ما زالت ثورة . . وأن الأمور بخير . . وان لم تكن على ما يرام .

شلومو

القرية الصغيرة الهادئة الجميلة كانت مسالمة . . ومسالمة يعني متآمرة في قاموس الأعرابي . . . الضابط دخلها في منتصف الليل . . وكان المختار في استقباله وحوله بعض المشايخ أو بعض الذقون المتساقطة . . الساقطة كالشلال على الصدور المريضة . . ووقعوا على وثيقة سلام – استسلام بروح التحالف والدم . . وإحنا سوا . . سوا من ألاف السنين . . " احنا اثنين ! في لباس" . وبشرط أن يطلقوا سراح المساجين الذين اعتقلهم الانجليز قبل خمس سنوات . . لأنهم سرقوا بقرات أهل " إجزم " . . وقتلوا عجوز من "جبع " وسرقوا ذهباتها . . والشرط الثاني أن يظل المختار . . مختارا على كل أهل القرية .

وفي اليوم الثاني وصلت إلى مركز القرية خمس سيارات جيش . . فنزلت فرقة من الجنود . . ووقف أفرادها حول السيارات . . بينما تجمهر أولاد الحارة في الساحة وهم يصيحون :

- شلوم . . شلوم يا خواجه .

وتقدمت زوجة المختار . . تحمل أرغفة من الخبز العربي . . ونظرت حولها ، ولما أدركت ان لا أحد من رجال القرية يسمعها همست :

- الله ينصركم . . الله ينصركم . . كانوا ظالمين ! !

كانت عيون الجنود تحدق بشراهة في الخبز . . ولم يسمعوا . . أو سمعوا ولم يفهموا . . أو فهموا ولم يهمهم الأمر .

ولما عادت زوجة المختار إلى البيت كان الخواجه شلومو يعانق زوجها . . بحرارة لدرجة أثارت غيرتها . . ولولا أنها تعرف أن زوجها فحل لظنت أن الخواجه يغازله أو أن زوجها يخونها . . فهو فحل ، والخواجة أشقر وأزرق العينين .

أبو دبوس

وفي القرية المجاورة دخلت دبابة ، و" بلدوزر " حرث القرية حرثا . . إلا الجامع فقد ظل فيه الإمام . . شيخ في السبعينات من عمره ، يتكلم الفصحى بطلاقة . . مكفوف البصر منحني الظهر . .

دخل الجنود عليه وأمروه أن يسلم ويرفع يديه . . فعل ما أمروه به . . فتشوه . . وأمروه أن يخرج فرفض . . تقدم منه الضابط وصرخ في وجهه فاهتزت جدران الجامع . . أطلق رصاصه فتساقط غبار من السقف . . أسبل الشيخ ذراعيه وبصق في وجه ضابط الشرطة فمسحها وأمر جنوده بأن يناولوه " العشاء " . . فسحبوه . .

وحرث البلدوزر الجامع واختفى الشيخ بعد وجبة " العشاء " . .

مسحوا " أم الزينات " عن خارطتهم الجديدة . . إلا شجر الزيتون ظل ينتظر عودة الأحباب تحرقه أشعة الشروق وتبلله قطرات الندى ، دليل على تجدد الحياة .

وهكذا ، في بلاد العجم تصبح نبوءة الرب يحزقيل أبو دبوس غبارا يتساقط من سقف الجامع ، وامرأة تحمل أعرابيا . . ولد على شفرة البلدوزر . . في المرة الأولى . . وولد في لهيب النار في المرة الأخيرة . . والمؤرخ العربي يذكر أنه ما دام على الأرض امرأة تحبل . . فسيظل على الأرض أيضا من يبصق في وجه الضابط .

المسيرة

عاد الأعرابي إلى بيته مهشما محطما . . كانت السيارات تحمل الرجال والنساء والأطفال وتكبسهم كبسا كالسردين . . وزوجة المختار تصيح العتابا في باب الدار . . بعد أن أصبح زوجها عمدة القرية والخواجة شلومو يجلس في صدر الديوان بحكي باللغة العامية "البداوية" عن تجارة الخيل ، وعن مغامراته في " المطلة " ومرج ابن عامر . . وكيف تعرف على صديقه المختار !

طلب الأعرابي من زوجته أن تناوله الماء . . ألقى بجسده المنهك على الفراش . . أحس بصداع حاد في رأسه . . داهمه حزن لم يعرف مثله من قبل . . أحس بالاختناق . . الهواء يضغط عليه بكل ثقله . . وزوجته تكاد تكون خائفة . . تماما مثل زوجة المختار . . صرخ في وجهها . .

انتفضت . . أقسمت له أنها تحب أطفالها . . أمرها أن تنادي ابنه البكر . . حضر طفل صغير . . عانقه . . تملكته شحنة كهربائية سرت في جلده . . طمـأن ابنه أنه لن يرحل عن هذا العـالم . . وطلب منه ألا يشـفق على والده . . لأن والده لن يشفق عليـه رغم أنه بدا يخطو الخطوة الأولى في مسيرة تمتد طويلا . . طويلا . . لتعيد والده ثانية إلى الحياة . . وهي سيرة كئيبة . . تماما مثل كآبة الموت . . وهي مسيرة لم تنته بعد . . .

سيرة شيخ

وجاء إلى يافا يتنقل بين بيوتها، ويحملنا ما تحمله الذاكرة، لننقلها نحن أو لكي لا نحمل نحن مثل ما حمله هو هذه السنين الطويلة.

استرخى جسده على ايدينا فوضعناه على سرير بلا وسادة وبلا غطاء..

كان قلبه ما زال ينبض.. والذبول الذي سيطر على جفنيه لم يمنعه من أن ينظر الينا،

كانه يريد أن يقول شيئا..

"لا تدفنوني الاّ في يافا".

راعي

حين لا تقدر على التعامل مع الجغرافيا والحاضر نعود إلى الذاكرة، وحين أردت أن أعرف ماذا حدث في ذلك العام اقتحمت مملكة / ذاكرة لشيخ مشقق الوجه. تحدث الي، كان معي في رحلة طويلة، اعتقدت في البداية أنها ستنتهي في المحطة الأولى ولكننا قطعنا الثانية وأخرى ولم نتوقف إلى أن لفظ الشيخ مشقق الوجه أنفاسه على شاطيء يافا.

وهكذا شاءت الحكاية التي لم تنته بعد، فتظل البروه. ميعار. معلول. ام الزينات. عين غزال. جبع. صفوريه. اكزم. وعشرات. عشرات من هذه القرى الممسوحه، تظل ملامحها بارزة تتحرك، تنطق تصرخ في تجاعيد ذلك الوجه الذي شققته ايام السفر - سفر بلك، وايام الثوره وايام الهجيج والايام التي كان يدخل حينها ضابط" جنجي" وخلفه حاشية ادناهم فيها شاويش واصغرهم كلب يلبس جارزه من الصوف الانجليزي في فصل الشتاء، وفي الصيف يأبى الا ان يرفع رجله عند مدخل بيت المختار ويبول والحاشية كلها في انتظاره.

ذلك الوجه الذي تجعد يحمل عينين غائرتين ويتوسطه شارب غلب على شيبه اصفرار النكوتين منذ ايام الصبا والشباب حين كان موسى ديان" مخضر" واغنامه تتسلل إلى اراضي" المجيدل" تأكل "الأخضر واليابس" وتنهش في الارض نهشا، ولا رقيب ولا دوريات ولا بوليس. وفي المساء سهرة" أحباب" في بيت مختار أو امسية تعارف على البيادر، ولما كبر ديان وحضر مع حاشية كبيره لزيارة القريه وسأله" محمد العلي"

: صرت وزير يا ديان ؟ فأجابه وهو يبتسم لمستشاريه : غصب عنك. خليك أنت راعي !

وخشي أن يقول له، ما قاله لنفسه :

" حتى من هاي النعمه حرمتونا. اي هو بقي ارض نرعى فيها" ؟

الأدون

في سوق الناصره التقى الشيخ الذي نتحدث عنه تاجر بقر من اصل روماني يدعى بيرنباوم، ولما كان اسمه" لا يدور" على لسان الشيخ فقد اتفق على تسميته" الادون" اي السيد، وهو لقب استحدث في عام النكبه حين تحول السيد إلى عبد والعبد إلى ادون، فسأله من اين أنت يا ادون؟

فأجاب بيرنباوم : أنا من صفوريه. بلهجة عربية بداويه وفيها خبث.

وسأله من أين أنت يا شيخ ؟

فأجاب الشيخ الذي نتحدث عنه : أنا من رومانيا ؟

وقالها بلهجة فيها كثير من الخبث. فضحك الادون. ولم يصدق ان هذا الشيخ من اصل روماني، وسأله ان كان يسخر منه. فرفع الشيخ يده وحاول ان ينزلها قاصمة على رأسه قائلا له : يا ابن الكلب، هل تريدني ان اصدق انك صفوري.

وتراجع الشيخ ومنذ ذلك الوقت قرر الا يسأل احدا منهم عن اسمه وعن بلده.

في يوم الذكرى يجمع الشيخ اولاده وأحفاده ليأخذهم إلى صفوريه ويمضي معهم نهارا كاملا ، يأبى الا ان يصوم في ذلك اليوم ، أو يعلن أضرابا عن الطعام ، لا يسمع به أحد ، ولا يقرأ عنه في صحافة العالم ، يذرف الدموع ، يلاطف شعر أحد أحفاده الذي يلح عليه دائما أن يحكي لهم عن عن الارض القريبة ، أو اللي كانت قريبه ، عن "الدربيه" و"غرب البلاطيه" و"قطعة الجامع" و" الذيل" ، وعن"الشويلي أبو خضر" . . ويحكي للطفل الصغير حكاية الادون بيرنباوم ويشير بسبابه الى"الفيلا" التي تطل عليهم ويقول :

– هذا بيتنا وعليه بيت الادون !

دجاجة

جلس إلى جانب موقد النار. أمسك ملقطا نحاسيا وأخذ يقلب الجمر الذي خبت حرارته شيئا فشيئا ، وصار يجمعها في كومة صغيرة على الرماد الساخن ويضع عليها ابريق القهوة "الساده" فتنهار الكومة ويتفتت الجمر ، ويجمعها ثانية ، ويرفع رأسه وينظر الينا ، يتذكر شيئا ما سرعان ما يثير ضحكة متواصلة تخفي تجاعيد وجهه وهو يقهقه ويبدو كأنه شاب في الثلاثينات يبتسم للحياه وتبتسم له ؟

"عندما كنت في البيت . في ساعات العصر . سمعت طلق بارود . قلت راحت البلد . وقفزت من مكاني ، نشبت مثل الارنب ، حتى أشوف شو صار في البلد . قالت زوجتي : أقعد يا شيخ . ما صار شي .

جيش الانقاذ محاصر بلدنا ومش راح يسمح لأي" ابن ميته" يفوت . ما صدقت هالحكي . عند بوابة الدار كان ثلاث جنود انقاذ . كانوا يحملوا بواريد خرتوش . سألتهم شو صار في البلد . وين النشامه وينها . فقالوا : استشهدت دجاجه . هم قوسوها ومعطوها وأكلوها . ومن يومها قلت للمره والاولاد : حضروا حالكم ، ما بقي في هالعمر مهله . راحت فلسطين . . راحت بلدنا " .

وأزاح نظره وكاد يدفنه في رماد الموقد . وهو يتمتم : قال استشهدت دجاجه ! شوف هالحكي !

ضابط

الى جانبه جلست طفلة ولما رأت أن جدها يحجم عن الكلام اخذت تقص لنا عن الفرقة التي دخلت القريه في ساعة متأخرة من الليل ، وعن جدتها التي بصقت في وجوههم ، وكلما سردت حكاية تسأل جدها :

- مش هيك يا جدي ؟

كأنها تعرف كل شي ، وسكتت بعد أن أخذ الشيخ الذي نتحدث عنه يسرد لنا حكاية الهجيج ، طوّقوا البلد ، القوا قنبلة في ساحة الدار فانهارت على اطفال محمد السليمان قتلتهم واحد . . واحد . . لم يبق من هذا البيت أي أثر . . اطلقوا النار على شابين فسقطا . . فهاجت القريه ، أردنا أن نقاومهم لكن "احسن سلاح كان في ايدينا مرتينه وأكم خرتوش" . دخلوا وهم يطلقون النار"على اللي رايح وعلى اللي جاي" ،

أمرونا نخرج من البيوت وتجمعنا في ساحة البلد. جاء ضابط وقال لنا ابقوا في بيوتكم. فصدقناه. وجاء ضابط آخر وقال: خلال **48** ساعة ما بدي أشوف حدا في البلد. فصدقناه وحملنا ما استطعنا ان نحمله وضعنا كل شي في الدست الكبير وحملناه على الدواب. . كان عندي بيت بست سبع غرف، هدموه، كان عندي عشرين رأس بقر، راحوا، وما اعرفت وينهم، كانت بلدنا عامره، قريه مزهزهه برجالها ونسوانها واطفالها، لكنهم مسحوها، مسحوها عن وجه الارض، أحيانا يأتي شباب صغار ويسألونا: ليش تركتوا البلد ؟

ليش تركنا البلد ؟ أنا عارف ؟ بكره راح نموت. وخايف إذا متنا تموت بلدنا معنا. وما بقي في العمر مهله.

ولا شي

في غمرة أحداث اليوم تغيب عن الذاكرة تلك الصور التي يتحدث عنها الشيخ وابن الشيخ وزوجته وحتى أحفاده، نقول كانت هناك قريه اسمها كذا، وكانت هناك بلده صغيره واسمها كذا، نقولها عندما يقطع الباص الذي يحمل أطفالنا في رحلة ربيعية إلى مياه" الساخنه" التي تنتشر فيها اللافتات التي لم نتعود ان نقرأها نحن ولا يجيد قراءتها أطفالنا، حتى انهم لا يفهمون ان في بركة من البرك ينتظرهم خطر الغرق، فيقفز أحدهم ولا يعود الينا الا جثة هامدة. وفي غمرة أحداث اليوم تختفي تلك القرى التي كانت مئذنتها تعانق السحب ورؤوس كنائسها تشمخ وعلى تراب الزقاق العتيق يلهو أطفال صغار ولدوا في اقرث مثلا أو في

جبع وترعرعوا لاجئين في براكية خشب وان ابتسم لهم الحظ كبروا في غرفة صغيرة في وادي النسناس وفي قلوبهم شوق يشدهم للعودة حتى إلى الازقة الترابية التي كانت تلطخ ثيابهم، نتذكر أو لا نتذكر، نحلم أو لا نحلم، سنعود أو لا نعود. فعلى لسان الشيخ، وفي كتب التاريخ، في الذاكره الاكبر، تظل عشرات القرى تنتظر عودة أبنائها وتظل الذاكرة تحمل صورة حية عن عرس الست ورديه، وعن زفة جمال الصالح، وعن طوشة البيادر، وعن الجنازه اللي حضروها اهل الشرق والغرب، وعن.. وعن..

قلنا : يا شيخ، بعد عمر طويل شو راح تترك لنا ؟

ولا شي، يمكن حكاية بلد

بتظل قريه عامره في القلب.

قريه مزهزهه برجالها ونسوانها واطفالها

بعمرانها واشجارها

بتضحك لقرص الشمس

وما بتنتسا.

عين حوض

جلسنا تحت ظلال شجرة صنوبر في يوم حزيراني دافيء، استلقى الشيخ على سرير حديدي، وبين الحين والآخر مسد لحيته البيضاء وأطلق زفرة وواصل تنهده وهو يتمتم كلمات لا تفهم معانيها. سألناه : ما هي

حدود"عين حوض؟. نزل عن السرير ووضع يده على كتف أحدنا ومشى حافيا، وأشار باصبعه نحو الشرق : هناك العراق الاحمر وحجر الشقيف K ومن القبل حجر السرج ومغارة الفرج. ومن الغرب : الطبله والمحجانه. ومن الشمال : وادي فلاح. وعاد إلى سريره وتمدد عليه وانتظر سؤالا آخر.

كانت الشمس تشرف على السقوط في بحر "عتليت"، خلف القلعة المحصنة من ايام" قلب الاسد" والغزو الصليبي البائد، وان كانوا بنوا هذه القلاع ليوهموا الناس أنهم باقون إلى الأبد، فان ما تبقى منها لا يقنع الناس الا بان الغزاة بناة القلاع ذاهبون حتما إلى حيث لا رجعة. ولما حان الوقت لدحر ما تبقى منهم، وصل من "اللطرون" فارس يسمى حسام الدين ابو الهيجاء، فحاصر القلعة اربع سنوات، ولم يجد منفذا اليها الا حين شاهد كلبا جاء من الداخل. فقال : نتبع الكلب فنكتشف المنفذ. وفعل، ودخل من جهة البحر. واحتل القلعة. وتشبث الفارس بالارض. وتزوج. وانجب أربعة أولاد. وتزوجوا وأنجبوا. وكانت عين غزال والمزار وجبع والطنطوره وكفر لام والشيخ براق وعين حوض.

جامع

استأذن الشيخ الذي نتحدث عنه، وقام ودخل غرفة معتمة، وظل ابنه يتحدث عن دير الصليبيين وعن قصة" آمنه" التي كانت في طريقها إلى القرية المجاورة فتربص لها عدد من الزعران، "فقشطّوها اساور الذهب" وقطّعوها ودفنوها في المشحره.

في"عين حوض" التي تحولت الى "عين هود" قرية الفنانين، كان جامع كبير امتدت مئذنته امتارا عدة عن سطح الارض وامتارا كثيرة عن سطح البحر. وفي بلد الفنانين أصبح الجامع مطعما تقف فيه فتاة جميلة وتقدم إلى الفنانين وضيوفهم ما تيسر، وفي لحظة من لحظات الخشوع والارتخاء تنطلق موسيقى هادئة.. وتغيب الفتاة في دهليز، فيخبو نور الله. وقيل: الحمدلله، الذي لا يحمد على مكروه سواه..

فنان

قبل سنوات وصل رجل من قرية "سيريس"، فطرق على باب فنان جاء من أوروبا. قامت زوجته لتفتح الباب، فجفلت لمرأى هذا الرجل "العربوش" الغريب. وهو انخرس لسانه لما شاهد امرأة شبه عارية تفتح باب بيته. وهمّ الرجل بالرجوع وهو يمد يده إلى جيبه ليخرج علبة الكبريت ويشعل القرية بمن وما فيها. وكانت المرأة لطيفة، فدعته ليدخل. ونادت على زوجها الفنان، الذي ارتجف خوفا لرؤية الكوفية والعقال والشنب الغليظ، الا انه استجمع قواه بعد ان شاهد ابتسامة عريضة – ومشبوهة نوعا ما – ترتسم على شفتي الضيف.

سأله: ماذا تريد؟

فأجاب على الفور: هذا بيتي! أنا خلقت هنا!

– هذا بيتك؟

سأل الفنان والدهشة تربكه وتهد عزيمته.

- وكيف كان ذلك ؟

وجلس الرجل. وأخذ يحكي له القصة كاملة. وكان الفنان لطيفا، فقدم له القهوه، وعرض عليه كأسا من الويسكي، فاعتذر، وجلس إلى جانبه يصغي إلى تفاصيل القصة، وصدقها حرفا حرفا.

ويقول الشيخ الذي نتحدث عنه:

- عاد الرجل إلى سيريس، وقرر الفنان المنذهل الحزين ان يخلي البيت، فانتقل إلى بيت آخر. ولما كان ينتظر يوميا قدوم عربي آخر يسأل عن بيته الذي خلق فيه، فقد كانت تداهمه الكوابيس في الليالي المعتمة، ف قرر أن يترك البلاد خوفا من ملاحقة الطيف إلى كل مكان.

فنان 2

على تلة صغيرة يقع بيت "الامبوتشي" الذي حول بيته / بيت الشيخ محمود الحسين من أيام العرب، إلى معرض لرسوماته وتماثيله ويؤمه الزوار والسياح من المشرق والمغرب. وحدث معه ما حدث لزميله الفنان الآخر، فقد طرق عربي على بيته. ولما فتحت زوجته الباب وقال لها: هذا بيتي. اسرع إلى التليفون واتصل بالشرطه. ويقال أن قوة كبيرة من قوات البوليس حضرت لتبعد هذا العربي عن بيته. وهكذا تحولت دار ياسين إلى مرسم لفنان لا يرسم الا" المشلحات" ودار مبدا تحولت إلى مكتب لسكرتير القريه ودار حسن الاسعد تحولت إلى معرض تماثيل وفي دار الضرير يسكن فنان" صار مطلق ثلاث مرات" ودار محمد عبد الهادي

يسكنها طيّرجي، ودار محمود العوده أقام فيها" الاباتشي" مصنعا للسجاد، والمقبرة القديمة تحولت إلى ساحة فسيحة أمام الجامع بعد أن نظفتها التراكتورات من العظام والجماجم.

قيل مرة للفنان الأباتشي: هل تعلم ان الدار التي تسكنها لها اصحاب مشردون في مخيم جنين؟

فأجاب: انهم مدينون لي بالشكر. فقد حافظت على البيت وزدت عليه وأصلحته ونظفته..

ـ واذا جاء يطالبك به؟

ـ سأجبره على دفع التعويضات عن كل ما أنفقته وعن تعبي في صيانته.

غروب

كان الشيخ الذي نتحدث عنه، يملك ألف دونم واليوم أصبح يملك ثلاثين دونما، تقع على تلة صغيرة موازية للقرية، يحيطها سياج من الاسلاك الشائكة ليس خوفا عليه وعلى اولاده واحفاده من الحيوانات المفترسة وانما خوفا منه ومن اولاده لئلا" يعتدوا على املاكهم ويحتلوا" الارض التي كانوا يفلحونها "أبا عن جد".

توقف الشيخ عن الكلام ومد نظره صوب البحر كأنه يودع الشمس وهي تختفي شيئا فشيئا.

نزل على المكان هدوء كسكينة القبور ولم يقطعه سوى حفيف هاديء حملته النسمات القادمة من البحر، وعواء تسلل من البعيد فكسر الوجوم والصمت، "كانوا يضربونا من البحر والبر والجو. احتلوا بلدنا مرتين. في المرة الاولى بعثوا لنا انذار : اما نسلم أو يهاجموا البلد. ما سلمناش. الساعه **12** في الليل طوّقوا البلد. وهجموا. كانت القنابل تنزل علينا مثل زخ المطر. انقتل واحد. وانجرحوا اربعه. احنا كنا ثلاثين مسلح. دخلوا البلد. وحرقوا الحطب. كبوا الزيت. ونعفوا الرز والسكر. كان عدد سكان البلد ألف وخمسمائة نسمة. أمرونا بترك بلدنا، قبل ما يحرقونا معها. تركنا. المسلحين ظلوا في الجبال، وبعد أكم من يوم اقتحموا البلد واسترجعوها، لكن أجت الطيارات وقصفتهم. . ومن هذاك اليوم ما بيسمحوا لأولادنا يشتغلوا في البلد.

ـ ليش ؟

ـ قال بيخافوا تزيد عاطفتهم على بلدهم ويحلموا يرجعوها. أنا عارف ؟

وسكت الشيخ مشقق الوجه الذي نتحدث عنه. كانت الشمس قد توارت في ذلك البحر الكبير. ارتفع عواء الواوية الذي انطلق من الأحراش المحيطة بالبيوت المأهولة بأولاد الشيخ، وهم يكبرون وينجبون. على التلة المقابلة تلألأت أنوار المصابيح الكهربائية والفلورسنت في بيوت الفنانين، وحين داهمتنا العتمة تحت شجرة الصنوبر، قلنا للشيخ الذي نتحدث عنه : تصبح على خير يا شيخ.

لم نعرف إذا كان سمعنا، فهو لم يرد. ظل واجما يودعنا بنظرات حزينة، كأنه يريد أن يقول شيئا وكأنه لا يريد أن يقول. ولا أعرف، أنا، لماذا صرت منذ ذلك الوقت أحب مشاهدة الشمس وهي تسقط في أعماق البحر. في مساء كل يوم أنظر بصمت إلى هذا السقوط، وفي كل مرة تتراءى في خيالي قوافل الناس وهم في طريقهم إلى البعيد، وتتراءى قوافل الناس أمام ناظري وهم في طريقهم إلى القريب.

أم الزينات

الشارع المنفلت من دالية الكرمل شرقا يقطع مساحة شاسعة من كروم الزيتون.

يصعب عليك أن تتصور أن في هذه المنطقة كانت قرية عامرة واسمها أم الزينات. تنحرف يسارا على مسرب وعري بحثا عن أثر لبيوت من حجر، لكنك تضيع بين أشجار الصنوبر التي غرستها "الكيرن كييمت "بعد أن وصلت جرافات الجيش وقلبت الارض في حزيران من ذلك العام الأسود، واذا عاد أهلها المشردون في مخيم جنين وكل بقاع الأرض، ليشاهدوا ما تبقى من قريتهم، فلن يجدوا سوى أشجار الصنوبر، الرمز الاخضر لتحويل "صحراء فلسطين القاحلة" !! إلى كروم، وأحراش كمهمة وطنية قام بها طلائعيو" الهجرة الاولى والثانية والعاشرة" !

قال الشيخ مشقق الوجه الذي نتحدث عنه : " نشفوا المي. كانت حفنة من مية بير الناطف تطوّل العمر عشر سنين، خفا الله راح البير ".

هل يأتي يوم ويشرب ثانية من مياه بير الناطف ؟ كم كانت هذه الامنية فاتحة حديث طويل معه، ينتهي بأكثر من حفنة ماء، وبأكثر من بئر، وبأكثر من كرم زيتون، خصوصا وان حكاية هذه البئر ترتبط بالزير ابن المهلهل، أكثر بكثير مما يرتبط به أكراد مستوطنة "عين عيمق" الذين يحرثون الارض ويفلحونها دون خجل أو حياء. قلب الشيخ مشقق الوجه حبات المسبحة بأنامله التي أصابتها رجفة خفيفة اشتدت كلما احمر وجهه وقطب جبينه كأنه يحاول أن يفجر قذيفة من الغضب، لكنه عدل وانفرجت أساريره وواصل حديثه بهدوء وروية. يحكى، على ذمة الراوي، أن الزير بنى على بير الناطف قصرا من رؤوس السباع التي انتشرت في المنطقة، وقيل أنه عندما نزل مرة ليشرب من ماء البئر وجد السبع نائما، فأراد له أن يواصل نومه، فتركه ريثما يستيقظ ويهجم عليه، وعندها يشهر الزير سيفه ويقطع عنقه، لكن السبع غدره، فافترس حماره، وقرر الزير أن ينتقم منه، فأمسك به وربطه وعبأ قربة ماء، ووضعها على ظهر السبع، وركبه هو أيضا حتى أثقل عليه وهو يردد :

"اللي بدو يأكل حمير العرب بدو يزازي تحت القرب"

ودخل أم الزينات مكرما معززا على ظهر السبع، فتعلم أهلها منه درسا في الشجاعة، حتى أنهم نظفوا المنطقة كلها من السباع. . ومنذ ذلك الحين لم يجرؤ أحد على أكل حمير العرب. . إلى أن جاء من التهمهم لقمة سائغة هم وحميرهم.

المختار

قال الشيخ الذي نتحدث عنه: "وصلت فرقة مجهزة بكامل عتادها، وحاصرت البلد على ثلاث جهات. تركوا الجهة الشمالية للهجيج، "وبلشوا سلخ رصاص. . على اللي رايح وعلى اللي جاي، عن جنب وطرف كنت تشوف رصاصهم يزخ علينا مثل المطر". بعد يومين دخلوا القريه، وأقاموا مقر للقيادة على البيادر، ودارت مجموعة في شوارع القرية تنادي :

- يا عالم ! يا ناس ! كل واحد يسلم ويطلع على البيادر.
- كنا نسمع عن اليهود أنهم بيقتلوا الاطفال وبيبعجوا المرأه الحبلى بالسكين. . ما بقي في راسنا عقل لما شفنا أول واحد منهم حامل بارودته وبيقطع شوارع بلدنا. . ما بقي في راسنا عقل.

كان مختار البلد، يوسف العيسى، جالسا في بيته. دخل عليه جندي وطلب منه أن يمثل أمام القائد ليسلم القرية. أخرجه من بيته وهو يحمل "الشرشوح، ملحفة بيضة على عراط طويل" ويقطع الطريق إلى البيادر ليقابل حضرة الضابط يهودا من" يكنعام" الكمبانية التي تبعد عن القرية اربعة كيلومترات. لم يشفع له أنه يعرفه من قبل وأن حق الجيرة على الأقل يتطلب من يهودا أن يحترم جاره القريب في هذه الظروف الصعبة التي" أصبح فيها رأس مال الزلمه فشكه مصديه"

قال له : أنا بصفتي مختار البلد، مسؤول عنها.

فسأله الضابط يهودا : وأين أهل البلد ؟

فأجاب : أنا أهل البلد . شو بدك مني ؟

فقال الضابط : بدي أياهم ييجوا على البيادر ، روح صيح يطلعوا على البيادر .

فمشى المختار والى جانبه ثلاثة من الجنود هو يصيح :

- يا أهل البلد اطلعوا سلموا على البيادر !

وكان معظم الاهالي اكتشفوا "باب الجهة الشمالية المفتوح" فحملوا ما استطاعوا حمله ونزحوا .

سأل الضابط المختار :

- البلد كبيره . وين باقي الناس ؟

وكشف له المختار ان" الناس خافت من القواس فهربت في انصاص الليالي " . وطلب من الضابط ، بحق الجيره ، والمعرفه القديمه ، والخبز والملح أن لا يهجر من بقي في القرية ، لكن"الضابط ملعون ، بده يزيح الناس " ، فقال له : لا أستطيع أن أبقيك ، لأنني لا أحمل الاوامر بأن أبقيك هنا .

كان الضابط يهودا من يكنعام" لطيفا وانسانيا" ، فلم يجبره على الخروج من الجهة الشمالية ، كان لطيفا لدرجة أنه ترك له حق الخيار" لأي جهة بدك تروح " . واختار يوسف العيسى . . . خربة أم الدرج . "بعد دقائق سمعنا طلقات رصاص ، عن مسافة كيلومتر . . ثم دخلت فرقة ، وين ما شافوا واحد ، قوسوه ، قتلوا اربعة ، واحد أجوا عليه وهو نايم في

الفرشه واللحاف. قوسوه.. متزوج وعنده أولاد.. اسمه محمد السليم الحردان..."

شاب

- اسماعيل العرف "كان زلمه جهام، وكان يملك دارين، واحده في أم الزينات وواحده خارجها. هدموا بيته الاول وهدموا بيته الثاني. بينما كان في طريقه الى" العزبه"، أوقفته مجموعة من الجنود، "على مسافة أكم متر من القرية، كان شاب مهزوم من البلد ومتخبي في جب سريس. سمعهم بيسألوه: وين رايح؟ قال لهم: رايح على العزبه أطل عليها! قوسوه، وقتلوه، جثته مدفونه في السنسله".

الحج عبد الغني كان أغنى رجل في أم الزينات. كان يبلغ الثمانين من عمره. بينما جلس في بيته وحيدا، دخلوا عليه، فاستقبلهم كما تعود أن يستقبل الضيوف.

- تفضلوا!

- ماذا تفعل هنا؟

- هذا محلي. تفضلوا اشربوا قهوه.

ويقول الشيخ الذي نتحدث عنه، على ذمة الراوي، أنهم تفضلوا وشربوا القهوه.. وقوسوه وقتلوه. وخرجوا من بيته، ودخلوا دار الشيخ يوسف، وكان في البيت شاب" شو شاب، زلمه قديش بابنا عالي، ما كانش يفوت من هالباب، كان يشتغل في الاي. بي. سي. فتشوه

فوجدوا معه دفتر تسجيل. فأخرجوه من البيت وأخذوه إلى الزيتون، وهناك قتلوه. والقول أنهم ذبحوه بالسكين".

خبيزة

قبل أن تسقط أم الزينات، خرج خمسة رجال مع زوجاتهم إلى أم الفحم وعاره هربا من الموت. "حمّلوا جمل بالطحين وما استطاعوا أن يحمّلوا شي من عفش البيت وعبروا عند مربط خبيزه. على الطريق أنضم اليهم شباب اثنين كانوا هاربين من الطيره، كانوا ماشين وعندهم الله واحد، طوقوهم، وصاحوا فيهم:

- وقفوا. ارفعوا ايديكم. سلموا"!

هجم عليهم عشرة جنود، وأخذوا يفتشونهم. كانت بنت المختار تلبس شالا من الحرير، ولما مد الجندي يده إلى زنارها سقطت أوراق فلسطينية، قالوا للبنت: "هاتي المصاري اللي معك. نفضت الزنار، فسقطت المصاري، أكثر من الف ورقة فلسطينية.

سألوا البنات: لوين رايحين؟

وفتشوا الجمل. فوجدوا شوال طحين وقرطومة فشك انجليزي وسلاح بيك".

أمروا النساء بان يتابعن طريقهن إلى أم الفحم، وأمروا الرجال بأن يقفوا صفا واحدا. كانوا سبعة شبان: يوسف أبو مهارج، عادل الحسين الدبور، حسين رجا فحماوي، حافظ عبدالله فحماوي، صبري كيوان فحماوي والشابان من الطيره.

"كان واحد من بلدنا من دار بشير . . زلمه فش اثبت منه . . خرج من أم الزينات ومشى على طريق خبيزه . . على البيادر شاف جثث الشباب ملقحه على الارض ، عرفهم واحد واحد . . صبري وعادل وحافظ . . رجع إلى البلد يصيح : الاولاد مقتلين في خبيزه . . الاولاد مقتلين في خبيزه . . "

باصات

قصة أم الزينات لم تنته عند بيادر "خبيزه" . فبعد ان اكتشف أهلها أن هذه البيادر تحولت إلى مسلخ . . "يقتل فيها الرجال كما يقتل الذباب . . . " حولوا اتجاههم إلى دالية الكرمل بحثا عن ملجأ ولكن لحقوا بهم إلى هناك ، ولم يكن تشريدهم ممكنا الا بخديعة .

قالوا لهم : كل واحد يريد أن يسافر الى" حي العرب " ، يسجل اسمه وأغراضه ونحن نوصله إلى منطقة جنين . أحضروا لهم الباصات والشاحنات ، فركبوا باصات اليهود حافين عريانين وحملوا أغراضهم على الشاحنات . "وعند مفرق المنصوره تابعت الشاحنات طريقها إلى حيفا وأوقفوا الباصات وأمروهم كل واحد ينزل بثيابه . النسوان والاطفال أوصلوهم إلى اللجون . وأخذوا كل الرجال من فوق **14** سنة إلى معتقل عتليت . وهناك أمضوا **8** أشهر حفيانين عريانين . كل **30** زلمه في غرفه . كانوا كلهم طبقة واحدة . ما فرقوش بين غني وفقير ، ولا بين متدين وجاهل ، ولا بين وجيه وقطروز ، اللي كان يقاومهم واللي كان

يتآمر معاهم، عاملوه نفس المعامله. ما رحموا حد، وبعد **8** أشهر رموهم عند الحدود. . حتى بعد ما هدموا البلد، ظلت دورياتهم تحرس المنطقه، مرة راح زلمه عاجز، عمره خفا الله يا ربي **70** سنه، راح على البلد ليحوش صبر، كان راكب على الحمار، لحقته سيارة جيش لعند سيح الحج. . ولما مسكوه قوسوه ورموه على الارض.

حدثا

"الخنتوش منتوش" اصطلاح سقط على آذان الناس بشكل غير مهذب. وعندما أخذ يتردد على ألسنة الفلاحين ويثير ضحكات المثقفين والموظفه التي أنزلت عليها لعنة اقناع الفلاحين بأنه" من أجل مصلحتهم عليهم أن يتنازلوا عن الارض"، عندها فقط أدركوا أنهم يسيئون استعمال لغة الشعب الاخر، وأنهم لا يستوعبون بشكل مقبول هذه" الحضارة الجديدة" التي زحفت من اوروبا وأمريكا فعدلوا ألسنتهم وأدركوا أن هذا" الخنتوش منتوش" لا يعني الا" الريخوش ناطوش" وترجمتها الحرفيه" أملاك الغائبين" - وكانت كلمة الاملاك دارجه على ألسنتهم و" الغائبين" أخذت تدرج على قلوبهم كلما درج على لبنان قارب محمل بالنساء والاطفال أو انطلقت شاحنة تقطع الطريق بسرعة مذهلة بين حيفا واللجون.

التقينا الشيخ مشقق الوجه الذي نتحدث عنه على انقاض قرية تسمى" حدثا"، أو كما يحب أن يسميها "الحدثه" وليس من باب

التهذيب وانما لأنه : "هكذا درجت على ألسنة الناس". ولمن لا يعرف، أو يعرف ولا يذكر، فالحدثه تقع جنوبي "كمبانية يمه" وشرقي مسحة، وكانت لها جارات: عولم، سيرين و معذر، كلها مسحت وظلت "يمه" تزدهر حتى اصبحت عاصمة "بلاد الشفه" الواقعة في الجنوب الغربي من طبريا ويوم مسحت الحدثه كان يسكنها ما ينوف عن الالف..

المدير

لم يكلف شيخنا خاطره ليفاوض الموظفة في مكتب "الريخوش ناطوش" فطلب أن يقابل المدير بجلال هيبته وعظمته، ويقول انه يوم كان في قرية "بشره" بعد الرحيل والهجيج أراد أن يستقر في الاردن، فاقترح على والده العجوز، طريح الفراش أن يبيع قسما من "الارضيات" ويشتري بيتا في "البشره" ، لكن والده رفض وقال : هذا ملك ورثناه، والملك الموروث لا يباع ولا يشترى، "حتى لو ملكونا شرق الاردن بأسره". وبعدها توجه اليه مدير الاراضي وطلب ان يتنازل عن الارض مقابل بيت وخمس دونمات للزراعة، فرفض. ورفض أهالي القرية الذين تشتتوا في طمره وكفركنا وكوكب وكابول.

اقترح المسؤول على الشيخ أن يتنازل عن الارض مقابل **30** دونم. وافق الشيخ بشرط أن تكون الارض من أملاك "الكيرن كييمت" وفي موقع معقول وقريب من الشارع. فرفض المسؤول وقال أن املاك "الكيرن كييمت" هي ملك للشعب، لكنه اقترح أن يعطيه من املاك الغائبين، فرفض الشيخ. كل شيء بقي على ما كان عليه : الارض في

أيدي الحكومه لكنها مسجلة على أهالي البلد، "طلبنا الرزق من الله فقط" وتنهد الشيخ وأطلق زفرة، وكالعاده أطلق شتيمة من قاع الدست.

بلكويش

"لي صديق قديم، كان مسؤول من ايام الاتراك، اسمه يانكل بلكويش. كان زمبرك "الصداقه" بين اليهود والعرب. توجهت اليه مرة لأكلفه بالنسبة للارض..

فسألني : كيف حالك ؟

قلت : من الله مليح. منكم لأ !

فسألني : ليش يا شيخ ؟

قلت : هل نسيتم الصداقه والعشره والجيره ؟

فقال : حديث صحيح وأنا أقر بهذا. سيدك أبو أبوك له فضل على أبوي من هذاك التاريخ، ولكن الان هاي الحكومه لا تعرفني ولا تعرفك، وأنا أقول لك مثل ما قال المثل العربي : "الك فرس ؟ في تل الفرس !"

والبلكويش هو من الاسماء الاشكنازيه التي هذبها العرب بناء على أسس الصداقة وحسن الجوار التي كانت قائمة حتى عام **1936**، بين أهالي "كمبانية" يمه وقرى المنطقه وكان يتقن اللغة العربية البداويه وعادات العرب أحسن من العرب أنفسهم : "نعرفه من زمان. كنا نحترم الجيره. إذا طروشنا نزلت على "الكمبانيه" كانوا يبعثوها مع المسؤول. وإحنا كذلك. كانت طروشهم تنزل على اراضينا فنوصلها إلى

المسؤول. يوم من الايام في آواخر الثوره انسرق من "الكمبانيه" راسين خيل ونقلوهم إلى الاردن. كلفوا والدي للتفتيش عنها. كان، الله يرحمه، وجيه البلد، وبيعرف كل صغيره وكبيره. ركب حصانه وتوجه إلى الاردن. بعد اسبوع أعادهم لأصحابهم، فقدروا هذا الموقف"

ظن الشيخ مشقق الوجه الذي نتحدث عنه، ان بلكويش هذا، سيرد الجميل، فمثلما اعاد جده خيول والد بلكويش المسروقه، لربما أعاد بلكويش أراضيه التي نهبتها الحكومه، ولكن هذا المحترم حاول أن يقنعه بأن يتنازل عن الارض "احتراما لحسن الجوار"!!

"قلت للخواجه يانكل بلكويش: إذا أنا أقوى منك وأنت الك علي دينة **100** ليره وأنا بدي أسدك الدينه بعشر قروش هل تقبل؟ فأجاب: كلا. قلت: كيف تأخذ مني **450** دونم ورثتهم عن أبوي وجدي وتعطيني **30** دونم من الاموال المتروكه؟ فأجاب: هاي مشكلتك، روح دبر حالك، الافضل تقبل نصيحتي وتوافق. فقلت: أعوذ بالله، ولا بأي شكل من الاشكال. فقال: اذن أحمل الشنطه وخليك عامل."

الأمير

تعلمنا نحن الشباب عن مواقع كثيرة في هذا الوطن الجميل، حتى أن معلم الجغرافيا يتمزق حين يضطر أن يقرر كيف يسمي مواقعه، خصوصا إذا كان من المغضوب عليهم ويريدنا ان نعرف ان "بئير شيباع" هي بئر السبع و "مجدال هعيمق" هي المجيدل و "أشكلون" هي عسقلان، لكن الشيخ الذي نتحدث عنه يتمزق لمجرد انه يتذكر ان الحدثه ومعذر وعولم

هي مجموعة من المواقع الممسوحة عن خريطة هذا الوطن ولم تحفظ الا في الذاكرة، فموقع الظهر والبرنس وسنقر ورجوم وصبحه وأم القلع كلها أرض سهليه، والمحادده موقع آخر "اشتراه اليهود من الاتراك فزرعوا اللوز وشرطوها بالحديد والفولاذ. فجاء حياة سيدي ومعه شباب قبضايات وقلعوا الزرع". وموقع "ودعان: أهل بلدنا باعوا قسم منه زمن الاتراك".

تطول حكاية السمسرة على الأرض. تبدأ في أيام تركيا.. "وبالجمله أهل الحدثه طلبوا الحمايه من الامير سعيد فشكلوا وفد من ست ختياريه وذهبوا للشام. فأجابهم أنه على استعداد أن يسلحهم بشرط أن يأخذ **12** من **24**. لكن الاهالي رفضوا. وقالوا: كثير، منعطيك الربع فرفض ورفض أهل البلد".

"في أوائل حكم الانجليز بدأ بعض الانذال يسمسروا على الارض. ويومها الامير سعيد باع حصته لليهود في أربع قرى. وبعدين أهالي "شعاره" باعوا القسم الثاني من ملكهم ورحلوا إلى سوريا.. لحقوا الامير. يومها كان المسؤول عن "الكيرن كييمت" خواجه نحماني.. في سنة **1943** فرزت الحكومه اراضي "الكيرن كييمت" فتبين انها تملك ثلاثة أرباع الاراضي حصة الامير سعيد والمبيعات الفرديه.. ومن كان يملك **700** دونم بقي له **30** دونم وأعلى حد **40**. ومن يومها حطينا ايدينا على قلوبنا... قلنا رحنا وراحت بلدنا.. كانت المي تجري من تحتنا واحنا مش دارين.. واللي تمسك في أرضه ورفض يبيعها سنة الاحتلال طيروه ولعنوا أبو.. أبوه".

أبو ربيحة

" ابو ربيحه . . أصله من معذر . . كان سمسار على الارض . المستر ماكس والمستر غراهام والخواجات كانوا فايتين طالعين من بيته . . ضيوف دايمين عنده. كان مليونير، يملك **2500** دونم، بعد ما اكتشفه اهالي معذر، ضغطوا عليه يترك البلد هو وأقاربه. باعوا الارض لأهل البلد وهربوا إلى سوريا وسكنوا في "بيت اره"، لكنه ما قدر يعيش في سوريا فرجع واشترى دار بسمخ بأربعمائة ليره فلسطينيه . . وفي سنة **1946** لما "احتركت" بين اليهود والعرب تعقبوه للقضاء عليه. شعر وأراد أن يرحل لسوريا لكن أهله رفضوا وقالوا له: نموت في فلسطين ولا نرحل. وفي يوم من الايام صادفوه في طبريا وأطلقوا عليه الرصاص. "

9 أيار

صار الضغط في أوائل الـ **48**. وجدنا أنفسنا مطوقين في "الكمبنيات" من جميع الجهات، حدودنا: أما نسلم أو الحرب. ما كانت عندنا مقدره على الحرب طلبنا أن نتوجه إلى بيسان للاستشاره مع القياده العربيه فطلبت منا القياده أن نستدعي المسلحين إلى بيسان وقالوا لنا: "أراضيكم سهليه والطريق علينا مقفله، لذلك قولوا للمسلحين يحضروا الينا ودبروا حالكم". وصدرت أوامر الملك عبدالله: "صالحوهم لبينما ينتهي الانتداب وعندها المدفع بيتكلم". وخوفا على النساء والاطفال رحل قسم من الاهالي في **9** ايار والقسم الثاني بقي حتى الهدنه الاولى التي استمرت حوالي شهر. وعندها طلع

الجيش على القريه. طوقنا من جهتين. من الجنوب والشمال. تمركزنا على مرتفع جنوب البلد قبل طلوع الفجر. ولما طلعت الشمس كشفنا بعضنا. تقابلنا وجها لوجه. طلبوا التسليم. قسم خاف وهرب وقطع نهر الاردن. والباقي كبشوه وأخذوه إلى المعتقل وبقي حتى عام **1949**. وأطلقوا الرصاص على البلد. ثم دخلوا ولم يبق احد. وبعد مدة مسحوها وما بقي لها أثر.

بامكاني أروح وأشخصها بيت بيت.. كل سنه نأخذ الاولاد ونزور القريه وأعرفهم على بيتنا وعلى بيت عمهم أبو علي وخالهم أبو حميد، وبيت سيدي الخطيب.

"سيدي الخطيب كان من الاولياء الصالحين، يوم أن توفى في أيام الجوع.. أيام "سفربرلك" أوصى بأن يدفن في بيته. وأن يبقى المكان مفتوحا للرايح والجاي.. وأن يضاء في الليل ويقدم فيه الطعام للمقطوعين والفقراء والمساكين.. وظل مضاءا إلى ان مسحوه.. ونحن نذهب لنقرأ الفاتحة على روحه الطاهره.. ونقرأ الفاتحة ليس على روحه فقط".

هوشه

تقطع الشارع الطويل العريض. تنظر إلى اليمين والى اليسار. فتتراءى لك شجرة صبار تحتضن كومة من الحجاره أو تتكئ على حائط. تجزم أن على هذه البقعة / الخراب كانت في يوم من الايام قرية عامرة تبتسم لحقول القمح وكروم التفاح والعنب.

هوشه والكساير. . الاولى على تلة في الجانب الايمن من الشارع والثانيه على مرتفع لم يبق منها حتى شجرة صبار وأطلال حائط. قلنا نكتب عن هوشه وكأننا نكتب عن الكساير. . موقع واحد، شعب واحد. . ومصير واحد. . وبدأنا نبحث في شفاعمرو، في سخنين. . في البعنه، ولو كانت مهمتنا أن نبحث عن الاحياء لوصلت أقدامنا إلى بيروت والشام والبحرين. . لكننا لم نبحث الا عن شيخ مشقق الوجه. . يعرف تاريخ هذه القريه منذ وصل رجال عبد القادر الجزائري إلى فلسطين وكل منهم يحمل ستة فرانكات فرنسيه. . وجروحا كانت تنزف بعد معركة قاسية على الارض التي قدّمت منذ ذلك التاريخ مليون شهيد. .

المغاربة

"المغاربه". . أبطال / أولاد / أحفاد عبد القادر الجزائري وصلوا إلى هذه المنطقه واستوطنوا في ثلاث عشرة قرية. . سبع منها في حوران. . رفضوا أن يكونوا لاجئين في بلاد الشام فقرروا العودة إلى الجزائر. . وفي ساحات حيفا نصبوا بيوت الشعر في انتظار باخرة تنقلهم إلى المواقع القديمه. .

ظلوا ينتظرون وهم يبيتون على سفر. . وقد حملت بواخر رست في الميناء "قادمين طلائعيين" ليتسلقوا مرتفعات الكرمل وينظروا من شرفات "الهدار" إلى بيوت الشعر التي يهزهزها الريح. . كأنها شيئ عابر. . كأنها تنتظر أن تهب عاصفة وتقتلع أوتادها. . وترمي بهم في البحر. . البحر الصاخب.

التقينا الشيخ مشقق الوجه الذي نتحدث عن . . تحت شجرة زيتون وارفة الظلال . . تجاوز الثمانين حولا . . والى جانبه جلس موسى . .

- سيدك يا موسى وحسين ابن ناصر كانوا اولاد شباب في زهرة عمرهم . . راحوا في حيفا يدّوروا على شغل . يومها مصطفى باشا الخليل كان يعمّر في داره . اجوا على المعلم . سألوه : عندك شغل ؟ قال : عندي . كانوا جدعان مستهمين في الشغل . شافهم مصطفى باشا . سألهم : من فين الاولاد ؟ قالوا : من الجزائريه في حارة البيض . سألهم : من فين جيتوا . في عندكم ختياريه . ابعث لي اثنين . رجعوا الاولاد وخبروا . الصبح تصبحوا بخير ، راحوا ختيارية اثنين إلى بيت مصطفى باشا . استقبلهم ورحب فيهم وسألهم عن قصتهم فحكوا له كل الموضوع "من طقطق للسلام عليكم . . " قالوا له يومها : خلصت المصاري وبدنا نرجع لوطنا . . فصاح : "يا عربجي حط على الخيل . . " ركبوا معه وأخذهم للمتصرف وقال له : هؤلاء مهاجرين من الجزائر وبدهم مصاري . . بدهم يعيشوا . . أعطوهم أرض . . فتحدث المتصرف مع الوالي في بيروت والوالي تحدث مع عبد الحميد في اسطنبول وقال : أعطوهم من أراضي الميري .

ونصحهم مصطفى باشا يطلبوا خربة هوشه . . لأنها واقعه بين المدن الرئيسيه الناصره وحيفا وعكا وشفاعمرو . . "

ألمفكرة

توقف الشيخ هنيهه عن الحديث . . تلفت حوله كأنه يبحث عن خربة هوشه التي كانت قرية عامرة أحياها "المغاربه" وكانت ملجأ لكل أهل المنطقه . .

"كل واحد هارب من بلده كان يلفي عندنا . . علشان هيك قسم كبير من أهالي البلد حملوا أسماء بلادهم . كان عندنا العبلاني - من عبلين . والطمراوي - من طمره . والقباطي - من قباطيا . كل واحد كان يحمل اسمه . . حزينه هالبلاد يا عمي . . ما شافت ولا شفنا يوم سعاده . . أيام عبد الحميد كنا نفلح الارض ونخزن القمح عالسده . . ايام الانجليز سخرونا في "كمبات" الجيش . . وبعد الشغل نفلح أرضنا . . على دور اسرائيل لا بقينا ولا بقي أرض . . و"كمبات" الجيش بنوها على قبورنا . . حزينة هالبلاد يا عمي حزينه . . "

يتذكر الشيخ تلك الايام البعيده / القريبه . يشير باصبعه إلى طفل صغير جلس يصغي لحديث جده عن أيام زمان . يقول له :

- روح جيب المفكره من الديمايه !

والديمايه بلغتنا هي القمباز ، ويعود الطفل وهو يحمل بطاقة صغيرة . .

- "هاي جنسيه فرنساويه . . أخذناها لما دخل الانجليز علشان يعاملونا كرعايا أجانب وتحمينا فرنسا ، كان كل شغلهم التمهيد لليهود : قاسوا الارض بالشبر وأعطوهم أياها . . كنا مسلحين وندافع عن

أرضنا . . ولكن بدهمش حد يرفع رأسه . . كانوا يطوقوا البلد . .
ولما نحس في الطوق كنا نقول : "شوالك والخروبيه" . .

هاي كانت كلمة السر بين المسلحين . . كان كل واحد يحمل شوال ويهرب لمنطقة الخروبيه ويتخبا يوم . . يومين ثلاثه على بينما ينحل الطوق . . كانوا يخرجوا الناس على البيادر ويركعوهم في الشمس من الصبح للمسا . . ويفتشوا بيوتنا . . ويضربونا ويعذبونا علشان نقر عن المسلحين ونسلمهم سلاحنا . . يوم من الايام انطخ أنبوب النفط . . كان عندي بدوي نايم . . قلت له قوم تفرج السهل مولع قال :

- يا نبي !هوشان عملها أبو عفان .

وأبو عفان كان يملك باروده "عصمليه" فش باروده تقدح الماصوره غيرها . تاني يوم وصل الضابط فريد ومعه جيش وكلاب أثر . دارنا كانت مفتوحه والكلب مشوّب . قيّل الكلب باب الدار . قال الضابط : الثوار ميلوا على هالدار . أنا ما كنت في الدار . طوقوا البلد . ثاني يوم جيت . صادفوني جاي فسألوني : شو اسمك ؟ قلت : فلان . أتاريهم دايرين على اسمي . بعد ما كبشوني هربت منهم . تاني ليله . ثالث ليله سهرنا في بيت واحد صديق . راحت علينا نومه . فإجوا علينا وكبشوني وكتفوني برشمة الحماره . وحطوني في السياره إلى "بيت غاليم" في حيفا . بعدين نقلوني إلى مسحه وهناك بقيت ستة أشهر . كنا **16** واحد في مسحه : أبو موسى ورشيد وقاسم وأبو عيطه والشيخ أحمد صديق وكثار غيرهم . والله ظلموني ، والله ما هو صحيح ، راح اللي راح . . انحبسنا ستة أشهر على شوبة كلب . . "

كلب

"الانجليز طوقوا البلد. ليبحثوا عن الثوار. . في واحد ثائر فات في المغاره. حماد الشيخ وابراهيم ابن سلام وعلى المحمد ويوسف الناطور كانوا يطحنوا في البابور. . لقاهم الجيش على الطريق قالوا لهم: ادخلوا طلعوا "البانديت". تقدم حماد الشيخ ووقف عند باب المغاره وخلفه رفاقه الثلاثه وصطف الجنود على بعد خمسة أمتار مصوبين رشاشاتهم نحوهم. انحنى حماد في مدخل المغاره وصاح : يا الله. لكي يعرف الثائر أنه عربي فلا يطلق عليه الرصاص. ولكن الجنود أدركوا هذه الحيله وأطلقوا عليهم الرصاص فسقطوا على الارض ثم القوا بجثثهم في المغاره.

"والله شيئ يشيب الاطفال. . أحمد الصديق حبسوه في عتليت. . في مسألة الثوره. . يوسف الانواني من الفرج التحق مع الشيخ عز الدين القسام وقتل معه في يعبد. . كان لنا جار من "الكمبانيه" اسمه ابراهام غيفر، كان يشتغل في الحرس. . بعث لنا : لا تطخوا علينا ولا نطخ عليكم". .

يضحك الشيخ فتظهر في شقوق وجهه آلام تلك الفتره. . كان في محجره مغارة كتلك التي اختبأ فيها الثائر. . كان في خديه ارتسم ذلك الوادي العميق الذي يفصل بين هوشه والكساير. .

"رهنا أراضي واشترينا سلاح. . اشتريت باروده ما تنفع. . خربانه. . بعثتها مرتين. ثلاث، للتصليح. . حياة أبوي راح الشام وجاب باروده. . كان هو والوحش وقاسم أبو عيطه وأكم من واحد

معهم بواريد نافعه. لما ولعت مع اليهود، صار طخ على "الكمبانيه".. ما عرفنا مين ولا منين جاي الطخ.. تجمعوا أهاليها وهجموا في الليل، رحلنا من البلد وحطينا عند عين الزيات.. تالي الليل حياة حسن الخضر قال: بدنا نرجع عالبلد. ركب حماره وراح. كانت الدنيا الظهر. سمعنا أكم طلق بارود. انقتل حسن وفارس الحمدان. الصبح ما حسينا الا جنودهم منا وفوق. قمنا وهجمنا. وصار الفزيع. فزعوا من كل القرى حتى حدود لبنان. انقتل **20** من أهالي المنطقه بينهم أبو رزمك من يركا وسليمان أبو رعد وفضل لويس وجميل الصادق ويوسف شعبان وأحمد اليوسف، هذا كان زلمه مسكين كان معه فرد. هجينا لشفاعمرو ما حسينا الا اللغومه صارت تفقع في البيوت.. ومن يومها.. في ناس عظامهم بعدها في الرجمه.. سمعت عن واقعة هوشه والكساير؟"

رحيل

بعد واقعة الهوشه والكساير.. بعد أن مسحت ألغامهم كل البيوت.. وأصبحت "الشويكه ومراح رقاق ومرج الذهب وطيحة الفرس ووادي هوشه"، أصبحت خرابات تندب فيها أشجار التين والرمان هذا الحظ التعيس.. بعدها وصل الشيخ مشقق الوجه مع عائلته وعدد من أهالي البلد إلى وادي سلامه..

"الصبح قمت ريقي ناشف. نزلت عالوادي وشربت. قلت: يا جماعه وين رايحين؟

قالوا: على سوريا ولبنان.

قلت : إذا كان هون في فلسطين شحدنا. شو بدنا نعمل في لبنان. سألتهم معكم مصاري ؟ قالوا: لأ ! معكم طحين ؟ قالوا : لأ. قلت : والله ما أنا رايح ! رجعت مع الفرس. نشف ريقي وأنا أقنع العيله لترجع مع أولادها. قالت : لو فضيل هون نرجع، قلت لها : ترجعي ولا بخاطرك. ونهرت الفرس ومشيت وأنا أتلفت وراي. يمكن تشوفني رايح وتلحقني. لكن ما لحقت. وصلت دار أبو حماده، لاقوني عسكر يغثال الون. ساقوني على السرايا في شفاعمرو ربطت الفرس في درج السرايا. بعدين أخذوني إلى عتليت. بقيت هناك سنه وشهرين. بعدها أطلقوا سبيلي. في لبنان قال ابني فضيل لأمه : بدي أشوف الختيار. تسلل بدون هويه ولا شي. سألني : شو رأيك ؟ قلت : شوف أمك وارجعوا. فسدوا عليه أولاد الحرام فأجوا في الليل، أخذوه وكبوه على جنين. مره ثانية جاب نقلة مهرب وأجا مع أمه وأخوانه. ميّل الاواعي على نحف ووصلوا لشفاعمرو. يومها أخذنا كلنا هويات الا هو رفضوا يعطوه "قال مغضوب عليه" وكبوه مره ثانيه على حدود لبنان ومن يومها ما شفته وما سمعت عنه شي. بعثوا لي : أرضك مصادره. نزلت قابلت موظف اسمه دافيد باو : سألني وين أنت ساكن ؟ قلت في شفاعمرو. قال: اللي غادر بيته مسافة أربعين متر صار لاجئ. أرضك مصادره. بدك تمشي حسب القانون : تفضل. بدكش سكتر من هون. تركت مكتبه ودموعي على خدي. على الباب التقيت بمحامي من "زلام" الحكومه. قلت له الحكايه. قال لي ابن الكلب : خذ المتيسر وأترك المتعسر.

- أرضي **180** دونم أعطوني **30** دونم . هاي الارض ملكي ، عـــرق جبيني . بنيت خشه في الارض ، هدموها . عملت براكية ، حرقوها . نصبت خيمة ، مزقوها . حفرت قبر الي وقبر للختيارة . الختياره توفت الله يرحمها وانا بعدني هون . "

ألقرندس

في الطرف الجنوبي من القرية خرابه صغيره هي "مزار النبي هوشان" ، والنبي هوشان كان سندا لاهالي القريه فينزل عليهم المطر عندما يطلبون النجده في موسم يتأخر فيه الوسم . فيتجمع شبان القريه ، ويختارون من بينهم "القرندس" ، شاب يلبس ثياب مهرج ، ويقف في المقدمه ويتبعه الاهالي وهم ينشدون :

يا أم الغيث غيثينا دلي الكوز عاجره

زرعنا شكاره في الدبه ما طلع ولا حبه

يالله الشتا يا ربي رغيف معشش في عبي

ويصلون إلى بيت ، يقفون عند المدخل وهم ينشدون حتى يفتح لهم الباب ، فيدخل "القرندس" وحوله مرافقوه . يقول له أحدهم :

- كيف تعجن العجوز !

فيركع على الارض ، ويشمر عن ساعديه . ويحني ظهره ويقبض قبضته ويتمتم كالعجوز ويتحرك بشكل يثير الضحك . . ولما يضحك أهل البيت تتساقط عليه القروش . فيقولون له :

- كيف تضحك الصبيه ؟

فيعدل قعدته. مادا رجليه إلى الامام. ويغطي قدميه بفستانه حتى لا ينكشف شيء من حرمة الصبيه الجميله. وتتحرك أنامله كأنه منشغل في حياكة جارزه لخطيبها. . ثم يذبل عينيه ويبتسم ويحشر رأسه بين منكبيه كأن الصبيه يباغتها الخجل حين تذبل عيناها وتلمع أسنانها الناصعه وتخشى أن تتحدى الغمازه التي تتوسط خدها قلوب الشباب. . فينفرج الجالسون ضاحكين. . وينتصب "القرندس" ليجمع ما تساقط عليه من قروش. وينتقلون من بيت إلى بيت. . حتى يأتوا على آخر خشه من خشش الفقراء. . فيأخذون ما جمعوا من أموال ويلقون بها على قبر النبي طالبين أن ينزل عليهم المطر، ويمضون ليلتهم الخريفيه على أمل. . ويقسم الشيخ أن النبي هوشان لم يخيب آمالهم ولا مره. . الا في المرة الاخيرة عندما طلبوا منه النجدة لينصرهم على جنود "الكمبانيه" فلم يحرك ساكنا.

- خفى الله يا ربي. . هذا النبي هو هوشع بن نون. .

حيفا

الشيخ المشقق الوجه الذي نتحدث عنه، يمشي جنبا إلى جنب مع سنوات هذا القرن، هو يتراجع، والسنوات تتقدم، ببطء لكن بحزن، بألم، بحسره. . يستقيظ مع طلوع الشمس. . يترك البيت. . ويمشي في شوارع حيفا - "ي. ل. بيرتس، هنفيئيم، مندلي موخير سفريم، أبراهام أفينو، ساره أمينو". أسماء لا تثبت على لسانه. وشوارع لا تثبت عليها قدماه. . يبحث عن مقعد في حديقة. . يجتمع حوله أصدقاء، عندما

كان هو "عربجي "، سكة مكه، في حيفا، كان هؤلاء الاصدقاء يبنون قصورهم في بغداد والاسكندريه وأولادهم على مقاعد الدراسه يستعدون لادارة قسم الهويات في دائرة الهجره..

نقول: حرب ال **14**.. (الحرب العالميه الاولى).. يقول كنت في ال **14**.. نقول حرب النكبه يقول كان عمري **48** ويضيف: "بلغتها يوم ما كان مدفعهم على البرج، وضرب قنبلة فيها كبريت أصفر على الساعه قرب مسجد الجريني، فسقطت الساعه، قلت: "سقطت الساعه، سقط الوطن".. ورحت أبحث عن شريكي، أبراهام شميدو، هالعكروت كان صار بايع الخان وبايع الشراكه".

ألقسام

" كان" الهدار"كروم عنب لدار الخمره وبيت سلام والهواش.. واشتراه ممثل الكيرن كييمت الذي كان مكتبه في شارع ستانتون.. واشترى تل السمك والعزازيه وسلمها لليهود.. ساعدهم برومزا حاكم المركزيه.. فتحوا مكاتب وصاروا يشتروا في هالبلاد، وهالسماسره والاقطاعيين يقدموا لهم الغالي والرخيص، البارون اشترى حتى زمارين، والمنطقه الالمانيه، كانت مع الالمان من أيام تركيا، بعد ما اجا قيصر المانيا غليون (ويلهلم غليوم) وطلع على البونط (الميناء). أول ما وصل طلب الموارس من مشيرية عكا ليعطيها للالمان اللي سبقوه. قام الاهالي صاروا يكيلوها بالحبل. وبعدين ركب حنطور جورج سوس وراح القدس. الالمان كانوا يشتغلوا فلاحين وعربجيه، مثلنا مثلهم،

بعدين فتحوا الشوارع للقدس وصارت نسوانهم تشتغل على العربات وهم ينقلوا السواح، ويتمركزوا في الكرمل، سكن واحد اسمه كيلر. ثم اجا شنايدر. وبعدها الراهبات واشتروا أم العمد وبيت لحم من الفرد تويني وباعوها لموسى خانكين زلمة الكيرن كييمت. إحنا هالفقرا ما عرفنا هالبلاد كيف طارت ولما الفقرا كانوا يرفعوا صوتهم كانوا يكسروا رؤوسهم.. جاري في حارة الكنايس كان الشيخ عز الدين القسّام.. أصله من اللاذقيه.. كان فقير ورجل دين تقي يهدي علي ويوعظني، لأني كنت أشرب كثير، كل المشايخ كانوا ضده: الحج خليل وحسن بك وابراهيم بك وسليمان بك الصلاح والحج عبدالله، كلهم كانوا ضده. ليش: لأنه فقير حربجي بده يحرر هالبلاد، جماعته كلهم الفقراء والفلاحين المقطعين، واحد من هون وواحد من هون.. منا يا هالفقرا.. قتلوه الانجليز.. هو وجماعته، حصدوهم في يعبد.. حياة الشيخ كان مخلص لجماعته.. والله البيكوات والبشوات ما في نفوسهم ذمه.. لا والله.. كلهم حراميه وكنت تشتري الواحد بصرماي.. قبل ما يأخذوا الحكم كان لي صديق يهودي اسمه داهود كوهين بيشتغل عند اهرونسون. يوم ناداني. رحت لعنده: قال لي معكاش خبر؟ أخذنا البلاد. جيب ولادك على زمارين!

الخضر

حدثنا الشيخ مشقق الوجه عن ساحة الحناطير، "كانت مثل محطة التكسيات هالعربات والحناطير واقفه تنتظر.. واحد رايح على المحطه

يدفع عشر قروش ويركب. . واحد رايح على أم الجمال. . على الشونه. . أم العلق. . الخريبه. . الياجور. . المراح. . بريكه. . الغيبه. . كان يركب معنا ونوصله". .

ذكر الخضر، فاقتربت زوجته وقالت انها ستحكي لنا هالخرفيه :

"مره كنا نضيف في الخضر، وصلوا زوار من كل البلاد، ذبحوا هالذبايح ونزلوا العرق في التناك. . وقاموا القيامه. . بعد ما أكلوا وشربوا ونزلوا عالبحر. . لما فاتوا ضيعوا وصاروا يغرقوا. . فزعت الناس تدب الصوت اللي جوزها في البحر، اللي أخوها. . والختياريه صاروا يتدعوا : دخلك يا خضر، أطلعهم يا خضر!

ما شافوا الا واحد قاعد على الشختوره وفات على نص البحر. . صار يجيب عالشط ويرمي في هالناس. . يجيب ويرمي. . خفى الله يا ربي خمس ست نقلات. بعدين فقدوه ما وجدوه، قرص ملح وذاب. ما غرق ولا واحد. . بعدين غنوا ودبكوا وزمروا. . وما حد نام يومها. . كانت سهره ما في أحلى منها. ."

ألبحر

كانت مدافعهم تقصف المدينة من عمارة البرج، هرب اليهود لمنطقة الهدار. . وظل العرب تحت القصف المركز، وصرير المدافع. . وسمعوا نداءات تقول لهم :

ابقوا في بيوتكم ولا تغادروا الوطن ! لكن المدينة الحالمة أفزعتها "بومباية" (قنبلة) سقطت على المحطه، وأخرى على الساعة التي كانت

"تشبه ساعة لندن"، وأخرى بهيئة برميل معبأ بالبارود دحرجوه على الدرج النازل إلى وادي النسناس وأخرى.. وأخرى.. وأخذ جيش الهجاناه ينظف الاحياء العربية من أهاليها.. "كان الانجليز يدخلوا على البيوت ويسألونا: بعدكم قاعدين ؟ اليهود راح يدبحوكم إذا بقيتم في بيوتكم ! احملوا أغراضكم وياالله عالبور..

الانجليز لعبوا اللعبه القذره.. من جهة يصرحوا أنهم بيدعموا الملك ضد اليهود ومن جهة ثانية ما تركوا قطعة سلاح الا وسلموهم اياها.. وكانوا يساعدوهم على تهجيرنا.. كل ما شافوا عربي كانوا يسوقوه للجمارك. جمعوا العرب عند المينا وأغلقوا عليهم خط الرجعه.. وصارت هالقوارب تحمل وترمي في صور وصيدا، الناس كانت مرعوبه. من الاخبار اللي سمعوها عن معاملة الجيش.. تركوا بيوتهم مثل ما هي.. الخبز في الفرن.. والطبيخ عالنار.. السوق تركوه مفتوح، صارت توصل سيارات وتحمل في البضاعه، نهبوا كل شي، القمح والاكل وأدوات الكهربا.. وهدموا بيوت جديده وباعوا حديدها وحجارها للناس.. أنا وزوجتي وأولادي تخبينا في دار القلعاوي.. قلت: والله باقي حتى لو ذبحوني أنا وأولادي وعملوا منا سرسيسو.. كنا نبعث الولد ناحية الحسبه علشان يشوف الجيوش العربية إذا وصلت مثل ما وعدونا.. العلامه على رؤوسهم طاقية فيصلية وعلى رأسها حربة.. لا شفنا طواقي ولا ما يحزنون.. راحت علينا وعلى اللي ركبوا في الشخاتير.. بعد يومين رجعت على دارنا، لقيت الدار فارغه وما فيها شي.. شفته في عيني.. كان ختيار سكناجي فرغ الدار وما

ترك فيها غير ورقة النفوس . . قلت في نفسي ، ياالله ، على الأقل خلوا لنا أسماء أولادنا . " .

رفعت

حيفا لم تمسح من خريطة هذا الوطن . لكن معالمها تتغير وتتبدل ، حيفا عتيقة وحيفا جديدة . . واحدة نعرفها نحن وواحدة لا يعرفها الا أولئك الذين تمر في ذاكرتهم أيام البوابة الشرقيه وسوق الشوام وبندر التجار والقشلي . . كما مرت السنوات الطويلة . . نذكر الكثير وفي الذاكرة تهترئ أكثر الاشياء . . تختفي ، يأكلها صدأ هذه الايام ، تتحول إلى صور وخيالات تنخز في القلب وتجرح العاطفة ، وماذا نطلب من شيخ تشقق وجهه ، وينتظر قدوم الساعة أو أن يفرجها ربك مع "هالـ . . . حرمونا نعمة الحياة ، وقطعونا ، ومزقونا وشتتوا أولادنا " . .

وكيف يمكن أن نسجل كل شيء عن حيفا ؟ قلنا ، نذكر القليل ، القليل ، لعل شيخنا العربجي ينبش معالمها المخفيه ، في الذاكره ، أو على أطلال جامع الجريني أو حمام الباشا الذي تلمع على سطح قبته نتوءات الزجاج الازرق كلما طلعت الشمس ومسحت خيوطها عمود فيصل الرخامي ، الذي أقيم على قبر الشيخ مبارك .

"أهالي حيفا القديمه ، كانوا فقراء ، حجّاره وصيادين سمك . . كانوا يقلعوا الحجار من وادي رشميا ويبيعوها ، وبعدين لما جاء الانجليز ، ووسعوا البور صارت العالم تشتغل في البور . . رفعت كان صياد ماهر ، "فش منه وقدام" كان عنده حمار أسود ، يوقف على ظهر الحمار ، ويمد

نظره للبحر، كان يشوف أفواج السمك جاي، يرمي شبكته، ما تفلت منه ولا سمكه. . راحت الايام وإجت الايام، وهالبحر صار يجيب ناس ويقذف ناس، "ولانشات" دار أبو زيد تحمل هالعرب. .

لوين ؟ لمينا عكا

لوين ؟ لمينا بيروت. .

لوين ؟ لمينا صيدا. .

لوين ؟ لجهنم الحمرا. . "

ألبروة

ينظر الشيخ إلى الشرق. . تتطاير خصلة من شعره تغطي جبهته التي تلمع في الشمس. . يجلس، ينظر إلى الغرب. . الشمال، القبل. .

- هنا قتلوا رضوان السكس. .

كانت البروه محتلة، تركوا فيها **50** شخصا كلهم من العجز، حشرهم الجيش في الكنيسه واقام حولهم الحواجز. . " رضوان. . الله يرحمه. . كان يتمشى في الليل. . رجل عاجز في الستينات من عمره، قتلوه بدم بارد. . وتركوا جثته ورا الكنيسه. . "

وظل الباقون في الكنيسه ينتظرون "ساعة الفرج" من "جيش الانقاذ" الذي قيل أنه يسيطر على مرتفعات الليات، لكن مضى اليوم الاول. . والثاني والثالث. . وشمس حزيران تلسع سنابل القمح التي تنتظر مناجل الفلاحين قبل" أن تصل حصادات اليهود وتحصد الغله كلها " . .

مضى اسبوع . . ولم يصل أحد . . هجمت آلات الحصاد من اوروبا وأمريكا . . ولم تترك حتى سنبلة واحدة ليداعبها النسيم الحامل انفاس الفلاحين الذين تجمعوا تحت اشجار الزيتون ، على الطريق بين مجد الكروم والبعنه .

ألخوري

يطلق الشيخ مشقق الوجه زفرة من اعماقه . . يمسح العرق الذي يتصبب عن جبينه . .

بعد أن قطع الطريق الوعرية عبر مرتفعات اللّيات . . تذكر ذلك اليوم التموزي القائظ حين وصلت خبريه بأن خوري البروه قتل في الكنيسه . . كان ذلك يعني أن كل الختيارية الذين ظلوا في الكنيسه . . قتلوا مع الخوري . حمل "الناظور" وتوجه مع أبناء الخوري إلى قمة مرتفع وأخذوا ينظرون إلى القرية حتى إذا ما ظهر شبح الخوري بين البيوت المهجورة ووسط تحركات الجنود المدججين بالسلاح ، أيقن أن القرية ما زالت بخير ، على الاقل بيوتها ، ومن بقي فيها انتظر الفرج أو حلول الساعه ، ولم يطمئنهم في تلك اللحظة أن وصل القاوقجي ومعه أربعة ضباط بنجمتين أو ثلاث نجمات . . وتطلع في "الناظور" وأمعن النظر وقال : تحرير البلد لا يكلفني سوى شهيدين ولا أكثر . . خلال ثلاثة أيام تصل المدافع والمصفحات ونحررها ومنها نحرر المكر والجديده وعكا . .

"والله ما صدّقنا هالحكي . . كنا نعرف قوة جيش الانقاذ . . لا هم انقاذ ولا هم جيش منظم . . هالحكي اللي بيحكوه اليوم عن سبع جيوش عربيه كله دعايه بدعايه . . لا سبع جيوش ولا سبع فرق . . صوّروا الحرب كأنها طوشه عموميه أو بين عائلتين . . كنا نعرف هالحقيقه المره . . اجتمعنا وقررنا نحرر بلدنا بأنفسنا . . وخصوصا بعد ما انتظرنا 3 أيام وأربعة وخمسة وأسبوع . . وما وصلت مجنزرات ولا مصفحات . . بعد ما يئسنا تجمعنا ورحنا طريق الوعر وهجمنا على القريه بقيادة شاب من شعب اسمه أبو اسعاف . . واجهنا مقاومة عنيفة . . لكن ارادتنا كانت قوية . . وتمكنا نحرر بلدنا . . سقط منا شهيد و 3 جرحى . .

كان يوم عرس في حياتنا . . وكان درس تعلمناه : هالارض ما يحررها الاّ أصحابها . . لا ملوك ولا خواجات . . ولا الشعارات الرنانه . . يومها وقف خوري البروه وقال للناس :

- يا أهل بلدنا ، يا حبايبنا ، الوقت مش وقت أغاني وزغاريد ، رايحين يهجموا مرّة ثانيه ويحتلوا البلد . . خذوا حذركم . .

أبو اسعاف

حاول "الصهاينه" احتلال البلد مرة أخرى فردتهم فرقة من الاهالي ولاحقتهم حتى أوصلتهم وادي الحلزون . . ولم يكن بإمكان أية قوة أن تنتزعهم ثانية من بيوتهم التي عادوا اليها يغنون ويزغردون . . ووسط

تلك النشوة وبارقة الامل . . وصل قائد أردني بثلاث نجم وآخر عراقي بنجمه ومعهم جنود، سأل أحدهم :

- مين المسؤول عن المعركه ؟

فأشاروا إلى شاب وقف صامتا، قلقا، بين مجموعة من الشبان .

- أبو اسعاف . . أبو اسعاف .

وضع يده بيد أبي اسعاف . . صافحه بحرارة وقال :

- أشكرك على هالمعركه العظيمه وتحرير البلد بدون مدافع ودبابات . . هذا دليل على صمودكم وتضحياتكم وحبكم لوطنكم . .

- لا شكر على واجب . .

يتوقف الشيخ مشقق الوجه عندما يحكي هذه الحادثة . . يفتح يديه . . ويضرب يسراه بيمناه . . ويحرك رأسه ويتمتم :

"لحد اليوم مش فهمان كيف ردّينا على الضابط لما قال لنا اتركوا البلد . . انسحبوا منها لأنكم جيش غير منظم ويمكن يذبحوكم في بيوتكم . . أي والله يا عمي لو ذبحونا في بيوتنا اشرف من ترك بلدنا . . أشرف بمليون مره . . وانسحبنا من البلد بأوامر ضابط الانقاذ . . لكن كانت أيدينا على قلوبنا . . كنا نشك في الطبخه . . وهذا اللي صار . . بعد يومين وصلت أمي للبلد . . لتأخذ شوية مؤن . . ما دخلت البيت وحمّلت الدابه . . والاّ جنود الانقاذ بينسحبوا منها من جهة الشرق . . دخلتها قوات اسرائيل وبدأوا يمسحوا فيها . .

حصدوها مثل ما حصدوا القمحات . . وهاي مثل ما أنت شايف . . أرجع للبلد، وأجلس على حجارة بيتنا . .

آكل حالي من الندم ؟ لأ

أشتم / أكفر ؟ لأ . من يومها وانا على هالحال . .

بقاء

مع غروب الشمس وصلت الام ومعها أطفالها إلى مجد الكروم . . كانوا ينتظرونها ليعرفوا ماذا يجري في بيوتهم المهجورة، أو ماذا يقول الضابط : سيعودون اليها أم لا ؟ دخلت بينهم وهي تندب والدموع تترقرق من عينيها :

- راحت بلدنا . .

وعلا النحيب والبكاء . . وارتفعت أصوات تنادي : الرحيل . . الرحيل . . إلى الاردن . . إلى اليرموك . . إلى لبنان . . إلى كندا . . وارتفعت أصوات أخرى، أقوى وأعنف :

- لن نرحل من وطنا . .

راح نبقى بوطنا لو منموت.

واذا بقينا بوطنا مش راح نموت.

كل واحد بيرحل ما بيرجع للبلد الاّ سائح . .

كانت الكتل البشريه تتحرك على الارض السهليه، " عرفنا أنا خسرنا المعركه . . وصرنا نستعد للمعركه حتى نبقى في وطنا، لاجئين في هذا

الوطن ومش لاجئين في أرض الغربه . . كنا نخاف من الغربه أكثر من الموت . . والموت ما كان بعيد عنا . . كل ما لاح جندي اسرائيلي في الافق كنا نشوف الموت في فوهة بارودته . . على حزامه المرشوم بالقنابل . . وفي عينيه اللي بتطلع علينا بحقد وكراهيه . . استعدينا للرجوع لبلدنا . . قلنا، إذا كان هون موت وهناك موت . . لأ نموت على ترابك يا بلدنا . . راح ييجي يوم وأولادنا . . وأولاد أولادنا يرجعوا للأرض ويعمروا بيوت البلد، ويزرعوا . . ويتذكروا دم أجدادهم . . أحسن ما نموت في الغربه . . على أرض مش النا . . وعلى تراب ما عمره حملنا . . وما عمرنا زرعناه."

سلاح

ظهر يوم لم تغرب شمسه قبل أن دخلت مجموعة من الجنود الاسرائيليين . . وزحفت على الارض السهليه . .

- وصلوا . . جايين من صوب الغرب . .

- ما حدا يتحرك من مكانه . .

على رأس الجنود المدججين بالسلاح . . وقف ضابط، كانوا يعرفونه من قبل، سمعوا عنه، "أبن حرام ما بيرحم الطفل في بطن أمه."

- ارفعوا ايديكم . .

رفعوا اياديهم .

- اركعوا على الارض . .

ركعوا على الارض.

- قفوا..

وقفوا.

- إلى الخلف در..

داروا إلى الخلف.

- اركعوا..

ركعوا.

- وبعدين مع ابن هالحرام..؟

حاول أحدهم أن يرفع رأسه.. صرخ في وجهه.. طأطأ رأسه.. وانحنى.. أدار آخر رأسه إلى الخلف، ولم يعرف كيف نزل على عنقه بسطار الجندي الذي وقف إلى جانبه شاهرا بندقيته.. فانحنى.. وكان قلبه يرقص في صدره.. كأنه يحاول أن يطير.. يطلب النجده.. يستغيث.. "ضابط ابن حرام ما بيرحم الطفل في بطن أمه"..

- سلّموا أسلحتكم..

لم يكن معهم سلاح.. اندس الجنود بينهم..

- وين سلاحك؟

- ما معي سلاح يا خواجه.

هز الجندي رأسه. تمتم. سأل آخر. تمتم. لبط كالبغل. ضرب عنقه بمؤخرة البندقية. شتم. واصل عمليه التفتيش.

- ما معنا سلاح يا خواجه.

صرخات الأطفال المذعورين شقت السكون، وحطات الرجال تدوسها الاقدام الحافيه. لم تسفر عملية التفتيش عن نتائج، كان هذا ما أراده الضابط.

- لازم كله بيجيب سلاخ لهونه.

- ما معنا سلاح يا خواجه.

- أنت.. وأنت.. وأنت.. وأنت تعالوا معي..

أربعة شبان، أحدهم من البروه، لم يتجاوزوا الثلاثين، تقدموا من الضابط، أمر جنديا بأن يسوق الشبان الاربعه.. ابتعدوا خمسين مترا..

- ارفع ايديك.. ظهرك للحائط..

ابتعد بضعة أمتار.. صوّب بندقيته.. وضع اصبعه على الزناد.. سمع همسا..

ـ اخرس.. اخرس يا خمار..

- طيخ.. طاخ.. طيخ.. طاخ..

بعد ثوان كانت أربع جثث ملقية على الارض.. تلقي عليها عيون الفلاحين النظرات الاخيرة.. تودعها.. خائفة، ترتجف.. تبللها الدموع المنهمرة من المآقي.. صرخات الاطفال المذعورين شقت السكون الذي فرضته الشمس الغاربة خلف التلال..

- باقول لكم جيبوا سلاخ ؟؟

- يا خواجه ما معنا.. كل سلاحنا في ايديكم..

- انت.. وانت.. وانت..

- فيّ وفي عداك يا رب . . هذا اللئيم راح يقتلنا واحد واحد . . لا . . يا اما نموت كلنا ، يا اما يطلق سراحنا . .

- اقتلنا كلنا يا خواجه . .

- كلكم ؟ بسيطه . . خلال خمس ثوان . . كلكم وقفوا عند هذي الدار .

وأشار باصبعه إلى بيت قريب . . هرعوا إلى البيت وقفوا ووجوههم صوب الحائط . .

- خلفا در . .

أمر الضابط .

- اسمعوا . . هذا البيت ملغوم . . اهربوا .

هرع الجميع هربا من الموت . . كانت بينهم امرأة حامل سقطت على الارض وأخرى كانت تحمل رضيعها بين ذراعيها ، كاد يسقط منها كما كانت تسقط حطات الرجال وتدوسها الاقدام الحافيه . .

ونسفوا البيت بعد دقائق معدوده .

عيلوط

تنزل في الشارع المتدلي على أطراف المنحدر وتخشى الاّ تقوى فرامل السيارة على وقف التدهور . تشعر أنك تسقط في هوة عميقة حين تترامى أذيال الليل على" عيلوط ". قرية صغيرة ، وادعة ، حزينة . . لم تمسح عن خارطة هذا الوطن ، مثلما لم يمسح ذلك الالم وتلك الدموع . كانت إمرأة هاربة ، تركب على الفرس وفي حضنها طفلتها الصغيرة .

أوقفها الجنود وأطلقوا عليها الرصاص : " قتلوها وقتلوا الفرس وأصابوا الطفله ، وكبرت ، وها هي متزوجه في اكسال " .

كأن عيلوط تغيب في الذاكرة ، كما تغيب أضواء مصابيحها في الليل الذي تشتد ظلمته سوادا ، وعلى لسان الشيخ أقوال تفتح جراحا لم تكتم بعد ، وفي صوته أنّة ما زال يحملها منذ جاء" أبو عبدالله" من قيادة" أبو ابراهيم" ليدرّب الشباب على السلاح ولما" اشتد الحال" قال لأهل البلد :

- لا تهجموا على كفار حورش ، ما حد يضرب عليها ، هاي البلد بدنا نزقط أهلها واحد واحد ، نخنقهم وناخذ بقراتهم .

- لا هجمنا ، ولا ضربنا ، أبو عبدالله كان مدسوس في جيش العرب ، بحجة تدريبنا عرف أسماءنا ونمر سلاحنا ، وسلّمنا واحد واحد ، وبعدين صار اللي صار .

ألبيادر

محمود الغز ، كان زعيم" الكف الاسود " ، تسلم قيادة صفوريه مع قيادة أبو ابراهيم في الناصره ، " أمرونا بإقامة استقامات ، هجمت علينا قوة مسلحة من كفار حورش ، أتقتل فخري عبد الهادي وما بقي معنا فشك ، كنا نشتري المشط بخمسين قرش فلسطيني ، أكثرهم مبردات ، كل واحد بارودته شكل ، واحد فرنسويه وواحد انجليزيه وواحد طليانيه . . ولما هجموا على صفوريه دب الذعر في الناس . . أهالي عيلوط هربوا على الناصره وسكنوا في الاديره . . بقوا في البلد 13 زلمه . . دخل الجيش . . جمعوهم واحد واحد وقتلوهم عالبيادر . .

بينهم أخوه أثنين : محمد ونجيب حسن أبو خضر. . . وكان معهم واحد من عرب المزاريب. . قتلوهم. . قتلوهم. . لا مين يدري. . ولا مين يفزع لهم. . بعد شهر ونصف وجدوا عظامهم عالبيادر".

يتوقف الشيخ الذي نتحدث عنه. . يحاول أن يتذكر كل الاسماء. كان يعرفهم واحدا. . واحدا. . يسهل عليه أن يذكر أسماءهم. . يصعب عليه أن يتذكرهم. . "كانوا شباب في عمر الورد". . كنا نلتقي على البيادر، وفي أيام الحصيده. . كل عمرنا واحنا نزرع هالارض وما كنا نتصور أنه ترابها راح يرتوي بدم شبابها. . على البيدر اللي كنا نغني فيه. . ارتمى محمد سليم وصبري وذيب. لعبوا اللعبه القذره. . وقت الحصيده بعث لنا الشاويش الشويلي من بوليس نهلال وقال : لا تطخوا علينا. . ولا نطخ عليكم. . إحنا جيران. . الحرب حرب. . واللي بيربح صحتين على قلبه. . ومن يومها لا رجعنا على الحصيده ولا شي. . كانوا يحكوا معنا بلغه ويتعاملوا معنا بلغة ثانيه. . واليوم لما منحكي شو عملوا فينا. أولادهم ما يصدقونا. . ولما نسمع وزير عندهم بحذرنا من اللي صار سنة 48. . أولادهم ما بيتأثروا أمّا أولادنا بوقف شعر راسهم. .

الطوق

ليلة من ليالي منتصف تموز، صدى طلقات الرصاص كان يصطدم بالمرتفعات المحيطة بالقرية ويعود إلى البيوت، يصطدم بجدرانها، ويتلاشى في ذلك الصمت المخيّم عليها. والى البيوت المهجورة أخذت

تتسرب مجموعات من الاهالي، ينزلون عليها، يتلفتون إلى اليمين والى اليسار، أم منهكة / مذعورة تكمم فم ابنها الذي يحاول أن يصرخ لكن تخمد صرخته كي لا تثير الجنود الذين كانو احتلوا البيوت وربما انهم يتخفون داخل جدرانها أو في زوايا الازقة المعتمة وينتظرون قدوم الساعة ليطلقوا الرصاص، ليكملوا على من تبقى من الاهالي المذعورين. يقسم الشيخ أن أحدا منهم لم تغمض له عين، أحكموا غلق الابواب ولم يشعلوا المصابيح، أزاحوا الخزائن والصقوها بالشبابيك كي تخفي حركة أهل الدار، وانقشع ظلام تلك الليلة - لكن لم ينقشع الرعب الذي أصبح رفيقا ملازما لرجال ونساء وأطفال عيلوط.. ووقع في صباح العشرين من تموز، ما كانوا يخشون وقوعه:

"طوقوا البلد، وجمعوا الناس في مركزين، ناس باب الجامع وناس عالبيادر. كان أربع زلام في أرض المدرسه، أجوا عليهم وأمروهم ينزلوا على الطوق، اثنين منهم هربوا، واثنين نزلوا. على الطريق التقوا بجندي، سألهم:

- مين بيشتغل في الريفينري؟

واحد قال: أنا

سحب سلاحه عليهم، وقال لهم: ارفعوا ايديكم، رفعوا ايديهم، فتشهم، وأمرهم: نزلوا ايديكم، قتلهم، قتلهم قدام الناس، صالح سعيد أبو راس وطه خليل أبو عياش. في مكان الطوق على البيادر اختاروا عشرين زلمه. أخذوهم عند زيتون البلد وأطلقوا النار عليهم، من العشرين اثنين فقط طلعوا طيبين.. وما سمحوا للاهالي يدفنوا

أمـواتهم - أمـروهم يروحـوا على صـفـوريه حـتى يلقـاهم الجـيش ويقتلهم . . دخلوا البلد ونسفوا ثلاث دور : دار عبد الحليم أبو عياش ودار ساري خليل ابو عياش ودار حسن محمد أبو راس . . وحاولوا ينسفوا الجامع . . لكن ، ما بعرفش شو اللي ردعهم .

الشقراء

عبر الطريق الوعرية المؤدية إلى صفوريه ، عاد بعض الاهالي إلى القرية . كان بينهم الشيخ الذي نتحدث عنه ، جاء مع أربعة ، اصطدموا بفرقة من الجيش .

سألوهم : من أنتم ؟

فقالوا : نحن رعيان .

فأمروهم بأن يتوجهوا إلى عيلوط ، كان الجيش يحتل القريه . عند المدخل الشمالي أوقفتهم مجموعة من الجنود :

- ارفعوا أيديكم . . ماذا تفعلون هنا ؟

- جئنا لندفن اثنين : خالد الدبوري ونمر حمدان .

كانت جثتاهما ممددتين على الارض تحت غصون الزيتون في عرق بلاطه . حاولنا أن نقنع الجنود بأن هذين الشابين ليس لهما أهل في القريه وعلينا أن ندفن الجثتين . لكن الجنود رفضوا وأمرونا بأن نترك المكان وننصرف إلى الناصره . ففعلنا . وهكذا أمضينا أياما طويلة وليال قاسية

على الطريق بين عيلوط وصفوريه والناصره، كلما وصلنا إلى مكان كانوا يطرودننا إلى مكان آخر . . فقررت ان أتسلل إلى القرية في ساعات الليل لأخذ قليلا من القمح . . اقتربت من البيت فسمعت" ناس بيضربوا على الدار بالبلطات. رجعت على دار عمي. قبل ما وصلت واذا الجيش منه وفوق. هربت ووصلت أول الدور من مشرّق. الجيش كان نايم ورا السنسله، قلت راحت عليك يا ولد. . أوقفوني وسألوني : وين رايح ؟ قلت : أنا راعي معزه. وبدّي أروّح، مسكوني. تطلعت حوالي شفتهم ماسكين سبعة من أهل البلد وثلاثة من معلول : عوض العلي، علي صبري، قاسم الامين، سليم محمد، علي عوده عبود، حسين سليمان ونايف محمد عودة الله. . نقلونا لمحلبة المستوطنه. . وما شفنا حالنا الاّ جوّا في المحلبه. جابوا أكل. . خبز وبندوره وخيار. . مين كان له نفس للاكل. . الظهر جابوا طشتين معكرونه. . مين كان له نفس للاكل. . رفضنا الاكل فدخل علينا اسكندر من كفار حورش مع بنت شقرا. .

قلنا له : يا فلان

قال : ما فيش فلان

قالت الشقرا : كلوا، هذا طبيخي أنا. . مش عاجبكم، كرمال الشقرا. .

واحد منا أكل زلفه. . وبصقها. .

لهم أسماء

نمنا ليله في المحلبه. تاني يوم الظهر دخل علينا اثنين. أمرونا نوقف. وقفنا. واحد منهم صار يسألنا واحد واحد:

سأل الاول: شو اسمك؟

- فلان.

- البس واقعد!

سأل الثاني: شو اسمك؟ فلان

- البس واقعد!

سأل الخامس: شو اسمك؟

- سليم محمد الابراهيم

- اقعد هناك!

- اسمك؟

عوض علي أبو راس

- اقعد هناك!

بقيت آخر واحد. تحيّرت. مش عارف مع مين راح أبقى.

سألني: قلت: فلان.

قال: البس واقعد!

الثلاثه اللي قال لهم" اقعد هناك" راحو ولليوم ما بيّنوا: عوض العلي وسليم المحمد وعلي عوده. عوض مسكين عرف انه راح ينقتل صار

يطنب. لكن لا حياة لمن تنادي أخذوهم. بعد ما رجعنا للبلد. نادانا واحد :

- رجعتوا ؟

قلنا : نعم

قال : سليم روّح ؟

قلنا : لا.

قال : مات.. قتلوه.

سليم المحمد لم يكن آخر ضحيه. يطلب الشيخ الذي نتحدث عنه أن نجمع :

13 + 18 + 3 + 2 واجمع عليهم :

في حيفا انقتلوا ثلاث شباب.. اثنين من دار البابا.. وواحد اسمه جميل محمد صلاح..

مفلح حسن المحمود.. انقتل في المعتقل في الصرفند. اجمع يا عمي.. قديش صاروا.. هاي الاسماء اللي منعرفها.. أهل بلدنا تشتتوا.. قسم في مخيم اليرموك وقسم في اربد.. مين يعرف شو صار معهم على الطريق.. مين يعرف مين وصل ومين ما وصل ؟.. كل أراضي عيلوط ضموها لكفار حورش ونهلال والكيبوتسات القريبة.. قتلونا وورثونا..

عيلبون

الغبار الذي تطاير خلف الشاحنة العسكرية تحوّل إلى حجاب / ستار / جدار سميك / حجب الرؤيا عن الدرب الوعريه التي كانت تتلوى على مرتفعات الجبل.

اهتزت الشاحنه بعنف فسقط على الأرض طفل في الرابعة، صرخ، وتحسس بأنامله الناعمة كتفه اليمنى التي اصطدمت بأرض الشاحنة. أمسكت أمه بذراعه وأوقفته وحاولت أن تبحث عن أثار الضربة في أنحاء جسده، بينما عيناها تراقبان الجندي الجالس عند مدخل الشاحنة العريض وقد وضع" المترليوز" على ركبتيه وحدّق في الطفل وفي عينيه تطاير شرر أثار الرعب في قلوب الاطفال الخمسة الذين تجمعوا حول أمهم.

سأل الطفل البكر أمه بعد أن وضع يده على خدها وأدار وجهها نحوه:

- وين ماخذينّا يمّا ؟

التفتت نحو الجندي، كأنها تحيل اليه السؤال البرئ، وكأنه أدرك ما ترمي اليه، فأنزل يده على المترليوز" ورشقها بنظراته الناريه، واكتفى - كما يبدو - بما أثاره في أطفالها من رعب.. ورفع يده وظلّت هي تتمتم.

توقفت الشاحنة عند النقطة التي تفصل بين حدود جنين وبين المنطقة التي تسرح وتمرح فيها جنود" الهاجاناه".. نزل الجندي، وأمر الام

وأطفالها بأن ينزلوا. . لم يكونوا لوحدهم في الشاحنه. . كان معهم ثلاثة رجال وثلاث نساء وأطفال أكبرهم في العاشرة وأصغرهم كان يكبر في بطن أمه. .

ولما وصلت الشاحنة "وادي الذبان". . وضعته. . أسمر البشرة. . ولد على طريق العودة. . من لبنان إلى عيلبون. . القرية الصغيرة التي ترتاح على كتف من سلسلة جبال تمتد حتى تبدأ بالسقوط نحو بحيرة طبريا فينعكس ظلها في المياه الراكدة. . وكان على الام وأطفالها أن يقطعوا هذه الطريق مشيا على الاقدام.

عازار

كان ذلك فجر يوم خريفي في أواخر أكتوبر. . الاضواء معتمة تماما. . وخيوط الفجر شقت طريقها إلى الزوايا المظلمة ببطء لكن رافقتها نسمة باردة لسعت الوجوه الساهرة وهي تنتظر الفرج أو قدوم الساعة. . كان آخر جندي انقاذ" هالله. . هالله". . قد غادر" بدون سلام ولا كلام. . وترك الميدان لحميدان. . ". . وفي موقع" الروس" كانت فرقة من الجنود الاسرائيليين تستعد لمهاجمة القريه. .

" عيلبون كانت على الخط الامامي. . انقسم البطوف قسمين. . قسم في قبضة جيش اسرائيل وقسم تمركز فيه جيش الانقاذ". . قال الشيخ مشقق الوجه الذي نتحدث عنه، " دخل الجيش وأمروا الناس يتجمعوا في الحاره. . كنا ليلتها نايمين في الكنيسه. . ما انتظروا حتى نستعد للخروج. . صار الجيش يطخ على الناس عن يمين وعن شمال. . حياة

عازار، الله يرحمه، كان انسان فقير، قوسوه لمّا كان طالع من باب الكنيسه، وبعد ما ارتمى قدام الناس يفرفر زي العصفور. . تقدم منه ضابط وحط الفرد في راسه وفرغ باغه خمس. . ست رصاصات طلقه وحده. . أرعبوا الناس. . قطعوا قلوبهم. . طلبوا منهم يرفعوا ايديهم. . "

عند مدخل الكنيسه توقف ثلاثة أطفال. . نظروا إلى جثة عازار الملقيه على الارض. . " مسكين يا عازار ". . قال أحدهم وفرش نظراته على الجثه الهامدة :

- كان عازار يحب الاطفال. .

يوم العيد. . قلت له : صباح الخير يا عم عازار.

قال : صباح الخير يا حلو.

قلت له : كل سنه وانت سالم.

قال : وانت سالم يا روحي.

وأخذني إلى دكان أبو الوليد. . واشترى كيس ملبس. . وكيسين قريش :

قال : واحد لأختك نوال وواحد لأخوك جوزيف. .

مسكين يا عمي عازار. . كل سنه وانت سالم.

عربوشيم

كانت البيوت فارغة. في أقصى الشرق بيت من الطين يسكن فيه شيخ وشيخه. على وجهيهما تعرجت شقوق من أيام الشقاء.. وعذاب تركيا.. " تركيا راحت أيامها.. الانجليز راحت أيامهم.. واليوم ؟ شو ممكن يكون جديد ؟ قاعدين ننتظر تايفرجها ربنا.. أيامنا منعدها على حبات المسبحه.. لا بقي لنا ولا بقي علينا.. "

الجندي / الختيار / الختياره / البندقيه المصوبه / الصرخه / الباب المخلوع / قف / تحرك / يا خمار / الرفس / البسطار / يا خواجه /

وقف عجوز حاني الظهر متكئاً على عكازه والى جانبه زوجته تتحرك ببطء، نظرت إلى الخلف ثم إلى الامام كي لا تتعثر.. نهرهما الجندي كمن فقد صوابه، صرخ كالمجنون وانتظر كلمة واحدة كي يطلق الرصاص. وكانت المحطة الاخيرة في الحارة الجنوبية، في ساحة واسعة، انتشرت عليها حجارة الغرانيت السوداء.

أصدر الضابط الاوامر بأن يجلس الاهالي الذين تجمعوا في الساحة رافعي الايدي، تحاصرهم مجموعة من الجنود.. وكلما أنزل رجل يديه أو تحدث إلى جاره، نهره جندي وأطلق شتيمة، كانت تصل ذيولها إلى يعرب بن قحطان. اختاروا تسعة عشر رجلا، لم يعرف أبو زريق وأبو رمزي ورشيد العيلبوني - جاء إلى عيلبون بعد أن سقطت طبريا - وأبو نبيل وأبو فهمي.. لم يعرفوا إلى أين يريد أن يأخذهم الجنود، كان واضحا أن كل خلاص من هذا الجحيم يعني الانتقال إلى جحيم أفظع :

"حمّلونا بسياره وسرنا قدام سيارات الجيش". كنا نتقدم ثلاث سيارات محمله بالجنود.. طلبوا من واحد أن يسوق السياره التي ركبناها ولم يكن بيننا أي جندي.. وصلنا إلى المغار، كانت مسلّمه ورافعه الاعلام البيضاء"، على الطريق، كل ما شافوا اشي كانت الرشاشات تضرب قرب كفر عنان، طخوا اثنين راكبين على فرس.. في فراده جاء قائد اسمه اورباخ، سأل الضابط المسؤول عنا :

- مين اللي في السياره ؟

أجاب :

- عربوشيم من عيلبون. ركبناهم في سياره ومشوا قدامنا، علشان إذا كان الغام على الشارع، تفقع فيهم وما تصيبنا.

ضحك الضابط اورباخ، وقال :

هل تعلمتم هذا من الانجليز ؟

" والله، فهمت كل كلمه قالوها.. أنا الوحيد اللي كنت أعرف لغتهم".

أبو حسن

لم يعرف أولئك الذين قطعوا الطريق" لتطهير الشارع من الالغام، أن الجنود في القرية يعدون الاهالي لترحيلهم." طلبوا مغادرة البلد إلى المغار، الناس كانت مرعوبه وكثار منهم حافيين وفي ثياب النوم.. ما سمحوا لأحد يبقى في البلد. ساقوهم مثل القطيع إلى المغار.. على

الطريق كانت مصفحه تقّوس عليهم . . جرحوا لبيبه يوسف أبو راجي وابن حنا الابراهيم . . مشينا للمغار ، هناك لقيناهم جامعين الناس في ساحة المدرسه . سألونا : وين ؟

قلنا : هيك هيك صار".

في المغار بلغوا الاهالي بشكل رسمي : انتم مطرودين لعند عبدالله . . يالله على عبدالله . حاولوا يفرقوا بين المسيحيين والاسلام من جهة ويتركوا الدروز من جهة ثانيه . الله يسهل عليه الوحش أبو حسن قال لهم بالحرف الواحد :

– إحنا الدروز رافضين . . إما بترحلوا الكل أو بتتركوا الكل .

وفعلا ما رحلوهم .

" تحت تهديد الجيش وصلنا لكفر عنان . كانت الناس بعدها بين الزيتون . أطلقوا علينا النار . انجرح ناس وانقتل سمعان شوفاني . بقي مرمي ثلاث أيام في أرض الحمار . عند اللّه اللي على الكوريه . . عندما تلف اللفه على اليمين . . الله يرحمه كان زلمه مسكين ، خادم الكنيسه . انتقلنا لفراده ، هناك كان الجيش يقلب البلد . جمعنا وبلش يفتش فينا . وياخذ المصاري والساعات والاقلام وحاولوا ياخذوا الذهب من النسوان . جمعنا لهم **100** ليره فلسطينيه علشان يحلّوا عنا . وما يفتشوا النسوان . ثاني يوم ، اختاروا **49** واحد . وأخذوهم للمعتقل . حملوا ناس من أهل البلد في باص ونقلوهم إلى حدود لبنان . . والطخ وراهم . . على الطريق انقلب الباص وتكسروا ثلاثه . . تفرقوا مع اللاجئين . . وصاروا يرجعوا أول بأول . . كانوا يرموهم على الحدود . .

الصبّار

في اليوم التالي. بعد أن شرد عدد كبير من الرجال. وبقي العجزه والاطفال والنساء وعدد قليل من الشبان،" اختاروا 14 واحد. وزعوهم على ثلاث مجموعات، في الحاره، في شارع القبور، وعند مدخل القريه، كان بينهم محمد الخالد وحنا ابراهيم الخوري وبديع زريق ابن المختار.. وقف الضابط وناداهم واحد واحد.. ما عرفنا شو بيطلب منهم.. ناداني الضابط، رفضت أطلع، قلت مش تارك أهل بلدنا، مسكين جريس الحايك كان قاعد جنبي.. شاب، من أحلى الشباب متزوج جديد وعنده بنت.. وقف وطلع من غير ما يناديه.. ما عرف لوين رايحين ياخذوهم..

أخذوا الشباب لمدخل البلد.. وهناك قتلوهم.. رشوهم واحد واحد وتركوا جثثهم على الشارع..

ما اكتفوا بقتل الشباب.. حوالي بلدنا كانت عشيرة عرب المواسي، مواقعهم توزعت على مرتفعات المنطقه وسهولها.. في باب الثنايا.. يوم دخلوا على البيوت.. وأخرجوا 13 شخص وقتلوهم قدّام بيوتهم.. منهم واحد مع أولاده الاثنين.. وظلت طياراتهم تضرب على البلد.. في الليل وفي النهار.. كنا نام على صوت القنابل.. ونفيق على صوت القنابل.."

القريه الصغيره الوادعة التي ترتاح على كتف الجبل..لم تنتظر طويلا حتى يعود اليها أهلها.

رجعت المرأة التي ركبت الشاحنه ، وتسلل الذين حكم عليهم بالنفي إلى بيوتهم . . في ساعات الليل المعتمة . . حين كانت بيوت عيلبون مهجورة ، الا بيت بقي فيه ختيار وختيارة ، ومنه انبعث ضوء قنديل خافت ، واتسعت رقعة الضوء ، وكبرت عيلبون .

" احنا مثل هالصبر" قال الشيخ مشقق الوجه وظل يداعب حبات المسبحة .

ألمسبحة

تتساقط حبات المسبحة الواحدة فوق الاخرى . . يقلبها الشيخ مشقق الوجه فترقص على أنامله . . المرة تلو الاخرى . . عند مدخل الدار يصهل حصان . . يتوقف الشيخ عن الحديث كأنه يصغي إلى نداء . . صراخ . . تتساقط حبّات المسبحة ويواصل حديثه . . مشقق الوجه ، أزرق العينين ، ينحني ظهره قليلا . . لكن يذكر كل شيء . . يعرف كل شيء . . ذاكرته لا تضيّع كبيره ولا صغيره . . بين الشقوق التي تقطع وجهه طولا وعرضا سجّل يوم النسف مثلا . . ولنبدأ الحكايه :

يقول : اللي كاسرها واللي جابرها معهم واحد (نقطه) أي هو ظل في رجال ؟ (علامة سؤال)

يغيب عنه اسم امرأة ، يرفع رأسه ويسأل زوجته التي لفت راسها "بعصبه" سوداء . . وأصغت إلى حديثه : كان اسمها يا حفيظ الـ . . سـ . . . لا . . مه شو يا أم سعيد . . شو يا أم سعيد . . آه . . اسمها

فاطمه أحمد العبدالله . . والثانيه اسمها حلوه الناصر . . والثالثه فطوم منصور العوض . .

- الله يرحم والدك . .

- ما هو كان معهم . . أولاد الحرام كبوه في الوحله ابن ثمانين سنه .

لم يقتل والد أم سعيد في يوم النسف . . "يا ريت عملوا معنا سنة الاحتلال مثل ما عملوا معنا يوم النسف ؟ الانجليز عاطلين بس كانوا أرحم . . الانجليز كانوا ينسفوا البيوت وما يقتلوا البني آدم . . اخوانا بالله ، بيقتلوا البني آدم وبينسفوا البيوت .

1936.

يحب الشيخ أن يحكي القصة من أولها . . عام **1936** : "انقتل ضابط انجليزي عند تل البروه قبل ما تصل مفرق شفاعمرو ، الانجليز كانوا يظبوا الاهالي وياخذوهم يرصفوا الشارع . . في الليل يقوم الاهالي ويرموا الحجار . . وفي يوم من الايام حطوا لغم ، فقع في دورية جيش . . انقتل ضابط . . كان يومها ترم صيف ، كان واحد من بلدنا مروّح من الجديده . . ميّل على أرضه في السهل . . وروّح على البيت في شعب . . الانجليز لحقوا الاثر واتهمونا بقتل الضابط . . طوقوا البلد وسحبوا أهاليها وما تركوا زلمه من ال **15** وفوق . . مشت دبابه قدام الناس ودبابه وراهم . . عند العياضيه فوق بير المي . الله بعث فرقة مسلحين . . صاروا يطخوا على بعض ، قسم انهزم وقسم ظل ممسوك . . يومها استشهد حسن الحج من دار الخطيب . . رحنا جبناه في الليل

ودفناه . . ثاني يوم طلبوا أهل البلد على عكا وبلغوا بالنسف . . وبعد ما أخلوا البلد بلشوا فيها نسف . . من الساعه **8** حتى الساعه **12** في الليل . . بعد ما خلصوا ، رجعونا على بلدنا . .

هاي فتره مرقت وراحت . . لو بس هذا العذاب اللي شفناه . . كنا نسينا . . لكن كيف ننسى شو صار فينا ؟"

1948

- "وين أيامك يا أبو اسعاف ؟ "- ترقص المسبحة على أنامله ، يتنهد ، تذبل العينان الزرقاوان ، تختفي الانحناءة التي تقوس ظهره ، يتوقف هنيهة كأنه يستنجد بأبي اسعاف . . "لما تشردنا سنة **1948** ، كنا نقول احنا من حامية شعب ، كانت الناس تفتح لنا قلوبها . . لا سلّمنا مفاتيح ولا استلمنا مفاتيح . . أبو اسعاف راح الله يسهّل عليه ، كان يشتغل في سكة الحديد ، وماشي ورا القياده ، من محل لمحل ، يجمع فشك فرد . . يوم اجا عالبلد وجايب معه "تانك رايفول" ، مدفع بيضرب على مسافة 7كم . . حصّنا بلدنا ، وبقينا نقاوم . . سقطت البروه وبعدين سقطت ميعار . . وشعب ظلت صامده تقاوم ، مترسوا قبالنا على الجبال وسدوا علينا الطريق ، حاصرونا وبلشوا قواس . . كل ما لاحوا بواحد من البلد كانوا يقوّسوه . . حسين علي حميد . . كان يرعى طرشه في "كرم المقره" . . قوسوه وقتلوه . . قتلوا مصطفى الصفي وأحمد حرامي اللي كان ينقب خضرياته . . كانوا يتصيدوهم واحد واحد ، أحمد الاسعد كان له دخانات في أرض "الديسه" ضربوه وقتلوه . . بنت عبدالله محمد الموسى قتلوها وهي تجمع خضريات في كروم الحنانه .

- "مين بعد ؟ قولي معي يا مره "فاطمه أخت أحمد العبدالله كانت تحوّش صبر وزهره الموسى كانت على الحيط ، قوسوها ، سقطت قدام عيونا . . صبايا كانوا في عمر الورد . . يا دوب **20** سنه يا دوب **25** . . واما شبابنا ، كانوا يزقطوهم مثل العصافير ، يحيى محمد الحج اسعد كان عمره **15** سنه طخوه في مجد الكروم . عطا محمد الاسدي ، كمان شاب في زهرة شبابه ، طخوه . . محمود محمد طه وعلي اسعد ابن الشيخ محمد كانوا من أحلى شباب بلدنا . . طخوهم في الشارع العام . . قدام الناس .

يتوقف . . كأن الحكايه تنتهي على شفتيه . . يحرّك رأسه . . ويحدّق برجل في الثلاثينات جلس إلى جانبه ويقول : احكِ قصتك يابا . . احكيها .

ميعار

الرجل الذي جلس إلى جانبه ، كان في السادسة من عمره ، حين سقطت ميعار وصارت البلدوزرات تمسح القرية وأهاليها يقطعون الطريق الوعرية إلى مجد الكروم . . إلى رميش . . علما الشعب . . أو في الاتجاه المعاكس . . تحملهم شاحنات العسكر وتقذف بهم عند اللجون . . في شهر أيار من ذلك العام دخل الجيش وشرّد أهالي شعب ، بقي عدد من الختياريه والنساء ، بعد ان أدرك المشردون "أن القضية ليست طوشه عموميه ، وهي ليست كيوم النسف" أخذوا يتسللون إلى شعب عبر كروم الزيتون وفي المسارب الوعرية التي تشق جبل العريض ، "يومها

كان الزيتون حامل، رجعنا ننقب زيتون، كنا أولاد ونسوان، رجعنا "نسرق" من أملاكنا، من أراضينا، كان في البلد واحد عميل وصل مع جماعته ومعهم الجيش وطوقونا في مرج الغزلان ورفعوا العصي علينا.. قلت له: دخلك يا عمي.. وكان عمري ست سنين.. ما نطقت في الكلمه ورفعت ايدي والا العصي صارت تنزل على ظهري.. هون بيوجعك وهون ما بيوجعك.. بعد ما شبعونا قتل.. جابونا على البيادر، كانت ملانه خوابي زيت، كنا **15** ولد.. وحطونا في خم الجاج.. وصاروا يعذبوا فينا.. بعدين أطلقوا سبيلنا.. بعد ما طوقوا البلد.. وأمرونا نتركها.. حملنا الاثاث على الحمير.. وإحنا طالعين، صرنا على راس الجبل والاّ الطخ مبلّش.. انتشر الناس بين الشجر.. مر علينا ابن خالي وابن جيرانا.. قال لهم أبوي: يا شباب استنوا هون.. الشباب ظلوا ماشين.. في أول البلد كبشهم الجيش.. يا حرام الشوم شو عملوا فيهم.. لا رحمه ولا شفقه.. شباب بعمر الورد.. شلّحوهم ثيابهم.. كانت الطريق ملانه شوك مرار.. نيّموهم على الشوك.. زحّفوهم على بطونهم.. وبعدين قوّسوهم.. صرخت: قتلوهم.. قتلوهم.. سمعوا صوتي، سبّقوا لنا من ناحيه ثانيه.. كان معنا أولاد ونسوان وختياريه.. كبشونا وأوقفونا على سنسله وبلشوا فينا سلخ.. رفعنا ايدينا.. وصرنا نصرخ ونبكي: دخلك يا خواجه.. شفنا الموت في عينينا.. كنا نشوف الزلمه أربعين.. شو كنا أولاد ست سنين.. الختياريه همدوا على الارض والصبايا صارت تشحبر بحالها.. خوف من الاغتصاب والاعتداء على

العرض. . لما كتفوا أبوي نطيت بين النسوان. . خالتي وضعتني تحتها وغطت عليّ. . ركض الجندي وراح يسأله:

-فين بيبي. . (الطفل)

- فش بيبي يا خواجه. .

مع الغياب ظلوا لاحقينا حتى أوصلونا لمجد الكروم". .

المستنقع

تختفي الشمس خلف جبل العريض، كأنه محكوم على هذه القرية الوادعة أن تنام مع غروب الشمس، حين ينزل عليها ظلام دامس، لا يشقه في زاوية من زوايا البيوت العتيقة الاّ ضوء مصباح خافت. . هؤلاء البسطاء الفقراء يعرفون كل شيء، العذاب، التشرد، النواح، البكاء. اسمع هالحكاي : قبل سنتين رحت حتى أفرز الارض وأسجلها على اسم أولادي. . عندي حوالي عشرين دونم أرض. . والارض اللي ساكن عليها. . حتى هاي الدار مش قابلين يسجلوها على اسمي. . دار ابني اسسها ابوي على زمن تركيا. . مش قابلين يسجلوها باسمي. . بيّدعوا انها إلهم. . قالوا لي بيعها، قلت هاي أمانه معلقه في عنقي. . خليني أنهي حكايتي يا عمي. . أنا رجل ختيار في الثمانين وما عاد لي نفس أسهر. . واطوّل في الحكي. . عندي حكي كثير. . وبدي الشباب يسجلوا كل شيئ. . بكره بتروح أيام وبتيجي أيام. . إحنا منموت ومعنا بتموت الذكريات. . في بلادنا كان ختياريه أكبر منا. . اسمعوا شو صار فيهم. . بعد ما احتلوا البلد كان فيها الختياريه منزويين في غرف

معتمه . . ومعهم نسوانهم وأطفال صغار . . جابوا سيارات وحملوهم فيها . . هذا كان في عز كوانين . . الشتا كان ينكب من أبواب السما . . مرج ابن عامر كان محروث على التراكتورات والشتا غطاه وكنت تشوفه عن بعيد بحره كبيره . . حملوا الناس بسياراتهم وكبوهم في مرج ابن عامر . . في المي والوحله . . الناس صارت تغرز في الوحله . . تركوا الختياريه يموتوا لحالهم . . لا مين ينقذهم ولا مين يشفع لهم . . 13 ختياري ماتوا في المستنقع والوحله . . ظلوا يوم يومين ثلاثه . . مغرزين في الوحله ويموتوا شوي شوي من البرد ومن المي . . كان معهم ياسين فاعور ومصطفى فاعور وعبد المحمد وزينب عبد الجليل .

يتوقف الشيخ مشقق الوجه الذي نتحدث عنه . . يحشر حبات المسبحة في قبضته . . كأنها تختنق بين أنامله الطرية ، كأنه "ينقذها ، يشفع لها" يحشرها في جيبه ويتناول عكازه . . وتبرز الانحناءة التي تقوس ظهره . . يشق طريقه في الظلام . . يختفي كما تختفي الشمس خلف جبل العريض ، وفي المستنقع تصرخ الختياره حلوه الناصر وتسح الدموع من مقلتيها وهي تغرز في التراب والمياه تغطي عنقها : دخيل الله . . بحياة الله . . يا يما يا حبيبي . .

شيئا فشيئا يختفي الصوت . . يختفي الصوت . . يخـ . . تـ . . فـي . . الـ . . ص . . و . . .

المصيدة

حدق بعقارب ساعته التي لفها حول زنده اليمنى . . فاليسرى مبتورة وقصتها قصه . .

كان هو الدليل الذي قادني إلى البئر التي بحثنا عنها . . وكلما رددت كلمة قالها ، كنت أحسّ أنني أمنحه الشعور بثقتي به ليوصلني إلى المكان الذي تطل عليه "كمبانية" – غبعات نيللي" قبل غروب الشمس وسقوط ظلال الجبال على وادي أم الشوف . . فما كنا نقوم الاّ بعملية استكشاف ، نبحث عن مكان ما . . نسجّل . . نصوّر ان أمكن . . لا نترك أثرا على المكان . . بل يترك المكان أثره على قلوبنا . . فأسرع . . إلى أن يطلب مني أن أتوقف وننزل من السيارة ونتركها على جانب الطريق حتى لا يرانا أحد عندما نقترب من السياج الحديدي الذي كتب عليه لافتة بالخط الاحمر : "ممنوع الدخول ، من يخالف يعاقب" .

قال الشيخ مشقق الوجه :

اذا أمسكوا بنا فسيأخذوننا حتما إلى مخفر الشرطه أو على الأقل سينزل علينا مختار "الكمبانيه" أشد العقوبه : "عربيم" قذرين . . ويبصق في وجوهنا . . ويكتفي بهذا القدر فيعوض عمّا لم يفعله في ذلك العام الاسود حين أراد أن يقذف بنا في البئر فهربنا واختبأ كل منا في حضن أمه . .

قصة الساعه في الزند اليمنى . . تعود إلى سنوات خلت :

"كنت أرعى الغنم في أرض قريبه من معاويه . . عثرت على قطعة معدنية . . كان معي ثلاثة فتيان آخرين . . أمسكت بالقطعة المعدنية . . فانفجرت في يدي . . وأصابتنا جميعا . . وبقيت بلا يد . . وبقي آخر بلا بصر . . وآخر بلا رجل وليست هذه هي الحكايه . . ففي معاويه عشرات المشوهين . .

معاوية

قريه صغيره تحيطها منطقة عسكرية مغلقة. يتدرب عليها الجيش.. الرصاص كان أحيانا يخترق شبابيك المدرسه.. فينبطح الاطفال على الارض.. قطعت يدي فقدموني للمحاكمة.. بحجة الدخول في منطقة مغلقة.... دفعت غرامة ألف ليره.. يوم كانت الليره ليره.. "

انتهت الحكايه.. فتوقفنا عند اللافتة المكتوبة بالخط الاحمر.. "لبطها" برجله اليمنى.. فاهتزت بعنف وأحدثت دويا.. ثم انحنى ورفع السلك الفولاذي الشائك.. وقال: تسلل من هنا.. فانحنيت ودخلت..

قالوا: بدنا نعمل مدرسة وشارع ونطور البلد.

ثاني يوم: ما بقي حجر قاعد على حجر..

أم السناسل، بير المصري، خلة الكوانه، دير الهوا، عين شجره، البويشات.. ربما أن الكثيرين لم يسمعوا بهذه الاسماء.. طبعا لم يتعلموا عنها.. لكن في مخيم جنين يعرفها الكثيرون..

أوقفت الشرطة شيخا عند حاجز بوليس على الحدود. سأله الشاويش:

- من وين أنت ؟

فأجاب: من البويشات..

قلب صفحات بطاقة الهويه.. لم يعثر على هذا الاسم.. أعاد السؤال.. سمع الجواب نفسه.. ولم يتركه الشيخ الاّ بعد أن رفع يده صارخا:

هدمتوها. كيف ممكن تسجلوها في الهوية ؟

قد لا يذكر هذا الشاويش كيف هدمت البويشات . .

كانت قريه صغيره . . صغيرة جدا شمال شرق معاويه . . دخلت فرقة من الجنود في حزيران الاسود . . كانوا يركبون سيارة جيب . . وصلوا إلى بيت المختار تعاملوا مع الاهالي بلطف، لم يصدق . . قالوا :

- بدنا نعمل مدرسه وشارع ونطور القريه .

ثاني يوم دخلوا في نفس سيارة الجيب وقالوا :

- بدنا نفتش القريه . . اخرجوا ليومين ثلاثه

. . أخرجونا . . ما وصلنا البيادر والاّ الفرقعه ولّعت . . .

والبيوت انهدمت . . وما بقي حجر قاعد على حجر . . ومن يومها سيّجوا الارض وما سمحوا لأحد بالدخول . . يوم من الايام قال أبوي :

- جاي في بالي أزور البلد . . وأشوف شو صار في أرضياتي . .

حمّل حاله وتسلل على أرضه . . وصلت دوريه ، أمسكوه وأخذوه للمحكمه في اللد . . قال للحاكم : يا سيادة القاضي . . هاي أرضي . .

قال الخواجه : هاي منطقة عسكرية . .

وحكموا عليه بدفع غرامة . . بقي خمس سنين يسدد فوائضها . .

حملنا العصي ورحنا على البيادر

والخواجة يقول : استرح ! استعد!

ألكفرين

يعتدل الشيخ مشقق الوجه في جلسته على فرشة الصوف السميكة المبطوحة على الارض.

"أرض الكفرين يا خوي.. أرض غانمه".. صارت ملك "الكمبانيه" "عين هشوفيط"، حولوها مزارع بقر.. بقر "المبام" مسموح له يخش فيها.. بقرنا ممنوع.. هاي أخوة الشعوب اللي بيدعوها.. قايمين على أراضينا.. ومنشتغل عندهم عمال أجيرين.. وبيقولوا: أخوة شعوب.. أي "طز" على هيك أخوه يا سيدنا.. المهم.. الكفرين كان عدد سكانها الفين وخمسمائة نسمه.. أكبر من أم الفحم.. كان فيها مدرسه.. ويصل اليها باص كل يوم.. يوم الاحتلال دخل الجيش وطوّق البلد.. ونقلوا الاهالي لمعسكر قرب "رمات هشوفيط"، أخذوا قسم كبير من الرجال ونيّموهم على الواح الصبر وصاروا يدوسوا عليهم.. ليرعبوا الناس.. ومن يومها ما حد رجع على البلد.. ولا بقي لها أثر.."

لم يكن مصير الكفرين أفضل من مصير البطيمات.. هي كذلك قرية صغيرة كانت تربض على تلة تطل على وادي عاره.. لم يبق من تلك القرية اثر، ولم يبق لهذه أثر.. وعلى بير "أبو حجوه" أقيمت "كمبانية" "غالعيد"، اسمها.. بلد حنان والياهو جيرانا أيام زمان، كانوا يدخلوا بيوتنا مثل بيوتهم وأعز.. قبل الاحتلال بأكم من يوم إجا واحد عسكري من "الكمبانيه" وقال: إحنا جيران، والانجليز أعداءنا

وأعداءكم . . يا عمي الناس كانوا بسطاء كثير والهم الله ورسوله . . كانوا فلاحين وما بيعرفوا الخباثه . . هذا العسكري قال لأهل البلد :

- بدي أدربكم على السلاح . كل واحد عنده قطعة سلاح يجيبها ويجي على البيادر . . ما كان مع الناس ولا أي قطعة سلاح . . سلاحنا كان العصا والدبسه . . حملنا العصي ورحنا على البيادر . . وقفنا في طابور وصار العسكري يدربنا .

- استرح . . استعد !

- مكانك قف . . إلى اليمين در . . إلى الخلف افتل !

وهالشباب : تستريح وتستعد . . وتفتل على اليمين وعلى الشمال . . ولما تأكد أنه ما في مع الناس ولا قطعة سلاح . . غاب عنا وتاني يوم والا الياهو داخل البلد مع فرقة جيش وصاروا يقّوسوا علينا . . ما بقي حد في البلد . . كلنا شردنا . . ونفس العمليه عملوها مع أهالي أم الشوف وقتير . . حتى يطّوقوا خبيزه . . المجزره صارت في خبيزه . .

ألقافلة

في هذه الجهة ينتصب جبل . . وفي هذه الجهة ينتصب جبل . . ويتوسطهما واد يمتد من هناك وحتى هنا . . وادي أم الشوف . حول بئر الماء تنتشر شجرات اللوز والتين . . عفوا . . كانت تنتشر في تلك الايام البعيده . . القريبه . . على سفح الجبل "كمبانية" . القرى المجاورة لم يبق لها أثر . قوات الجيش كانت تحاصر خبيزه وأم الزينات وكفر لام وعين حوض . . البحر من ورائكم . . والبئر من أمامكم . . بين بساتين اللوز

والتين أختبأ الياهو وحنان ودافيد المختار . . وفرقة من الجنود . . معهم برنات ومترليوز . . وانتظروا وصول القافلة الاولى . . التي أخذت تنحدر عن الجبل على مسرب وعري . . الاطفال ركبوا على الحمير ومن تبقى مشى خلف القافلة . . وصلوا عند حافة البئر . . فخرج رجال "الكمبانيه" وأوقفوهم :

- النسوان والختياريه والاطفال . . وقفوا على جنب !

- الشباب . . صفوا واركعوا على الارض !

كان الجبل يلقي بظله على الوادي . . وصرخات الاطفال الصغار تصطدم بالمنحدر فتعود وتتسرب إلى آذان الامهات . . الجلبة تحدث أصداء تبعث على التوتر والقلق . . القافلة تسير . . تقطع شوطا في المنحدر، الانظار تنفلت إلى الوراء . . تنبعث الطلقة الاولى . . يسقط شاب . . تنفلت صرخة تجلجل في الوادي . .

. . طيخ طاخ . . طيخ . . طاخ . . تنفلت قيود الرشاشات . . زخة تسقط على الشبان الراكعين . . تتوقف القافلة . . امرأة تلقي بطفلها على الارض . . وتعود مسرعة . . يصوب اليها أحد الجنود البندقيه . . طيخ . . طاخ . . تسقط على الارض . . يخيم، ما يسمى، بهدوء نسبي . . جثث الشبان الملقاه على الارض . . لا تتحرك . . ولا يطلق نفَس . . يتقدم ثلاثة من الجنود . . يمسك أحد باليد اليمنى وآخر باليسرى . . يجر الجثة إلى حافة البئر . . والثالث يدفعها بقدمه إلى الاعماق . . وهكذا . . واحد اثنين . . ثلاثه . . أربعه . . يتوقف الجندي عن العد، يسرع . . قبل وصول القافلة الاولى . . السكون يخيم . .

الياهو يفرد كوفيه على فوهة البئر . . ينتظر . . يصل الحمار الاول . . يوقفه . . يتوقف الجميع . .

- النسوان الختياريه والأطفال . . وقفوا على جنب

- الشبان صفوا وأركعوا على الارض . .

كانت القافلة قادمة من صبارين . . اختاروا 25 شابا . . وأوقفوهم أمام عيون أهاليهم وأطلقوا عليهم النار . .

"يا عمي اليوم . . لما نقول أوقفوا شباب وأطلقوا عليهم النار منقولها بمدة لسان وبجرة قلم . . كان أحسن زلمه راس ماله فشكه . . ابن داهود أبو الصياح ، كان وحداني لأهله ، سحبوه من بين الناس ، وقفوه عند البير حتى يقوسوه . . مسكين أبوه هجم عليهم وقال لهم :

- اتركوه . . طخوني أنا واتركوا ابني . .

قال العسكري :

- لا . . هذا راح يصير جندي .

وأطلقوا عليه الرصاص . . أبوه فقد عقله . . مسكين ، كنت آجي عليه . . يبكي مثل الولد الصغير . . دايما يحكي عنه . . كان يشوف أولاد صغار على الطريق . . يناديهم باسم ابنه . . يفكر كل واحد منهم ابنه . . الاولاد ما كانوا يفهموه . . كانو ا يخافوا منه . . ظل يتحسر ويتعذب لمّا مات قبل أكم من سنه . .

بعد الاحتلال إجا أخي وقال : روح معي تلا أم الشوف نجيب حطب . . وصلنا دار مهدمه . . دخلناها . . في غرفة من الغرف كان صخرة وتحتها جثة شاب فاتح فمه . . تأم الشوف . . تحوّلت إلى

مصيدة . . لم يكن مسرب آخر لقوافل المشرّدين من قرى المنطقه . . لم يكن بالامكان إحصاء الجثث التي ألقيت في البئر . .

يحاول الشيخ مشقق الوجه أن يتذكر . . "عشرين في القافلة الاولى . . 25 في الثانيه . . القافلة الثالثة قتلوا كل شبابها ، اذا قلت قتلوا 200 شاب مش مبالغ فيه . . جماجمهم بعدها مرميه في البير . .

نحن أهل معاويه صمدنا . . حاولوا يرحلونا لكنا قاومناهم . . . . مش راح نرحل . . إذا كان نفدنا من مصيدة أم الشوف ولا مصيده راح تلقطنا

الجلمه

عندما تذكر اسم "الجلمه" تعيدك الذاكرة إلى تلك الزنزانة التي تحمل الرقم 3 والى ذلك السجان الذي يجعلك تحترق قبل أن تشعل السيجارة التي تحاول أن تنفث فيها غضبك عليهم وعلى الايام "اللي أوصلتك لمثل هالمواصيل" ، لكن "الجلمه" بالنسبة لشيخنا هي ذكريات أخرى ، حياة أخرى وألم من نوع آخر ، لا تحسّ به ان لم تكن فلاحا تمضي نهارك وليلك في مقاتي البطيخ الممتدة حتى شاطئ الخضيره . وبلا طول سيره ، الجلمه التي نعرفها هي تلك التي يؤخذ اليها العرب عنوة وفي منتصف الليل محاطين بعشرات الجنود وأفراد الشرطة . الجلمه ذلك السجن الواقع على الطريق بين حيفا والناصره . لكن الجلمه التي يعرفها الشيخ هي تلك البقعه التي لا يسمح له بدخولها ، " من الغرب يحدّها بير الجلمه من "قبلي" بير السكه وشرقها للاسفلت وشمالها حدود جت ، أرض

الشقاقيع، حمام الجوزه، أرض أبو صليح، عتيل، قاقون، من يعرفها؟"

ما تبقى من الجلمه، تلة ترتفع بضعة أمتار عن البحر الذي تطل عليه، تتوجها أطلال بيت أقامت زرافة من الحمامات أعشاشا لها في الثقوب التي لم تصلها شفرات "بلدوزر الكمبانية" قبل وبعد أن يعلنوا عنها منطقة مغلقة في وجه الشيخ وأولاده.

كعادته ينفث الشيخ زفرة.. يعض شفته السفلى ويتنهد للمرة العشرين.. ينظر الينا وفي عينيه يلتهب شرر، وحين يتكلم نتوقف نحن عن التسجيل خوفا من أن ننجر مع غضبه فنجد أنفسنا في سجن الجلمه، ضحية قانون العيب، بصدق أو بغير صدق، بعدالة أو بغير عدالة ولما تهدأ عاصفته نسجّل كل شيئ، كلمه كلمه.

سألني سائق التراكتور: إلى أين أنت ذاهب؟

أجبت. فقال لي: روسكم قاسيه مثل الحجر

"أصلنا من قرية صيدا الواقعه على الجبل.. أخو سيدي قعد في عتيل.. سيدي اشترى أرض الجلمه وقعد فيها.. كان عنده غنم.. وبقي فيها تا توفى.. أولاده تابعوا طريقه، وإحنا مثل أبونا وسيدنا.. بقينا في الارض.. زمن تركيا وزمن الانجليز لآخر ما توصلنا لدور اسرائيل.. قالوا لنا، مع السلامه، شلّحونا الارض ورحّلونا ولعنوا أبو أبونا.. والله، لو يعطوني أرجع لداري ما بأخّر..."

ألعرس

حـول مـوقـد النار الملتـهب، جلس أحـفـاده الصـغـار ليـحـدثهم عن ذكريات أيام زمان. . يخرج المسبحة من جيب قمبازه وبأبهامه الغليظة ينقلها حبة حبة، كأنه يعدّ السنين التي مضت، كأنه يعدّ ما تبقى له من هذه "الحياه الزفت" كما يحب أن يصفها، في أكثر من قعده وأكثر من مناسبه. . يحكي لهم يوم تزوّج أخوه وكان الخير يعمّ الناس. . " كانت العالم بالها هادئ وبعشر قروش تشتري كندره، أجلّ السامعين، أي هاي حياة. . ؟ يوم عرس أخوي ذبحنا **14** ذبيحه. . اللحام تعب وهو يسلخ ذبايح. . كان في خير. . أهل الفرح يغنّوا ويسحجوا أسبوع كامل. . القواله تقول: يا بيي محمد وسّع دارك المينا. . والنسوان يرددن وراها، بعدين تقول: يا بيي حسن وسّع دارك المينا. . والنسوان يرددن وراها. والعالم مبسوطه وبألف خير، أنا دايما باقول لأولادي وأولاد ولادي. . روحوا على بلدكم، زوروها. . شوفوا الدار اللي ولد فيها أبوكم. . "

يقول أحد أولاده:

"قبل مده ذهبت إلى الجلمه، عندما كنت في طريقي إلى الخربه لحق بي شاب من كيبوتس "لهبوت حبيبه" وهو يسوق تراكتور، أنا أعرفه ويعرفني، أوقفني وسألني: إلى أين أنت ذاهب ؟ فقلت له: إلى خربة الجلمه!

فسألني: هل ما زلت تحلم بالجلمه ؟ أنتم عنيدون "روسكم مثل الحجر. . " وأستطيع أن أمنعك من دخول الارض واذا حاولت سأتهمك

بالتعدي على حدود الغير، ولكن لأنني أعرفك، وحفظا على حسن الجوار بيننا، سأسمح لك هذه المره. لعلك تقتنع أنت وأهلك أنه لم يبق لكم في الجلمه أي شيئ مما تحلمون به. .

واصلت طريقي إلى أن اقتربت من التلة التي تتوجها أطلال بيتنا العتيق، كان "البلدوزر" يغرز شفرته في التراب الناعم. . وحجارة البيت تنهار وتتدحرج كقذائف البركان. . أحسست أن "البلدوزر" يغرز شفرته في صدري. . لم استطع الوقوف. . كدت أنهار كما ينهار بيتنا العتيق. . عدت إلى البيت. . وفكرت. . وما زلت أفكّر. .

ألمحكمة

أكثر ما يحب الشيخ مشقق الوجه أن يتحدث عنه هو معيشة الاهالي قبل أن يشردوا من قريتهم. يحب كثيرا أن يتحدث عن فلاحة الارض، عن العرس الذي حضره كل أهالي زيتا وعتيل، ويتنهد كلما تذكّر اللحظات التي دخل فيها الجيش وأمرهم بأن يغادروا قريتهم، قبل أن يدفنوهم في أنقاض بيوتهم.

"قالوا، هاي الارض لازمه للجيش ولازم نطلع منها، أجوا يطلّعوني قلت لهم: والله ما بطلع لو بتقوسوني في صباحي، دخلوا البيوت ورشاشاتهم تحت الطخ. . الناس خافت على حياتها، في ناس هربوا على باقه وناس هربوا على بير السكه وناس أجوا على جت. . سمعنا يومها عن الجرايم اللي ارتكبوها في القدس. . في قاقون وقعت مجزره، كانت الزلام مرمايه مثل الحطب، أنقتل ابن صابر الباسوني، وابراهيم ابن العكوزي وابن الكلالي من عتيل، وشريف ابن أسعد القاسم أنقتل

يوم ما هجموا على البلد دخلوها بالمدفعيه والهاون. . كانت المسأله حاميه. . يومها كنت جاي من صور، على الطريق صادفت واحد من أهل عتيل كان مقوّس ومرمي على الارض، حملته وسلّمته للبوليس. . بوليس العرب، ومن يومها ما عرفت شو صار فيه. . يمكن طيّب يمكن مات. . بعد مجزرة قاقون بقينا في بلدنا ست أشهر. . قلنا نموت ولا نترك البلد. . بعدها سمعنا أنهم طردوا أهل إقرث وشتتوهم. . هذا قطع رقابنا. . كان عدد سكان إقرث أكثر من ثلاثة آلاف. . وعدد سكان بلدنا كان مش أكثر من ميتين. . قلنا شو يعملوا الميتين. . اتصلنا بجيش عبدالله وقلنا له: قاقون سقطت، فاجأنا الجواب: اللي بدّه الحج أمين خليه يلحقه. وتشتتنا يا عمي، واحد هون وواحد هون. . ما سكتنا على الضيم، قلنا معناش سلاح نحاربهم، ما بقي إلنا الا نروح على محاكمهم. . رحنا على محكمة القدس وربحنا القضيه. . قررت المحكمه أنهم يرجّعونا على بلدنا. . لكنهم مثل عرب التركمان:

عرب تركمان يا يوم انتخينا أخذنا الحق والباطل سوا.

شمشون

لم ينته عذاب الشيخ مشقق الوجه عند تشريده عن أرضه. . فبعد أن أصدرت المحكمة قرارها حمل والده - وهو ختيار في الثمانين من عمره - القرار وجاء إلى الحاكم العسكري يطلب السماح لهم بالعودة إلى القرية لكن الحاكم قال له:

- يلعن أبوك على اللي أعطاك الحكم. اللي راح يدخل الارض راح أنكسّر رجليه. .

صاروا يفاوضونا على التعويضات . . رفضنا . . قلنا لهم أرض بأرض . . رفضوا . . رفضنا إحنا وبعدنا ننتظر تايفرجها ربنا . .

يوم دعاني الحاكم العسكري ، شمشون ، وصار يهددني لأنه نشرت في الصحف . . كتبوا عنها الشيوعيه . . وأوصلناها لجرائد أميركا . . قلت له أنا ختيار ومش خايف على حياتي . . أكبر من الخازوق اللي أكلناه مش راح ناكل . . وأكثر من الاهانه اللي انزلوها علينا ما راح حد ينزلها . . فرعطت حطتي عن راسي . . وقلت له كلامك ما يحرّك في راسي شعره . . الاتراك حكموا بلادنا أربعمائة سنه وطاروا . . والانجليز حكموا **30** سنه وطاروا . . وانت يا شمشون راح ييجي يوم وتطير . . والله صدقت نبوتي . . طردوه من الجيش . . يوم التقيت فيه بالخضيره . . قلت له : بيسلّم عليك أبو فلان . . قال مين أبو فلان ؟ قلت له : أنا مش قلت لك آخرتك تنطرد ؟

خليها على ألله ، هو احنا قادرين نحكي؟

ألجنوب

تحمل أنامله المرتعشة مفكرة صغيرة ، تتراقص وهو يقلب صفحاتها وتكاد تسقط من بين يديه ، فيحكم قبضته عليها : " إذا راحت هالمفكره ، راحت حياتي ، صار عمري ثمانين سنه وأكثر ، كله مسجّل في هالمفكره . . قلت أنا راح موت والتاريخ مش راح يموت . . يمكن في ناس بدهم يموّتوا التاريخ بس لا ، كله مسجّل في هالمفكره " . .

يفتح صفحه كذا . . يفضل هو أن يقرأ ما حدث . . شيخ مشقق الوجه ، حين يبتسم تغور الشقوق التي تقطع وجهه طولا وعرضا ، وحين

يغضب يختفي منها الكثير، يحكم إطباق فكيه فتبرز الاوردة التي تغطيها طبقة جلدية رقيقة. ترتعد أنامله حين يغضب وحين يبتسم. يرتفع صوته دائما، ففي مفكرته ما يدفعه أحيانا لأن يصرخ.. أحيانا لأن يبكي.. أحيانا لأن يسخر من هذا القدر" حكيت لك عن الجليل.. وطنا مش بس الجليل.. كنا نحمّل الدواب في الطنطوره قبل ما تشق الشمس ونمشي مع البحر لنوصل يافا والرمله، ننزل الحمل مع غياب الشمس.. نبقى ليلة.. ثلاث ليالي.. أربعة.. ونرجع لبلدنا.. هالزيارات كنا نعملها بعد المواسم.. نطعم أهل الرمله من غلتنا وهم يطعمونا من غلتهم.. شو جاي على بالي أركب هالحمار - وأمشي طريق البحر.. لحد ما يوصلني يافا.. بس شو راح يقولوا عني ؟ مجنون! يمكن تمسكني دورية وياخذوني لمخفر البوليس وهناك يظلوا يضربوا في ويرموني في البحر.. وأنا زلمه كبير تبهدلت كثير في حياتي وبعد شيبتي ما بقبل الاهانه ولا أولادي بيقبلوها الي.."

لم يكن سهلا علينا أن نقنع الشيخ بأن يركب السيارة معنا ونسافر إلى الجنوب، قلنا له : مع الشاطئ تقطع الطريق ونفتح شبابيك السيارة فيتسرب هواء البحر، وحين نقترب من الرمله تفوح رائحة نوار الليمون.. ترى مئذنه الجامع يا شيخ، تبقى معنا يوما أو يومين..

يطوي المفكرة الصغيرة ويدسها في جيبه.. تمتد أنامله المرتعشة إلى عقاله فيركزه على قمة رأسه، يتكئ على عكاز صنعها من السنديان.. ويقف على رجليه. ساورنا خوف بأن نفقد الشيخ على الطريق.. يموت الشيخ فتموت معالم هذا الوطن.. تسقط المفكرة في البحر فيضيع

التاريخ . . أو يبقى لمن يفهمه كما يشاء وليس كما يعرفه شيخ مشقق الوجه ترتعش أنامله . . لكنه لم يفقد الذاكرة .

دهمش

تغير كل شيئ منذ ذلك التاريخ ، الشاطئ الذي يمتد" على مد النظر" أصبح يختفي خلف العمارات الشاهقة ويحجبه الدخان الذي تنفثه أعمدة شركة الكهرباء المنتصبة على قبور "عرب المفجر" ، يهز راسه ويصوب نظراته كما لو كان يريد أن يقتلعها من أساسها . .

يواصل الحديث عن البيارات . . وعن مقاثي البطيخ . . يحدث عنها وكأنها ما زالت موجودة ، حتى بئر الماء التي وضعت على حافتها بلاطة من أيام صلاح الدين ما زالت قائمة في ذاكرته ، لكن قناة مجاري القرف شقت الأرض من مراحيض الخضيره وحتى البحر . . عشرات الاسماء تسمعها لأول مرة ، ولولا أنك تعشق هذا الوطن لما علقت في الذاكرة . . تقترب من الجنوب . . سلمة ، الخيريه ، العباسيه ، الساقيه ، بيت دجن ، يازور ، صرفند العمار ، صرفند الخراب : "أيام الحرب العالمية ، كان في البلد جنود استراليين ، اغتصبوا صبية من بنات البلد ، قتلوا عشرات الناس ودمروها عن بكرة أبيها ، علشان هيك سموها صرفند الخراب . . بعدين عمرها أهل البلد ، وما مضت ثلاثين سنه ، الا إجا ضابط وأمر بحرقها ، ودمروها عن بكرة أبيها ، وأهلها مش قادرين يعمروها . . "

تطل على مشارف الرمله ، فتبدو مئذنة الجامع ، يصر أن يأخذنا إلى جامع دهمش : " في الرمله تجمع كل المشردين من قرى المنطقة . وصل

عددهم أكثر من **100** ألف . . جمعوا الشباب في الجوامع والكنايس والباقي ظبوهم في البيوت . . وفي الساحات العامة . . يوم . . يومين . . كانوا ينتظروا فرج ربهم . . لا أكل ولا شرب . . وهالجنود تنهر عليهم وتعاملهم مثل الحيوانات لحد ما وصلت جنودهم مسلحة . وادعوا أنه القيت قنبلة على جنود يهود ، فرضوا منع تجول وصاروا يقتلوا في الناس عن جنب وطرف . . الاهالي ما كان معهم سلاح والجيش الاردني انسحب . . وما بقي للناس الا يهربوا ، كان قائد الجيش يومها اسمه اسرائيل غاليلي وقيادته كانت في النعانه ومعه ضباط معروفين صاروا وزرا كبار . . لو يصح لي أحكي مع حدا منهم لكنت سألته سؤال واحد بس : " نظفت ايديك من دمنا يا ابن الصرماي ؟"

ألمعتقل

أصرّ الشيخ مشقق الوجه الذي نتحدث عنه ، على أن يأخذنا إلى معتقل قطره (غديره اليوم) الذي أمضى فيه اسبوعين بأمر من اسايل تسوكرمان الذي عين حاكما بأمره على المنطقة . . حدثنا عن " نواح" مدير المعتقل الذي لم يعرف أن يتعامل مع العرب الا بلغة الكرباج . . " أخذوا يعتقلونا بالجمله . . ندخل المعتقل يستقبلنا نواح بكرباجه ولسانه البذيئ . . يقشطونا كل شيئ معنا . . ويرمونا اسبوع اسبوعين ويطلقوا سبيلنا ، نخرج نلاقي بلدنا مشرده والجيش بيلغم فيها . .

في سدود فرضوا منع تجول . . الناس ما كانت تعرف شو يعني منع تجول ، طلعوا أربعة في الشارع ناحية الجامع ليصلوا . . كان معهم شيخ

في الثمانين اسمه عبد الحميد أبو محسن، الباقين ما عرفت اسماءهم. قوسوهم في الشارع العام وأمروا الناس يظبوا جثثهم.. بعد 3 أيام جمعوا كل أهل البلد.. الختياريه رموهم في المعتقل والشباب كبوهم في المجدل.. بعدها احتلوا المجدل وحذروا الناس من أنه كل واحد بييجي ابنه أو قريبه لعنده من بلد ثانيه لازم يسلمه للجيش والا بيقتلوهم وبيهدموا دورهم.. ثلاث شباب، مساكين، كان أهلهم بسطا واحد منهم من دار الحجار.. إجوا لعند أهاليهم في الليل، قاموا سلموهم للجيش، بعد أكم من ساعه جابوهم جثث.. وأعطوهم اياهم يدفنوهم.. الاهالي تمردوا على الجيش.. وطلبوا الصليب الاحمر، إجا مندوب عن الصليب الاحمر يحقق في الحادث.. ومعه نائب الحاكم العسكري اسمه" نسيم"، سألني المندوب: كيف صار؟ حكيت له كل شي..

قال نسيم: كيف بتحرض على الجيش.. وتقول قطع روسهم..

قلت له: اللي بيقطع روس الناس هذا مجرم وما بيحلم بالخير لحد.. لازم العالم يعرف..

قوافل النازحين خرجت إلى غزة.. من الرمله، من المجدل، من اللد، من سدود، لم يكن البقاء يحفظ السلامة.. في بيوتهم دخلوا عليهم وقتلوهم وعلى الطريق كانوا ينتظروهم، قتلوا العشرات في اثناء تسللهم إلى وطنهم.. الشيخ يعرف اسماء الكثيرين.. مسجلة في المفكرة.. يطويها كي يحكي حكاية أخرى.. ليس عن الذين ماتوا.. ليس عن الذين صمدوا.. وانما عن الذين حاولوا أن يتآمروا..

تشيشيك

تشيشيك، كان نائب الحاكم في المجدل، هو خلص على الناس اللي بقوا ورفضوا يتركوا بلدهم، حاول يمسك وجهاء العائلات ويدفع لهم ليرات فلسطينيه، نجح مع أكم واحد زنكيل من هاللي عملوا حالهم على رأس الوطنية. . أما الفقرا فظلوا متمسكين بتراب أرضهم. . يوم دخل البلد وحذر الناس وقال لهم أنه الجيش احتل البلد وكل واحد بيبقى فيها على مسؤوليته، واحد من هالزعما التيوس فكر يكسب رضا تشيشيك فدعاه على حفلة غدا وذبح له خروف ومد سفرة تطعم بلد. . الأدون. . اتهمه أنه ذبح بدون رخصه وهدده بالحبس. . إذا ما رحل عن بلده. . في نفس الليله، وصلت سيارات جيش وحملته مع عياله وأولاده وكبوه في غزه. . وصاروا يحملوا في الناس ويكبوهم. . يجمعوهم ليصيروا حمل سياره ويكبوهم على الحدود. . ويطلقوا النار عليهم. جمعه سليم كان ختيار، مسكين، فقير ما له حد في هالدنيا. . حملوه وكبوه وقتلوه. على نقطة في المجدل كان مقام للحسين. . لما دخلوا البلد أخذوا جلال القبر، حرام أخضر مغطي الضريح، لبسوه على حمار وداروا بشوارع البلد. . نسفوا البلد في الطيارات

رضيع

هل ترى ذلك الجدار ؟ كان ذلك في حزيران، أشعة الشمس كانت تلسع، أمرونا بالخروج من بيوتنا والوصول إلى الجامع، اقتربت من الجدار، على الارض كانت امرأة في الثلاثينات من عمرها، فلاحة

بدوية، ثلاث رصاصات مزقت صدرها، وعند ذراعها اليمنى استلقى طفل في السابعة، كان الدم يغطي وجهه وقد سال على ذراعها، وعلى خاصرتها طفلها الثاني، في الثالثة من عمره، لم تتحرك الام، لم يتحرك احد من الطفلين، تقدمت وأمسكت بكتف الطفل الصغير الذي اغتسل وجهه بدم امه النازف . . أدرت وجهه، همس : ما . . ما . . ما . . ثلاث مرات وأطبق جفنيه حدّق بي جندي صوّب بندقيته وأمرني بأن أدخل الجامع . .

مجزرة

دخلوا بلدنا، في يوم حار، حط البيضه على الرمل بتطلع مسلوقه بعد خمس دقائق، كان معهم ثلاث أربع مصفحات . . صاروا يقوسوا في الشوارع . . أهالي البلد تجمعوا في دورهم وكثير من الناس دخلوا الجوامع والكنايس . . فقدنا الجيش الاردني ما شفنا ولا واحد . . قفلوا على حالهم في المركز وما طلع لهم صوت . . اليهود أخذوا الريس سيمون ومبروك حسونه وطاهر حماد . . حمّلوهم اعلام بيضا . . وأمروهم يتفاوضوا مع الاردنيين علشان يسلموا البلد . . وما يقاوموا . . شوف هالحكي اللي مثل علاك الزبل . . الحاصلو . . لما وصلوا المركز، الجيش الاردني طخ على الشيخ حماد . . وقع مجروح . . أخوانا راحوا يجيبوه . . ضربوا مرة ثانية انقتل مبروك حسونه . . ساعتها دخل جيش البلماح البيوت وصاروا يطلعوا في الناس ويقولوا لهم :" يالله على عبدالله . . يالله على عبدالله ".

انتشر جنود البلماح في أزقة القرية . . وتمركزت مصفحاتهم في الساحات العامة . . كان الرصاص يرشق نحو كل شيء . . هنا وهناك تفتح امرأة الشباك لتطل على الشارع . . فيرشقونها برذاذ من الرصاص . . تسقط هي أو يسقط الشباك . . هنا وهناك تخرج طفلة تبحث عن أخيها الذي ترك البيت . . تسقط هي أو يسقط أخوها الطفل . . أو الاثنان معا . . يسد الباب . . يحكم غلقه بخشبة عريضة . . ثلاثة جنود يقفون ورشاشاتهم تزفر الموت . . أحدهم يلبطه برجله . . لا يفتح في المرة الاولى . . يلبطه ثانية . . في الثالثة يلبطه بكتفه فيسقط الباب . . ويلقي بقنبلة في ساحة الدار . . يدخل أو لا يدخل . . من بقي في الداخل كان عليه اما ان يموت في ارض البيت . . واما ان يموت في الزقاق المؤدي إلى جامع دهمش . .

" في ساحة الجامع ، واحد من دار هيرون ، رمى قنبلة على الجنود ، اللي تجمعوا ليحشروا الناس في قلب الجامع ، انقتل أكم جندي منهم ، شوي والاّ جندي ، حمل رشاش ووقف على باب الجامع وصار يرش في الناس . . طيخ . . طاخ . . طيخ . . طاخ شفتها في عيني . . قتلوا **65** واحد . . غير الناس اللي انجرحوا . . جثثهم غطت ارض الجامع . . تركوهم سبع أيام في الجامع حتى الناس تشوف وترتعب . . بحجة أنهم عم يبحثوا عن واحد يقرأ عليهم الفاتحه . . جابوا واحد من دار الزين يقرأ الفاتحه وأمرونا نحمل الجثث . . بس شو نحمل حتى نحمل . . تمسك الواحد في ذراعه ، اللحم يفتفت في ايدك . . والريحه بتعمي البصار . . قررنا نحرقهم . حرقنا الجثث في ارض الجامع . .

الأخ

إحنا الشباب أخذونا للمعتقل في" جليل " . . بقينا حوالي سبع أشهر . . كل الشباب من جيل **15** إلى **45** اعتقلوهم . . . والختياريه والنسوان والاطفال اللي بقوا في البلد . . يا اما قتلوهم ، يا اما شرّدوهم : على طريق الجبال ، دخلوا على بيت من دار حنحن وأمروهم يتركوه . . أمين حنحن كان شاب في عمر الورد ، وحداني بين ثلاث خيات ، أخته ماريا كانت تحبه كثير . . شافته بينقتل بين ايديها . . بكت . . بكت . . بكت . . وفقعت عليه . . ماتت فوق راسه . . صبيه ما طبقت العشرين . . في المرة الاولى لما مسكونا . . كنت في البيت مع أهلي وأولاد عمي . . دخلوا علينا وأمرونا نترك البيت . . أمي كانت عجوز . . وخالتي كانت عجوز . . ما قدرنا ناخذهم معنا . . قلنا نتركهم للقضاء والقدر . . مصيرنا مش راح يكون أحسن من مصيرهم . . بعد جمعه رجعنا عليهم كانوا مفحمين من العطش . . والجوع . . ويعيطوا مثل الاولاد .

في هاك الايام ، ما كنت تسأل حالك شو أريح طريق تعيش ، كنت تسأل شو أريح طريق تموت . . حولوا البلد لمصيدة كيف ما تحركت الموت قدّامك . . والناس اللي رموهم في الجبال عشرات منهم ماتوا على الطريق من الجوع والعطش . . ما سمحوا لهم يحملوا معهم شي . . لا خبز ياكلوا ولا مي يشربوا . . وياما أطفال فحمت بين ايدين امهاتهم . .

ألبنت

كان لنا جيران

بلاش نذكر اسامي

الحرمه بعدها طيبه

والبنت بعدها طيبه

وأبوها المسكين ، يمكن عايش يمكن مات

دخلوا عليه وسحبوه

ومن يومها ما عرفنا شو صار فيه

الحرمه كان عمرها يا دوب خمسه وعشرين ، يا دوب ثلاثين دخلوا عليها خمس جنود

مزقوا ثيابها ، والبنت تطّلع عليهم

اغتصبوها واحد ورا واحد

وبعد ما صار اللي صار ، سحبها جندي لساحة الجامع ، والبنت بقيت في البيت تصرخ وتبكي

نادانا جندي وقال : تعالوا خذوا البنت

صرنا نبحث عن أمها . وجدناها مع الناس .

أعطيناها البنت . كانت دموعها تغسل وجهها .

ألقنبلة

هكذا أعلنوا علينا الحرب، هكذا بدأت في الرمله، بعد قرار التقسيم بأسبوعين ثلاثه، في حينه أخذنا ندرك حجم المصيبه التي نتعرّض اليها، نفتح على الاخبار، فيأتينا صوت العروبه: سنحرر فلسطين، نفتح على لندن فترهف اسماعنا أخبار انتصارات أبو حنيك، نفتح شبابيك البيوت، نطل على الشارع، هدوء مشوب بالتوتر، تمر سيارة عسكرية لا نعرف من يسوقها، نقول: كل عمرنا جيران، يدخلوا على بيوتنا وندخل على بيوتهم، نشتغل في أراضيهم ويشتروا من دكاكينا، نحكي لغتهم ويحكوا لغتنا، أصحاب، اولاد عم، وبقينا على هالحال لحد ما يوم، باذكره مثل ما باذكر شو تعشيت مبارح، في يوم من ايام الاربعاء في آذار **1948**، دخل الرمله واحد بسبة أنه عربي لابس لباس عرب، وضع غرض عند بياع خضره، مسكين بياع الخضره، كان إلُه الله ورسوله، ختياري بسيط، حمل الغرض ووضعه في العرباي، اعتبرها أمانه، بعد دقائق انفجر" الغرض "، السوق كان يغص بالناس، مين ممكن يكون في السوق، هالنسوان والختياريه، اللي جاي تشتري خضرة لاولادها. واللي واقف وراء البسطه يصيح: ريحاوي يا موز، يافاوي يا برتقال. انقتل حوالي **25** انسان. . القنبله حفرت في الارض متر مربّع، لحم الناس كان ملزق على الحيطان، أنا . . هالعبد اللي قدّامك . . قبّعت اللحم بإيدي عن حيطان الدور . . يومها كنت راكب الحمار وجاي من البياره . . شفت الناس تركض في الساحه مش عارفه وين تروح، النسوان تفتش عن اولادها، والاطفال الصغار بيصرخوا

وينادوا امهاتهم . . واحد رايح ، واحد جاي . . وشقف اللحم ونقط الدم ، معلّمه على الحيطان . . وما بتعرف هاليد لمين وهالقدم لمين . . بيّاع الخضره مسكين عرفوه من جزمته . . طارت عنه عشره عشرين متر . . وهيك بدأوا الحرب " .

انتظار

زاوية الطريق التي ينتصب عليها بنك ديسكونت ، هي مدخل الطريق التي تمتد بين البيوت في"غيتو" العرب ، الان . أحيانا ، يهيأ اليك أنك تدخل مخيم لاجئين ، أحيانا يهيأ اليك أن هؤلاء الناس / الادميين / البشر ، يعيشون على هذه البقعة ، ينتظرون شيئا ما ، أو ينتظرهم شيء ما ، هناك من يهيأ اليه أنهم لن يبقوا على هذه الارض ، ووجودهم هناك هو قضية وقت ، ليس الاّ ، تدخل ، تتعفر قدماك بالرمل ، تنظر إلى مئذنة الجامع وتسأل : من يصدّق ؟ هنا . . كان يعيش أكثر من **18** الف عربي . هذه سكنة الجمل ، حارة صغيرة في الضاحية ، اليوم هي الحارة الوحيدة التي بقيت للعرب ، على الطرف الآخر سكنة حجازي ، عائلة مغربية تسكن في الطابق الثاني من أحد البيوت ، الاب عامل ، الام ربة بيت ، الابن الاكبر جندي ، والابن الاصغر في الصف الاول ، والبنت الوسطى من يعرف ؟ ربما جنديه وربما عاهرة في شوارع تل ابيب أو أزقة الرمله المعتمة ، عائلة تونسية ، عائلة بولونية . . من المانيا ، فرنسا ، المكسيك ، كوستاريكا ، من يعرف ؟

هنا كـانت سكنة الوهاب . نقطة . هل نبـدأ" سطر جـديد" ؟ هل نفـتح صفحة جديدة ؟ سكنة زبانه ، فانوس ، حارة النصاره ، حارة الجمّال ، حوش المصري ، المارستان ، الكافوري ، الحنه ، الزحاقيه ، حارة السوق ، سكنة المحص ، سجّل يا عمّي ، اللي ساكنين خلف الحدود بيعرفوها شبر بشبر ، وبيت بيت ، طمئنهم أنا إحنا هون ما نسينا حارات الوطن ، وراح نسجّله للعايش واللي راح ييجي من بعدنا . .

صرير البوابه الحديدية أيقظ الشيخ مشقق الوجه الذي نتحدث عنه . في غرفة دافئة استلقى على سرير نثر عليه غطاءا أزرق ، اعتدل واسند ظهره إلى جدار السرير الحديدي ، مد يده ليصافحنا ، كانت دافئة وطرية كيد طفل صغير ، كأنه لم يشقَ في حياته ولم يتعب ، يحب أن يحدّث عن أيام زمان ، عندما يحس باقتراب أجله ، ينادي أولاده ويبدأ الحكاية من أولها ، لم يبق ما يورثه سوى هذه" الخشه" كما يسميها ، أخذوا البياره والدار ، ولو استطاعوا كانوا رموني أنا وأولادي وعيالي في البحر ، أو في جهنم الحمرا ، ما حسّينا الأبعد ما غصينا ، أجلّ السامعين ، رحنا (. . .) في رجمة ، اسمح لي احكي كلمه بطاله ، علقنا في سفاحين من جهة وزعامه فارطه من جهة ثانيه ، والانجليز يكبوا الزيت عالنار .

قومي

بدّي احكي هالحكاي : كان في بلدنا واحد بلاش نذكر اسماء ، تاجر بقر وعامل حاله قومي قّد الدنيا ، لما صارت المعارك مع اليهود جمع المجاهدين في البلد وقال لهم : اليهود رايحين ييجوا بلبس انجليزي

ويسرقوا بنك الامه. حواهم على مدخل البلد الشرقي، كل الناس تجمعت هناك عند الحدود، ومن الجهه الثانيه هو راح يبيع بقر لليهود، بعد ساعتين ثلاث، وبعد ما انهى المعامله، رجع للمجاهدين وقال لهم: الجماعه عرفوا بالقضيه ومش راح ييجوا ارجعوا لبيوتكم. كان كل شي خالص، بعدها صارت معارك عن طريق بير يعقوب، عند النبي صالح، كان يوم أحد، كنت عند الاستقامات مع ثلاث أولاد، وهناك واحد مجاهد اسمه ضيف الله حامل باوردة صواري، اجوا اليهود ساحبين على الكرم، قلنا له: اضرب يا ضيف الله، قوّس طلق! صار يركز حطته شمال ويمين، ويصّوب، ويضرب، لكنه ما أصاب حد. فاتوا بين البيوت، ولبسوا زي العرب، كلهم من جيرانا، بيعرفونا واحد، واحد، صاروا ينادوا: أبو أحمد.. يطلع أبو أحمد.. يقوسوه.. ينادوا أبو فلان.. يطلع أبو فلان.. يقوّسوه.. يومها انقتل واحد اسمه أحمد المصري صاحب مطعم في شارع يافا القدس، وسليمان أبو غزاله وأبو الديب الفرخ.. وغيرهم كثار راحت عن بالي اسماءهم.

غليان

التجربة التي تحملها الشقوق العريضة في وجه الشيخ، جعلته واضحا تماما، يعرف كل شيء، يفهم كل شيء، " خسارة اللي عرفنا الحقيقه بس بعد كارثه مثل هالكارثه، والله يا عمّي كانوا ييجوا شباب، يفوتوا على البيوت ويحذروا الناس من المجازر والترحيل. كنا نقول: " لا تردوا عليهم، هاي شيوعيه، ما بيعرفوا الله وبيتعاونوا مع اليهود ". الانجليز

لعبوا دور عاطل كثير، يتعاونوا مع عبدالله من جهه ومن جهة ثانية يقدموا كل المساعده للجماعه، حتى في الرمله اللي ما تأثرت في البدايه من الحوادث هم أثاروا كل شي، الانجليز أولاد الحرام، يوم من الايام قتلوا ثلاث شباب عرب على طريق بيت نبالا، جابوهم على غرفة الاموات في الشارع الرئيسي، ووضعوهم هناك علشان الناس تفور دمها، بعد أكم ساعه شافوا أنه الناس ما تأثرت، أطلعوهم ورموهم في الشارع الرئيسي عند مدخل السوق مكشوفين بالزلط والرصاص مبيّن على اجسادهم.. وصاروا يقولوا: اليهود قتلوهم..

هذا عمل غليان في البلد، وصارت اشتباكات، أهل الرمله سلاحهم خفيف وعدد المجاهدين قليل، ولما بدأ الهجوم على البلد، أبو حنيك بعث لنا كتيبة صغيرة **18** جندي وأربع مصفحات كاوشوك.. صارت هجمة على سكنة فانوس.. قاومنا.. ما استطاعوا يدخلوا البلد لكنهم نجحوا في هدم جناح كبير من قيادة حسن سلامه، اللي كانت ملجأ الايتام، خف الهجوم أكم من يوم وفي شهر رمضان، حاصرونا من كل الجهات، وقطعوا عنا الاكل والشرب، بعدها صارت قواتهم تزحف علينا، يوم السبت احتلوا اللد، في الليل تشكّل وفد من زعماء البلد، بينهم ظافر سلامه، ركبوا سياره وراحوا على كيبوتس نعانه وهناك أعلنوا التسليم.. في نفس الليله جنود عبدالله بدأوا ينسحبوا.. شفناهم خارجين من بين البيوت، جيش اسرائيل فتح لهم الطريق من جهة الشرق ليطلعوا على الضفه.. تركوا البلد وهم يضحكوا على الناس ويقولوا: "النجده جاي، النجده جاي"، الصبح مع طلوع الفجر دخل الجيش الاسرائيلي.. كنا منهكين من الجوع والعطش.. دخلوا

يقوّسوا في الشوارع . . مسكين زكريا الحلاق كان ماشي في الشارع، طخوه وقتلوه . . وعلي البيروتي اتهموه بقتل اثنين . . مسكوه وقتلوه على المقبره . . على الطريق كان واحد، راح اسمه عن بالي، راجع على حمار ومعه صندوق بندوره . . قوّسوه . .

ألمثقفون

تفرّق الجنود بين المنازل، كل يحمل رشاشا بيده وعلى خاصرتيه حزام يحمل القنابل، على الساحات العامة انتصبت مصفحات، الجندي يصل عند مدخل المنزل يضرب الباب بقدمه ويبدأ بعملية التطهير . . . " أخذوا أوامر أو ما أخذوا أوامر، هكذا فعلوا معنا، لم نعرف الجندي من الضابط، كانوا يلبسون نفس اللباس، ويحملون نفس الاسلحة، جمّعوا الاهالي في الجوامع والكنائس وسحبوا الرجال من بيوتهم واحدا واحدا وجمعوهم في مركز البوليس وفي المقبرة، بعد ساعات وصلت سيارات شحن كبيرة وأخذت تنقلهم إلى معتقل" جليل" قرب قرية سيدنا علي . . حشروهم في غرف صغيرة و . . " أكلنا النمل يا عمّي، في عز الصيف صاروا يطعمونا فسيخ (سمك مالح) وقطعوا عنا المي . . كنّا نفّحم من العطش . . ولما يفتحوا حنفية المي . . كنا نركض في الساحه لنشرب . . كانوا يقوّسوا علينا . . يا ويلك ان رحت تشرب ويا ويلك ان بقيت عطشان . . أهانونا وداسوا على كرامتنا تسع أشهر طويله . . حاولوا يفرقوا بين مسلم ومسيحي . . ما نجحوا . . صاروا يقسمونا مثقفين وعمّال . . بس أهانوا المثقفين قبل العمال . . كانوا يكرهوهم كره

العمى . . يوم جمعونا في ساحة المعتقل ، وقف ضابط وسأل : مين فيكم مثقف ؟ يطلع لهون ! كان أكم واحد عاملين حالهم مثقفين ومتعلمين فكروا أنهم بدهم يطلقوا سراحهم أو يطلعوهم للشغل ، وقفوا وقالوا : أنا وأنا وأنا . . حوالي **15** واحد . ناداهم الضابط وقالهم : أنت وأنت وأنت . . احملوا سطل الخره وروحوا كبّوه . . هيك بهاي اللغه يا عمّي . . حملوا جرادل الوسخ وراحوا كبوها . . "

جثث

في حزيران **1948** أعلنوها لجميع الاهالي : السجن أو النزوح إلى عبدالله ، واختيار الامكانية الاولى لم يكن يعني البقاء على قيد الحياه ، أحيانا كثيرة كان يعني الموت ، في السجن أو في الطريق إلى الجامع ، وكان هناك من صدّق هذه الفريه" قضية أيام وينتهي كل شيئ ، احتموا عند عبدالله " . وكان هناك من دبّ فيه الرعب ، فترك كل شيئ وهرب ، وكان هناك الكثيرون ممن رفضوا هذا وذاك فآثروا البقاء . . وهذا ما طيّر صواب الجيش . . فوصلت سيارات وحملت الناس والقت بهم في ارض القباب . . أكثر من خسين سياره كانت تنقل النساء والاطفال والشيوخ . . وتلقي بهم في الجبال عند حدود الضفة الشرقية . . حتى أنهم أرغموهم أن يرحلوا بدون أثاث وبدون طعام أو شراب . . تاهوا في الجبال والوديان الوعره . . سقط منهم على الطريق كثيرون ممن لا يعرفهم الشيخ مشقق الوجه الذي نتحدث عنه . . أكثرهم من العجّز الذين لم يصمدوا تحت وطأة حرارة الجبال الحارقة والعطش والجوع . .

بقي في الرمله عشرون إلى خمس وعشرين عائله . ." باذكر في يوم من الايام جاء اثنين عسكر على زوجة أخوي وحاولوا يغتصبوها ، صارت تصرخ وتصيح ، فهربوا وما نجحوا يمسّوا بعرضها ، صاروا كل يوم يفرضوا منع تجوّل ، ويطلعوا الرجال ويقعدوهم يوم كامل في الشمس ، كل واحد يجبروه يترك بيته مفتوح . . بعد ما يطقلوا سبيلنا . . نرجع نلاقي البيوت فارغه من الاثاث . . عملوا المستحيل حتى يطهروا الرمله من العرب . . الطريق بين اللد والرمله كانت مفروشه بالجثث . . كيف كنت تمشي تصطدم بجثة على الارض . صعب تعرف مين انقتل ومين بقي حي . . الجثث عفّنت في الشوارع وما كنت تقدر تعرف مين هذا ومين هذاك . .

بعد الاحتلال . . مساكين طفلين ركبوا حمار وراحوا ينقبوا خضره . . الجيش قبض عليهم في اراضيهم . . رموهم في البير . . الحمار رجع لوحده . . والاولاد ما عادوا لبيوتهم . .

عيسى كان وحداني لأمه . . راحت تبكي عند الحاكم . . وصرنا نفتش عليهم . . بعد **15** يوم وجدنا جثثهم في بير مهجور . . عند دفنهم ما عرفنا مين عيسى ومين وهّاب . عرفناهم من صنادلهم . . عشر سنين و **11** سنه . .

يافا . .

صحراء الجزيرة العربية لم تحمل قدميه ، لم يلسعه الرمل كما لسعته نيران الشوق / الغربة / الحزن التي اتقدت في صدره أكثر من ثلاثين

عاما، شيخ في السبعينات، أنقول : مشقق الوجه ؟ لا حاجة، وكيف يمكن ان يكون وجه شيخ لم يترك أرضا عربية الاّ ووطأتها قدماه، أو حتى وإن أمضى آخر سني حياته في" ذنابه "، القرية الحالمة على طريق طولكرم. فلن يكون وجهه كصفيحة يلمع عليها نور الشمس، كما تنعكس الاشعة على ماء البحر عند شاطئ يافا. .

ملعون يا زمن الاسود عالابيض، يا زمن البغض، الكره، العنف،

السته على الستين،

الشر الحاكم مملكة العدل،

الخوف القاصم ظهر البطل،

" العطف" الذابح عنق الطفل،

" الشرع" الماسخ وجه الحق،

ملعون، وفي قلب الشيخ أكثر من جرح، وفي صدر الشيخ أكثر من أمل. .

روبين

" تركت يافا أركض خلف دابة تحمل طفلين وخرجين محملين ببعض المتاع. . زاد الرحيل. . وها أنا أعود اليها، تحملني هذه السيارة. . "

لم يدخل المدينة القريبة قبل أن يصطدم بسجن" كفار يونا" يترك الارض العربية، يخيّل اليه أن الحد الفاصل شريط فولاذي، أو ربما مصفحة مدفعها مصوّب إلى قلب المدينة العربية، أو ثكنة صغيرة تغطي

مدخلها بعض أكياس من الرمل، وجندي يصوّب بندقيته وعلى رأسه خوذة فولاذية ايضا، وفي القلب نار تشتعل كرها عند هذا، شوقا عند ذاك.

غريب، أمر هذا الوطن،

غريب، أمر ذلك الشعب،

هذا" عائد "، ذلك العائد،

والله يا زمن الترلّلي،

اغمض هاتين العينين، يا شيخ الفقر، وشيخ الترحال، وشيخ الحزن، وشيخ العوده.

ادخل يافا معصوب العينين، لكن ليس جريح القلب. حين تنفس رائحة البحر، المشبعة بالرطوبة، الزيت، الرمل. فتح عينيه، كان عند المدخل الجنوبي، " هم دخلوها من الشمال، أدخلها من القبل "، قال وأزاح طرف الحطة عن فمه ليملأ رئتيه برطوبة البحر، وترجّل، يبدأ الرحلة في حي الجبليه، لكن الانظار مصوبة نحو القبل الشرقي. . كروم روبين. . " لم تكن امرأة في فلسطين الا وقالت لزوجها : يا بتروبني، يا بتطلقني. . " حتى المرحومه زوجته كانت تضع هذا الشرط في أيام الموسم وفي أيام الشتاء الماطرة. . مقام النبي روبين. . من كانت تنتظر مولودا ذكرا يأتي على رأس سبع بنات. . تقصد روبين. . روبين يستجيب، وسبحان الله. كان يعطف علينا، لكنهم حاصروه. بعد الحصيده في موسم الصيف، كانت الارض حول المقام تتحول اى مخيم

مفروش بالخيم الصغيرة والكبيرة، كل واحدة على قد الحال، نقضي ثلاثة أشهر، نأكل، نشرب، نلعب، نفرح، لا هم ولا ما يحزنون". .

يلقي عليه نظرة أخيرة، مئذنة ترتفع بعض الامتار، منطقة مغلقة، مجموعة من الجنود، تتحرك في ساحة جامع روبين، من يعرف ماذا يفعلون : " يا بتروبني، يا بتطلقني "، الافضل يا شيخ أن تنظر في الاتجاه الآخر، ليس هذا فقط ما يجرح القلب. . اقطع حي الجبليه. . في الطريق المؤدية إلى ساحة الساعه. . حي العجمي، حي النزهه، المنشيه، قبل حوالي ثلاثين عاما، كان يسكنها أكثر من **120** الف، يتكلمون العربية بطلاقة، لا بأس، ان وجد بينهم من يحسن مخاطبة الانجليز، أو يعرف كلمة" شالوم "، لكن يتكلم بطلاقة، بطلاقة. بطلاقة

مقبرة

تسقط الشمس، يعتم الشفق الذي كان يتلألأ بعيدا عن الشاطئ، يختفي الحد الفاصل بين البحر وبين السماء التي تميل إلى السواد، يختفي الحد الفاصل بين حدود مصنع البيره. . وشارع المقابر. . المصنع لم يعد قائما. . المقابر ما زال يكتنفها هدوء. . سكينة الاموات، لكن حزن الاحياء، والسور الكبير الذي يمتد مع الطريق ما زال منتصبا منذ تلك الايام. . مقبرة الانجليز، الروم، اللاتين، الموارنه، وقبور المسلمين المشرفة على البحر، تلقي عليها نظرة، تقلب حجارتها لتعرف اسما واحدا على الاقل. . وقد تعثر على الاحرف العربية مبعثرة. . من يعرف كيف هدمت هذه القبور ؟

"كنا، يا عمي، لما ندخل المقبرة لندفن أمواتنا، ولما نبدأ بقراءة الفاتحة، تسقط علينا القنابل من المتراس في مصنع البيره المشرف على يافا.. هذا المصنع خلق لنا الكثير من المشاكل.. يوميا كانوا يقصفوا بيوتنا وما نعرف كيف نرد عليهم، بالمدفع هدموها.. وبعدها مثل ما تركناها.. يافا كانت كلها عربيه بأحيائها وأمواتها.. وعلى بقعة صغيرة عشرين بعشرين كان في مقبرة لليهود.. شوف شو عاملين فيها.. سيّجوها وعليها حارس وناطور.. أي هو أمواتهم أغلى من أمواتنا ؟"

كنيس

شيخنا الذي نتحدث عنه، لا تعرف الدموع إلى وجنتيه سبيلا.. يحصرها حين يشدّ عضلات جفنيه فينكشف عمق الشقوق التي ترتسم على جبهته العريضة، والاخرى التي تمتد من طرف العين وحتى السالف وحتى الفك.. وحتى العنق وحتى القلب.. واذا ما انفرجت أساريره وارتخت عضلات وجهه.. ينفث الهواء فيفرغ رئتيه ويواصل السير.. واذا ما وقف عند الجامع الذي تحوّل بقدرة قادر الى" بيت كنيست" (كنيس) يلقي بنظراته على الارض، ويتوقف قليلا يمعن النظر في الارض لكن" في اللي بيغيّر وما بيتغيّر".

وحين كان واقفا، ويا لسخرية هذا القدر، جاء رجل يهرول في اتجاه الكنيس / الجامع، يضع قبعة على رأسه، يحمل متاعا أسود بيده اليمنى، وتغطي عينيه نظارات طبية ويبدو وفي الستينات من عمره.. توقف الرجل الغريب، غريب حقا..

- شالوم !!

- لم يرد الشيخ . . قلنا : " شالوم"

- الغريب لم يلتفت إلى الشيخ . . وان نظر اليه باستغراب لكنه نظر الينا وكأنه يستجدي . .

-" إفشار لهشليم ات همنيان ؟ " . . قالها بالعبرية وابتسم كأنه يستجدي . .

- سألنا الشيخ : ماذا يطلب منكم ؟

- يريدنا كمالة عدد للصلاه . .

- لم يفهم الشيخ . . قلنا له : لكي تتم الصلاه يجب أن يكون عدد المصلين عشرة أنفار على الاقل . . وهذه مشكلة هذا الكنيس : لا يجدون في هذا الحي عشرة مصلين . .

وقف الرجل الغريب ينتظر استجابتنا ، حرّك الشيخ رأسه كأنه يريد أن يقول شيئا لهذا الخواجه ، فهمنا ماذا أراد ، وفهم هو اننا فهمنا ، فلم ينبس ببنت شفة ، ثم قال لنا : قولوا له انصرف . . وظل يحدّق بجدران الجامع المنتصبة بحجارتها الحمراء . . وتابع السير وتابعناه إلى جانبه . .

ميشيل

حين يحدّث عن تلك الايام ، يرسم خارطة لمدينة تدعى يافا ، من مستشفى الكرنتينا ومبنى اذاعة الشرق الادنى . . وحتى شارع السكسك . . والسوق . . سوق الدير . . وشارع" بسترس " . . وسوق

الصلايمي . . وسوق البلابسه . . واللحامين . . حتى شارع جمال باشا . . يسأل : أين هذا الزقاق، وأين سوق كذا . . وسوق كذا . . تقول له : اليوم يسمى" يافت " . . يضحك . . وذاك يسمّى" كيدم " . . يضحك . . وهذا شارع" شيشيم " . . يضحك . . يضحك . . تركها تغص بالناس . . بالحياه . . تنزل البضاعة في محطة المنشية . . سيتهافتون عليها . . تنزل في الميناء . . يختطفونها . . " احسينا بالخطر من سنة السته وثلاثين، أعلنا الاضراب ستة أشهر، بريطانيا انتهزت الفرصة وصارت تبني مينا تل أبيب، مينا يافا للعرب يصدروا بضاعة ويستوردوا بضاعة، ومينا تل أبيب لليهود ليستوردوا اسلحة، وناس يظبوهم من كل بلاد العالم ليستلموا هالبلاد . . لعبوا اللعبه واحنا مش عارفين كيف المي بتجري من تحتنا . . كان في بلدنا ضابط انجليزي يعرف كل أهل البلد، قلنا له مره ولك يا مستر اليهود اللي يتجيبوهم رايحين يستولوا على اراضينا "، ابن الحرام كان يعرف يحكي لغتنا أحسن مني ومنك، قال لي : ليش خايفين، انتم بتسموهم اولاد الميته، شايفينهم مقطعين موصلين ولا شعب في العالم قادر يحميهم . . وكان يبتسم . . ويضحك علينا بلغتنا . . معنا يحكي حكي زي العسل وللجماعة يقدّم كل خدمه . . ويمهّد لهم الارض . . ومن ثورة السته وثلاثين صاروا يصفوا بالقيادة الوطنية . . وينفخوا في بطون وعقول القيادة الرجعية ويغطوا على جرايمها . . المرحوم ميشيل متري . . كان قائد عمال ما في أثبت منه . . قتله عميل في مركز نقابة العمال العرب . . الناس كلها اشتبهت يومها باقطاعي من المثلث . . كان يتعاون مع الانجليز . . وعلشان هيك غطوا على الجريمه . . بس يا عمي المجرم ما بيسلم . . لا من صاحب الحق

ولا من صاحب الباطل.. لو تعرف ايش صار فيه.. في سنة الاحتلال استولى الجيش على أراضيه.. جابوه ليافا قال بحجة المحافظة على سلامته وحياته خوف من الانتقام.. ووعدوه بأن يرجعوه على أراضيه بعد ما يهدأ الوضع.. لكن قتله جيش اسرائيل هون في يافا.. تخلّصوا منه وأخذوا كل شبر من أرضه.. كل الناس يومها شمتت فيه.. الله لا يرده.

وعلى قبر ميشيل متري، في المقبرة اللارثوذكسيه، كانت تشمخ صورة له نصبت منذ أن دفن. في بطن هذه الارض المقدسة، " أيام الحرب" " الخواجات" كانوا يتخيّلوها زلمه في المقبرة فصاروا يقوّسوا عليها من مصنع البيره حتى خزقوها، وهدموا القبر، يمكن يا عمي بدهمش يتركوا أي ذكر لأي وطني في هالبلاد.."

ألمستر

في مطلع الاربيعنات مع حملات احتلال الارض بدأت حملات احتلال أماكن العمل، أسسوا الهستدروت لتجنيد العمال اليهود في حملات الاحتلال فزرعوا الموظفين والفنيين في كل مكان، خصوصا في معسكرات الجيش البريطاني.. كنا يا عمّي احنا ننظف الزباله ونشتغل في العمل الاسود، واليهود هم المسؤولين عنا، يعطونا أوامر، تنزل علينا من فوق. على تلة كان تدعى تلة فنسكي أقيم معسكر للجيش، كان أخي يعمل في المعسكر، يوم قال لي أطلع معي لتشتغل، أنا كنت شاب في طلعة عمري، وما عرفت امسك شغله وأثبت فيها، يومها كان

الشغل في المعسكرات أضمن شي للعرب، رحنا للمهندس الانجليزي، أعطاني ورقة وحولّني للمكتب، دخلت مع أخوي وسلمتها للموظف. كان اسمه الخواجه يعقوب، فتح الورقه.. قرأها.. ومزقها ورماها في السلّه.. وطحاني برّه.. طلعت للمهندس وقلت له : مش محترمينكم ولا محترمين ورقكم.. والله يا عمي، زعل المستر ودخل عليه وصرخ في وجهه وضربه كف طيّر الشرار من عينيه وما ترك في المكتب كرسي أو طاوله قاعدين على بعض.. المستر كان صديقنا.. قال خلال ساعتين راح أطيّره من هذا المكتب، قلت له يا مستر هو أقوى منك.. راح تطير أنت والتاج الملكي وهو يبقى على هالكرسي.. هالمعركه خَسرانه.. دبر لنا شغل في معسكر تاني.. هالبلاد مزروعة معسكرات جيش.. في الصرفند.. في بيت نبالا.. رأس العين.. القسطين.. معسكر عبد النبي.. وين ما كان بس مش في هالمعسكر.. والله بعد أكم من يوم سلّموني شغله في بناية" السي. آي. دي ".. قلت هذا أحسن محل.. الضباط كلهم انجليز وعرب.. أعطوني غرفه فتحت فيها كانتين.. أعمل قهوه وأسقي الضباط.. يوم صبحيه كانت الادارة عندي.. قال لي الضابط الانجليزي : اسقينا قهوه يا فلان.. قلت له على راسي يا مستر.. المستر كان يشربها" عصملي ".. والعرب يحبوها حلوه، بينهم ضابط خواجه اسمه شماي، لأول مرة بيشربها عندي.. قلت يا ولد اسأل الخواجه كيف بيشرب القهوه. قال : لا هي حلوه، ولا هي مرّه.." فيفتي، فيفتي ".. وعلى القهوه شوية حليب، ابتسمت وحبيت أمزح معاه.. قلت له لا حليب كثير ولا قهوه كثير.." فيفتي، فيفتي

". . كشّر وهز رأسه وما نطق ولا كلمه . . وأنا دخلت المطبخ وحضّرت القهوه حسب الطلب .

بعد يومين اجا الضابط الانجليزي والاّ هو حامل مكتوب من الخواجه شماي بيحكي ضدي أشكال وألوان . .

سألني : ليش هذا المكتوب ؟

قلت له : صدّقني الزلمه اللي كتبه ولا مرّه دخل عندي الاّ هالمره . . يظهر أما حشاش أو بدّه يزيحني من هالمطرح .

قال لي : ابق محلك . . فش حد راح يزيحك . .

بعد مده قصيره ، نسفوا العماره ، كان بيني وبين الموت أربع امتار ، جماعة" الايتسل" نسفوها حوالي الساعه 6 المساء . . كان هذا سنة السته وأربعين . . سقف الكانتين سقط على الارض . . كان لي صديق انجليزي يشتغل على التليفون راح فيها . . وانجرحوا كثار . . أنا نجيت بأعجوبه .

ومن يومها ما عرفنا يوم راحه . . كل يوم انفجار . . ولما يكون الوضع هادي كان الانجليز يحطوا مدفع وين بناية" السي . آي . دي" القديمه ويطلقوا طلقة على أبو كبير . . وطلقة على تل ابيب . . يولّع الطخ طول الليل . . مرة سألت ضابط انجليزي ، كان يشرب قهوه في الكانتين : ليش هيك بتعملوا ؟ قال لي : إذا بدّك تشتغل وتعيش لا تسأل هذا السؤال .

كنت أرجع للبيت في ساعة متأخرة، على الطريق التقي بجنود انجليز لابسين لباس عربي. أسألهم : وين كنتوا، يقولوا : نعطي سلاح للعرب.

الضباط الكبار يفرغوا بواخر اسلحة لليهود، وعلشان يضحكوا علينا يبعثوا أكم جندي مع أكم قطعة سلاح يعطوها للزعما حتى يصدقوا انها بريطانيا بتساعدهم. كله كان ضحك على الدقون. .

شبحان

أصابع الليل تسلّلت في الازقة المعتمة والخرب المهجورة يقترب الشيخ من الشاطئ، ونحن إلى جانبه، الامواج تتحطّم على الكتل الصخرية، وتتفتت شذراتها على الرمل فتتسلل ثانية إلى البحر. . حتى إذا ما أخذته قدماه إلى مدخل" كليف أوتيل "، وقف ينظر إلى البناية الشامخة يصدّق أو لا يصدّق، " فيفتي. . فيفتي" . . هنا كانت تنزل ملوك العرب. . أصرّ أن يدخل إلى الصالة ليحكي لنا عن اللقاء مع الملك عبدالله. . قلنا له : أن العمارة توشك على السقوط والافضل الاّ ندخل. . لكنه أصرّ. . وأخذنا نتسلل بحذر. . تملكنا خوف من أن تهفت أرضية الصالة الفسيحة، فنجد أنفسنا على الرمل أو تعثر علينا شرطة اسرائيل تحت الانقاض. . وزاد خوفنا" خربشة" انبعثت من احدى الغرف. . توقفنا عن الحديث والتجوال في الصالة. . وقع خطى امتزج بهمس كان يقترب منا. . ابتعدنا نحو المدخل. . ووقفنا ننتظر، اقترح أحدنا أن نخرج فورا. . وقع الخطى يقترب شيئا فشيئا. . بعد لحظات

أطل شبح توقف عند باب الغرفة المطلّة على الصالة.. ثم اختفى.. وبعد لحظات خرج الشبح.. وخرج شبح آخر.. فابتعدنا قليلا عن المدخل.. اقترب الشبحان.. رجل في الاربعينات.. وفتاة في العشرينات.. انسلا من بيننا.. دون أن ينطقا بكلمة واحدة. هالة الرعب التي سيطرت على قلوبنا أخذت تتبدد شيئا فشيئا.. وهما يختفيان في العتمة.. الفتاه تمشي خلف الرجل، تلتفت إلى الوراء وتتابع السير.. والشيخ المشقق الوجه الذي نتحدث عنه يطلب مزيدا من الشرح !!

تفكّر بمجيئك يوما..

ويخيفها أن تأتي اليها باسما كأن" عفا الله عما مضى"

العتمة التي لفت الشبحين حين التصق الواحد بالاخرى، لم تحجب عن ناظري الشيخ مشقق الوجه ، الانوار الخافتة التي تلمع عن بعيد بمحاذاة الشاطئ الرملي، حتى ركام البيوت المهدومة وأوساخ تل ابيب، التي تقذف في البحر، لم ترتفع حتى الان إلى مستوى يمكن عنده ان يحجب تلك الانوار الخافتة، أو الجلبة المنبعثة من الاحياء المأهولة، على طريق المنشية، حيث كانت تقوم دار" بخمس غرف" ولد فيها طفل صغير قبل سبعين عاما. ولما تركها على أمل أن يعود، بحث عنها فلم يجدها، ربما أنها بين الردم الذي يتكوّم على الشاطئ، ربما انها غرقت في البحر مع عشرات الناس الذين غرقوا يوم حملتهم" الشخاتير والبوابير" ولم تتمكن من حمل امتعتهم فألقوا بها في البحر.. ينظر إلى آثار البيت، يعرفه من البيوت التي كانت حوله على الحد الفاصل بين المنشية وسوق

الكرتون، الذي سكنته عائلات وصلت من اليمن على" بساط الريح "، قذفته نسمة هبت من نجران وحطت على الشاطئ.. بقدرة قادر، أو بمشيئة من فوق، دائما من فوق.

تغيّر كل شيئ من حول البيت لكن لم يختف الاثر، واذا قطع الطريق التي كان يقطعها يوميا من" الدار" الى" المحدده" في شارع الدرهلي قرب جامع السكسك.. يستطيع أن يعيش تلك الايام ولو للحظات، حتى وأن تغيرت المعالم وأصبح هذا الوجه غير ذلك، والجامع يصبح نادي شبيبة، أو ملهى كما أصبحت غرفة" الكتاب" في حي الطابيه ؟

الطابيه ؟

من يعرفها اليوم ؟ من سمع بهذا الاسم في تل ابيب التي تنتصب فنادقها على المقابر وتسهر ملاهيها في الجوامع العتيقة، " أشهد أن لا اله الا الله "، آبا. ني. بي. آبا.. وان الفيس بريسلي عبده ورسوله... أركب السيارة يا شيخ، فهذه الموسيقى التي تنبعث من الجوامع، ليست لتطرب أنت، بل ليرقص على أنغمها الشبان الذين ينتظرون يوم أن يأخذوهم للجيش، أو العائدين من منطقة أخرى، بعد أن أفرغوا فيها ما حملوه يوم أن غادرت أنت راكبا حمارا وفي الخرج بعض متاع.. وبعض زاد.. و" حملت حالك" - كما تقول - ووصلت إلى طولكرم.. ذنابه.. طوّفت من المحيط إلى الخليج.. تبحث عمّن يعيد لك ذلك البيت.. والمحددة في شارع الدرهلي.. قبل أن ينسفوه أو تعشّش فيه عائلة قدمت من بوزنان أو ماساتشوستس التي قد تعلق في ذهنك وقد تفلت وقد تبقى العائلة المعششة تفكر بمجيئك يوما ما،

ويخيفها أن تأتي اليها باسما كأن" عفا الله عما مضى ". لكن يظل يخيفها أن تأتي . . وأتيت ، مثلما كان يخيفك أن تأتي هي . وأتت . . بقدرة قادر أو بمشيئة من فوق . . دائما من فوق .

السرايا

لماذا يصعب عليك يا شيخ أن تتذكر ذلك اليوم . . تقطب جبينك ، تصطك أسنانك ، وتشد على قبضتك كأنك تبغي أن تعذب احدا . أن تمزّق وجهه بلكمة تطيّر الصواب ، وتطفئ النار المشتعلة في القلب ،" في السرايا القديمة ، يا عمي ، كان مركز أطفال ، وضعوا فيه لغم سنة ال 47 . . انقتل عشرات . . كان في شاب اسمه نمر المدهون . . عمره اقل من ثلاثين سنه . . بيجي الصبح عالمحدده يقول لي : صباح الخير يا عمي . . ! أقول له : صباح الخير يا نمر . . !

يقول : الصباح رباح ، ما باعرف ابدأ يومي قبل ما أصبّح عليك !

أقول : تعيش يا بطل . . اسمك نمر وانت نمر . .

يضحك . . ويحب يسمعها مني كل يوم . . مسكين انقتل في اللغم . . ومعه واحد من دار الدرهلّي . . وغيره كثار . . "

في الاربعة وثلاثين الانجليز ذبحوا بقرة ولفوها بكيس خيش وحملوها في" الداليجانس" (حنطور) ، وكان الدم ينقط منها . . وبعثوا ناس يقولوا : اليهود ذبحوا حرمة . . وهاي جثتها مقطعة في الكيس والدم ينقط منها . . العرب فار دمهم . . لحد ما فتحوا الكيس واكتشفوا الحقيقه لكن السمعه كانت صارت منتشره خارج يافا . . اللي شاف

الكيس ما صدّق واللي ما شاف الكيس صدّق . . كانوا يعتقلوا اليهود في الليل ويطلقوا سراحهم في احياء العرب . . أو يعتقلوا عرب ويرموهم في شارع فلورنتين في حي أبو كبير . . ليلة يطخوا على اليهود وليله يطخوا على العرب . .

في يوم جمعه من أيام السته والثلاثين . . الساعه سته ونص الصبح . . سوق الخضره كان يعج بالناس . . الانجليز كانوا مسؤولين عن الحراسة . . اجوا جماعة الايتسل وحطوا لغم في مجرى المي في مفترق ثلاث شوارع . . يومها كنت رايح للمحدده . . قطعت سبعين ثمانين متر . . انفجر اللغم . . انقتل مش أقل من مئة واحد . . أكثرهم من النسوان والاولاد والبياعين . . من يومها ما وقفت المناوشات . . وزرع الالغام ، عشنا سنين ما عرفنا كيف كان ينتهي يومنا . . الصبح لما كنا نطلع على شغلنا نودّع اولادنا كأنا مش راجعين . . في المسا نقعد معهم ونوصيهم كأنا مش راح نقوم الصبح ومش راح نلتقي . . على هالحال بقينا عايشين سنين طويله . . الساعه بيوم . . واليوم بسنه . . والسنه بدهر . . والدهر الف عام . . كانوا يمهدوا الطريق . . ليقلّعونا من هالارض . . أو ليدفنونا واحنا طيبين . .

راجعة

مدينة في حصار . . البحر من امامكم . . والعدو من ورائكم . . كانت البواخر تنتظر . . " راجعة باذن الله " . . . " عد سالما يا ابو علي " . . " لا تسرع ، الموت اسرع " . . للاسكندريه . . احضروا الاطفال والنساء . .

لا تأخذوا معكم شيئا . . حمولة" البابور" عشره طن . . لبيروت ، طرابلس . . لجهنم الحمرا . . البواخر تنتظر وصول الزاحفين من حي المنشيه نحوا الميناء . . بعد قرار التقسيم بأيام . . بساعات . . اللغم ادّى الواجب وأكثر . . بيان رقم واحد : اليهود يبقرون بطون الحوامل . . ويشربون دم الاطفال . . هنا اذاعة الملك ، القائد العام لقواتنا المسلحة ، قاتلوهم بأظافركم ، بأسنانكم ، واسلخوا عنهم جلودهم . .

الاحياء اليهودية ، بين ليلة وضحاها ، تحوّلت إلى ثكنات عسكريه . . يطلق منها الرصاص من كل مكان . . يصطادون الناس عن السطوح . . محمد خلف . . كان يصلح سطح داره . . كان عمره **17** سنه . . كتّوه عن سطح الدار . المورتار . . تقليعه جديده . . وصلت من الغرب . . القنبله تحوّم فوق البيت . . وتهدر كالطائرة . . تسقط وتترك حفرة عميقة في الارض . . القنابل القادمة من أبو كبير لم تبق على أحد في سكنة درويش . . وتل الريش . . زحف الناس إلى الداخل . . كان هناك مسرب . . على البحر . . ومسرب آخر . . على طريق القدس . . والى يافا المحاصرة . . لم تتسرّب الا أخبار دير ياسين . . قابلوهم بعيونكم . . اسلخوا جلودهم بأظافركم . .

سقطت سلمة . . سقطت الخيريه . . بيت دجن . يازور . . سقطت وبقيتم انتم . . اما البحر ، واما الطريق الوعرية المؤدية إلى الرمله . . اللطرون . . القدس . . كان ذلك في آواخر نيسان . . لم يبق في المدينة أكثر من خمسة آلاف عربي . . كلهم من الختياريه والاطفال . . ركزوهم في غيتو العجمي . . أصبح الدخول بتصريح . . والخروج بتصريح . .

اعتقلوا كل الشباب ما فوق الخامسة عشره. . أما أن تبقى في السجن وأما أن تختار" البابور" الذي ينقلك إلى حيث تشاء. . لك الحرية أن تختار المنفى. . لك الحرية أن تختار الموت. .

" ساعتها يا عمي، فقدنا القيادة ما وجدنا حد. . لا سلمّونا أسلحه. . ولا قالوا لنا كيف نقاتل. . أحسن سلاح في ايدنا كان ماسوره نعبيها بارود. . شفيق الاصفر وأخوه من حي الجبليه كانوا يحضروا ماسورة، فقعت فيهم وقتلتهم على المحل. . انقتلوا في بيتهم. .

تركنا يافا. . وكل شي بقي على ما هو. . الدكاكين مفتوحة للرايح والجاي. . البيوت أثاثها فيها. . وذهبها فيه. . بس أهلها كانوا مودّعين. . أبوابها مشرّعه. . والضباط الحراميه يعسفوها بيت ببيت. . الاثاث يحرقوه في الشارع. . والادوات الصغيرة يحملوها ويأخذوها لبيوتهم. . دخل ضابط على بيت في حي النزهه. . . أعجبته ساعة حيط معلقة. . قال للعسكري : انزلها وامسح الغبره عنها.

قلبها : وقعت منها صرّة ذهب. رمى الساعه واخذ الصرّه.

الاموال والذهب تركناها في المخدات والفراش. . صاروا يمزقوها وينهبوها. .

شوشانا

ظلام دامس سقط على المدينة في تلك الليلة. . لم يلمح فيها سوى أنوار" اللانشات" التي ظلت تحمّل الناس. . ولم يسمع سوى هدير

وجلبة قادمة من البحر . . يافا . . تنام ليلتها الاخيره . . يافا . . تصحو في يومها الاول . الجنود ينتشرون في أزقتها . . يدخلونها بيتا بيتا . . يفرغونها من كل شيء . . المدينة تختنق . وتلفظ أنفاسها الاخيرة . . وفي الشوارع دوريات تبحث عمّن آثر الموت . . على الرحيل . . آثر الموت ؟

يقتل ويلقى بجثته في البحر ، أو في حفرة عميقة تتسع لالاف الناس . . أمسكوا شابا كان يبحث عن أخوته الصغار . . ناداه العسكري . . حاول أن يهرب . . لحق به . . وظل الكرباج يترك خطوطا حمراء على جلده . . إلى أن أدخله بيتا ذا باب كبير . . وحشر أصابعه في الصدغ . . وطرق الباب . . لم يعرف ماذا جرى فيما بعد . . أوجد أخوته الصغار ؟ ربما ؟

وربما . . كانوا يعملون بالسخرة . . يحمّلون الاثاث . . أو ينظفون الزوايا المعتمة من الجثث المعفنة . . سليم القاضي . . شغّلوه ينشل مي من المينا . . انحنى ليرفع الدلو . . جفشه العسكري في البحر . . كان يعرف يسبح . . حاول يطلع على الرصيف دعس على اصابعه . . ورماه مرّة ثانية . . كل ما حاول . . يرميه في البحر . . عن بعيد ، كان ضابط يتطلّع عليه . . نادى العسكري وقال له :

- ارفعه من المي !

ناداه واقعده جنب الدفاي ، وسأله :

- أنت اسمك سليم القاضي ؟

- نعم يا خواجه !

- عارفني مين أنا ؟

- لا يا خواجه !

- أنا فلان . . بتذكرني . . احتميت في بيتك من الانجليز، عرفتك علشان هيك انقذت حياتك . . واحده بواحده . .

حسن التلاوي كان ماشي في الشارع . . ناديت عليه :

يا حسن . . جاي دورية جيش . . اختفي أحسن ما يشغلوك بالسخره . .

وصلت دوريه . . نزلت منها جندية يمنية . .

قلت له : اهرب . .

قال : هاي شوشانا . . باعرفها . . كنت معها في الجيش الانجليزي .

قلت له : يا حسن مش راح تتعرّف عليك . .

نزلت من السياره ونادته . . صار يضحك لها : شوش . . شوشانا . . أنا فلان . .

- تعال يا حمار . . صرخت فيه . . وسحبته من كتفه . . وضربته بالباروده على ظهره . . وأطلعته على السياره : بعدها . . التقيت فيه :

- شو صار معك ؟

- بعد ما ضربتني واستكفت ، اخذوني ارفع جثث عن شط البحر . . مئات الجثث كانت مرميه / معفنه على الشط . . تمسك الزلمه من

رأسه يطلع في ايدك . . والريحه تقتل . . وهذا بتعرفه . . وهذا ما بتعرفه والضابط مغطي على مناخيره ويعطيك الاوامر بالكرباج . . يا ريتني سمعت منك . .

" يا ريتني سمعت منك " . . هذه الجمله يرددها الشيخ مشقق الوجه أكثر من ثلاثين عاما . . لكن ، " هل تنفع الندامه " ؟

وداع

يغرز نظره في البحر . . ترتفع الموجة لتتحطم على صخر المرسى . . ترجع رذاذا إلى البحر . . تتجمع . . تتحطم . . " سنّة الحياه " . . لماذا لا يهدأ هذا البحر ؟

يفتح باب السيارة . . ويقعد . . على الكرسي الامامي . . ويبدأ الرحلة من جديد . . يافا . . اليوم . . اليوم . .

اليوم . .

هدأت أعصاب الشيخ .

أومأ لنا بإشارة أن نترك المكان . كأنه هو القائد .

حين تتراخى الشمس في أحضان البحر وتتسلل نظراتها / اشعتها بين البيوت العتيقة والزقاقات الحزينة ، تتساقط ظلال كاشحة ويخيّم صمت يشقه لطم الامواج على الصخور وجدران العمارات ، فيقف الشيخ مشقق الوجه واجما يجول بنظراته متفقدا يافا القديمة / يافا الجديدة ، كالنسر ينظر اليها من فوق أحيانا ، كالطفل يودعها بعينين دامعتين أحيانا اخرى : ما بقي من العمر أكثر ما مضى . .

يواصل السير كأنه يودّع إلى غير رجعة، كأنه يترك لنا أمانة / وصية لكن ليس قبل أن يتفقدها بيتا، بيتا، حجرا، حجرا، وحين يصغي يخيل اليك أنه يستمع إلى أصوات تنبعث من ذلك الحفيف الذي يشوّش الصمت وذلك الهدير المنبعث من البحر مختلطا بجلبة المدينة الصاخبة القريبة جدا من مقبرة كبيرة، تدعى "يافو". على الشارع الطويل، وتحت ظلال شجرة وارفة تنتصب قرب السور المحيط بمدرسة حسن عرفه، وقفت مجموعة من السياح، جاءوا ! من يعرف ؟ ربما من المانيا التي كثرت فيها الاسوار والحواجز يوما ما، وربما من مدينة كانت عامرة، كانت صاخبة، لكنها اليوم أصبحت مهجورة، وبينهم وقف رجل، طويل القامة، يلبس بدلة رمادية، وتفوح منه رائحة "الافترشيف" ممتزجة بعطر النساء الفرنسي المنتشر على جانب الطريق، المنبعث من خدود السائحات اللواتي يصغين للرجل يحكي لهم عن مدرسة للعرب، عن مساواة للعرب، عن دمقراطية للعرب. .

ولم يستطع الشيخ مشقق الوجه أن يكبت ثورته، أو أن يطفئ النيران الملتهبة في صدره، ربما كان عليه أن يفعل شيئا ما لم يعرفه من قبل، أن يفعل في تلك اللحظة ما لم يقو على فعله يوم "راحت فلسطين" أو خلال كل السنين التي كان يتنقل فيها من بلد إلى بلد، من ملجأ إلى ملجأ، من صحراء إلى صحراء، فانفجر صارخا، لا تصدقوا. . لا تصدقوا. . هذا يكذب. . يكذب. . يافا. . كانت. . يافا صارت. . يافا ماتت. . يافا. . يافا. . يافا. .

توقف الرجل. . نظرت السيدات إلى شيخ. . يخطو متثاقلا. . وهو يصرخ بأعلى صوته. . وساعداه يرتجفان. . وكأنه بعينيه المتقدتين /

الناريتين، يريد احتلال قلعة صليبية، وانتصب بين المجموعة. . " انظروا ماذا فعلوا بيافا. . "

الرجل الذي يرتدي البدلة الرمادية. . وضع يده على كتفه. . وشدّه إلى الخلف. . وانفجر صارخا في وجهه: انصرف من هنا. . سأحضر لك الشرطه. . يا وقح. . يا شقفة عربي قذر. .

هدوء مشوب بالتوتر خيّم على المكان. . تجهمت وجوه السيدات اللواتي انبعثت عن خدودهن رائحة العطور الفرنسية. . هدأت أعصاب الشيخ. . أومأ لنا باشارة أن نترك المكان. . كأنه هو القائد ونحن فرقة صغيرة من جنود لا نملك سلاحا الاّ ايمان هذا الشيخ وجرحه وغضبه وحبّه لهذه الارض. . فانصرفنا.

جمال

الساحة الفسيحة على الشاطئ، والانوار الساقطة على الجدران الحجرية، شدّت انتباه الشيخ مشقق الوجه، الناري النظرات، المرتجف الاطراف، " كأننا نقترب من النهايه" همس، وأسرع الخطى، قد تكون تلك الساحة آخر محطة على الطريق من الجزيرة العربية إلى شارع "هشيشيم". . أو حي النزهه. . البيت لكاتب يسهر على مصباح خافت. . من يعرف؟ ربما أنه يكتب عن السلام والمحبة. . أو عن لاجئ هرب من قرية صغيرة على الجبال، أو عن طفلة تبحث عن والديها منذ حملتها القطارات من بوتسدام إلى سكسن هاوزن. . في البيت الثاني. . فنان "انساني جدا". . يغني لاطفال مخيم قلنديا. . هذا البيت

الثاني نفسه، كان بيت الدكتور حمدي التاجي. . اين هو الان ؟ هل اغلق عيادته وصار يغني ؟ في البيت الثالث مصمم أزياء. . الرابع حلاق سيدات. . يقص على آخر موديل. . وقف الشيخ تلتحفه الانوار المنبعثة من المصابيح الكاشفة. . سألنا أن كان بإمكانه أن يدخل ويتحدث معهم، قلنا له: هؤلاء منشغلون جدا، ولا تستطيع زيارتهم الاّ بموعد مسبق. . قال: اذن، يكفي ما شاهدناه في هذا اليوم !!

في الجانب الآخر من الطريق المؤدية إلى الانوار الكاشفة، عند مدخل أحد البيوت العتيقة وقفت مجموعة من النساء، انبعث صراخ من داخل البيت، خرجت امرأة تولول وشقت طريقها بين المجموعة فأمسكت بذراعيها امرأتان وحاولتا قيادتها إلى بيت محاذ، شاب في مقتبل العمر نزل الدرج وهو يصرخ: جمال، أخي يا حبيبي !! شو عملت فينا. . الصراخ يملأ البيت. . النساء اللواتي وقفن في الخارج، دخلن للحظات. . ثم خرجن وخلفهن مجموعة من الرجال. . يحملون جثة شاب. . في الثلاثين من عمره، تقدمت سيارة واقتربت منهم. . وضعوا الجثة فيها. . وانطلقت مسرعة. . تاركة امرأة تهوي على الارض وهي تصرخ: جمال. . ابني يا حبيبي. . جمال. . جمال. . جمال. . وتتوقف. . وتجلجل صرخاتها في الفضاء الرحب. . ورجع الصدى يصم الاذان. . والشيخ وقف حزينا مشدوها يحاول أن يقول البقية بحياتكم. . الله أعطى، الله أخذ، لكن حين سمع ماذا حدث لجمال، توقف عن التفكير، وقال يخاطبنا: " لم نترك لكم هذه البلاد لكي تفعلوا بأنفسكم ما فعل جمال بنفسه"

جمال شاب في الثلاثين من عمره، لم يتعلم في مدرسة، كتب عليه أن يكون فقيرا حين كان طفلا صغيرا. أنامله الغضة عرفت كل أصناف الخشونة والجراح، في البناء، في الكراج، في خدمة المطاعم، في خدمة البيوت. عيناه الذابلتان عرفتا كل جدران الزنازين والسجون، هناك تعلم القراءة والكتابة. يسكن مع أخوته في بيت عتيق، كبر فيه، ومعه كبر ألمه وحزنه. أراد أن يتزوج، وعد حبيبته التي تنتظر عودته ان يفتح لها بيتا، توجه إلى كل مكان، عمل ليلا ونهارا، لكن الابواب طرقت في وجهه. ظلت حبيبته تنتظر البيت وتنتظر العودة، وحين أصبح كل شيئ معتما / مسدودا / رافضا... انزوى في غرفة صغيرة على سرير بدون وسادة، بدون غطاء، وترك ورقة على الطاولة: "لم يعد اي معنى لوجودي. حبيبتي، وعدتك ولم اف بوعدي... قد نلتقي في مكان آخر غير هذا المكان... هنا لا تحملنا هذه الارض..." وأفرغ الاقراص التي ملأت العلبة الورقية، شرب كأسا من الماء؛ لتذوب الاقراص في طريقها إلى معدته. أطرافه أخذت تتراخى شيئا فشيئا... غشاوة تتسرب إلى عينيه، نقاط سوداء كثيفة تملأ الغرفة... النسمة التي تسربت من الشباك المفتوح حركت الورقة الصغيرة، ولم ينبعث من الغرفة الا حفيفها الخافت... إلى أن انطلقت صرخات النسوة...

الوصية

بين ايدينا يتهاوى الشيخ مشقق الوجه.. تسقط عكازه على الارض، فيخترق طرقها آذاننا، كأن شيئا ما توقف عن الحركة أو كأن شيئا ما يؤذن بميلاد حركة جديدة من البدء، كنا نعرف ان شيخنا لن يعيش إلى ما لا نهاية، كانت تنتظره هذه الساعة، ولم يكن ينتظرها الا حين اشرفت على القدوم، فترك اهله في ذنابه، وجاء إلى يافا يتنقل بين

بيوتها، ويحملنا ما تحمله الذاكرة، لننقلها نحن، أو لكي لا نحمل نحن مثل ما حمله هو هذه السنين الطويلة. استرخى جسده على ايدينا فوضعناه على سرير بلا وسادة وبلا غطاء.. كان قلبه ما زال ينبض.. والذبول الذي سيطر على جفنيه لم يمنعه من أن ينظر الينا، كانه يريد أن يقول شيئا..

"لا تدفنوني الاّ في يافا".

همس.. بصوت خافت وشفتين راجفتين..

"وان لم يسمحوا لكم.. فالقوا بجثتي في البحر.. ستعيدني الامواج.."

شق ضيق فقط تراءى من عينيه.. الجفاف شقق شفتيه..

"أتركها لكم.. حافظوا عليها.. لا تدفنوني قبل أن يعود آخر ابنائي، على الاقل ليحضر الجنازة.."

ودّعنا الشيخ مشقق الوجه الذي نتحدث عنه..

في غرفة صغيرة.. قبّلنا يده.. ومسحنا بأناملنا المرتعدة جبينه البارد.. لم يسمعنا حين خاطبناه:

مع السلامة أيها الجد!!

تغيب عنا، يحضر فينا هذا الوطن، نقبّل يدك، نبحث عنك، لا نجدك.. ينبعث صوت خافت / صوت صارخ.. يهزنا في أعماقنا.. يغيب بعد أن تدرك أننا.. سنعود، سنعود، مهما طالت الرحلة س..ن..عو..د..

ما نسينا.

ولدنا في الخطيئة

لماذا ولدت بعد حرب ما زالت مستمرة إلى ما لا نهاية وفيها منتصر ومهزوم ويريدونني أن أكون دائما أنا المهزوم؟

لماذا ولدت في وطن يتآكل يوما بعد يوم ويأكل أهله ساعة بعد ساعة؟

لماذا لم أولد في أثينا على الأوليمبوس فأرى معلما يتبعه تلاميذه الفقراء إلى أن يشرب كأس السم، فأتبعه معهم ولا أنتظر أربعة وعشرين قرنا؟

لماذا لم أولد هنديا أحمر يقاتل الغزاة برمحه وريش النسر وصراخه الذي يشبه عويل الذئاب؟

ميلاد

لم يتصور أهلنا عندما خططوا لمجيئنا أن مواعيدنا سترتبط بالحرب :

ولدت بعد حرب 48 .

دخلت المدرسة يوم حرب السويس .

أنهيت الثانوية في حرب حزيران .

تزوجت في حرب أكتوبر .

ولد طفلي في حرب لبنان ومات أبي في حرب الخليج .

حفيدتي سلمى ولدت في الحرب التي ما زالت مشتعلة

عبثية حسابات الولادة والتاريخ !

عبثية إلى حدود الجنون أو الموت .

لكي تكون مسالما وانسانيا ، ما عليك الا أن تتخذ قرارا صارما بالتوقف عن الانجاب تحسبا لوقوع حرب جديدة مدمرة .

كأن شهوتك وأطفالك هم جنرالات الحرب الذين يطلقون الطلقة الأولى .

رهيبة هذه الحياة التي دفعنا اليها أهلنا ، فهل نصفح لهم على هذه الخطيئة ؟

في الخطيئة

يبدو لي أننا جيل محكوم عليه بالأشغال الشاقة، سيزيفي إلى حد بعيد، منكوب حتى اشعار آخر.

ليس أمامه خيار الا أن يكون متمردا، والا كيف رفض هاجس الانتحار؟

قد لا تعني أحدا تفاصيل سيرتنا الذاتية لأننا نعيش مثل غيرنا وسنموت مثلهم.

نحن جزء من زمان ومكان هما لكل الناس، لكن لأننا ولدنا بعد الحرب الأولى فقد صرنا شهادة تاريخية.

نحن وثيقة مسودة بالحبر الأسود.

زعم الأقدمون أنهم استشهدوا من أجلنا ونزعم نحن أننا نستشهد من أجل الآتين بعدنا، ونقنع أنفسنا أن هذا هو منبت سعادتنا.

رهيبة هذه الحياة العبثية إلى حدود الجنون أو الموت.

حلقة مفرغة ليس لها بداية ولا نهاية.

دائما نحتل المركز، سيان ان أخذنا وان أعطينا، لأننا ولدنا بعد الحرب الأولى وقد حملتنا الحرب أوزارها.

حنين

يحلو لنا الادعاء أننا ولدنا بلا طفولة لندلل على بطولاتنا الخارقة، ولنضع أنفسنا خارج التاريخ، ولكن لماذا لا نذكر طفولة بريئة بدائية كنا نصنع فيها فرحنا على بيادر القمح ونمارس حريتنا في الحقول الممتدة إلى ما لا نهاية؟

كان النبع وكان البئر وكان تراب رملي يلسع أقدامنا الحافية وكنا سعداء.

كانت الريح تحمل أحلامنا وهذياننا مع عبق الزعتر وغبار الزهر.

كنا نقتفي أثر النمل الأسود فيأخذنا إلى دمار بيته ونفرح لأننا انتصرنا على النمل.

كانت طفولة عادية في زمن غير عادي، أجمل ما فيه أننا كنا قادرين على تطريز أحلامنا دون أن تطالنا يد من فوق.

فقدنا هذه الطفولة وما نفقده لن يعود

هي لن تعود الينا بل نعود نحن اليها نثقل عليها بهمومنا ونشكو لها فقد فردوسنا ونحملها أحزاننا وشقاء العمر.

سقوط

هل نحن جيل بلا ذاكرة؟

اتساءل دائما ويقسو علي السؤال ويؤنبني لاننا منشغلون حتى الموت بحاضرنا الاليم

اعرف متى ولدت، أنا مثبت رسميا في شهادة الولادة وبطاقة الهوية وكل الأوراق الثبوتية ولكنني أنا الوحيد الذي لا يذكر هذا اليوم ولا أذكر أيامي في السنة الأولى ولا الثانية ولا الثالثة، ولأنني لا أذكر هذا اليوم الذي ولدت فيه والمثبت في الأوراق الرسمية، فأستطيع أن أختار اليوم الذي أعتبره يوم ميلادي ليكون هذا الميلاد كله لي وحدي.

لا يرتبط ميلادي الثاني الا بما فعلته لنفسي وجنيت فيه على حالي وما جنى علي أحد.

ولدت في المرة الثانية، حسب تقويم ذاكرتي التعيسة، يوم سقطت عن سلم خشبي كان ارتفاعه ثلاثة أمتار ولم أمت ولم تكسر جمجمتي ولا أضلاعي، وأحاول أن أتذكر شيئا غير هذه الحادثة يسبقها ويكون أجمل منها، ولكن عبثا، فيداهمني قلق وجودي فأتساءل محبطا:

ربما تنتهي ذاكرتي بالسقوط مثلما بدأت بالسقوط.

ربما أن حياتي ستنتهي بسقوط عن سلم يرتفع ثلاثة أمتار أو عن عمارة شاهقة.

أخاف حتى اليوم من الأماكن المرتفعة وأغضب على ذاكرتي، لكن ما ان أحاول طي هذه الواقعة حتى يأتيني غيرها وأسوأ منها.

غرق

سأختار يوما آخر لولادتي من جديد.

ولدت ثالثة في البحر يوم صرت فتى في الرابعة عشرة وذهبت إلى المدينة مع أصدقائي، وليس مع والدي الذي كان يمسك بيدي ويقودني في شوارعها المكتظة.

ذهبنا إلى البحر، في يوم صيفي قائظ، إلى شاطيء لا يسكنه انس ولا جن وخلعنا لافتة خشبية كتب عليها "خطر الموت ممنوع السباحة"، وجعلنا منها ما يشبه القارب ودخلنا في عرض البحر ونحن لا نعرف إلى أين يأخذنا حتى انقلب "القارب" واذا بحوام يخطفنا ويعمل بنا العجائب في قاع البحر فيشدنا إلى أسفل ثم يرمينا إلى السطح وندور دورة كاملة كما تدور الأرض حول الشمس، ثم يأخذنا إلى ظلمة الأعماق لنرى الموت بأعيننا ولا أعرف حتى اليوم كيف أطلق سراحنا ولماذا. الأصدقاء الذين ظلوا على الشاطيء حملوا غصنا كبيرا وتقدموا نحونا فأمسكنا به وشدوا إلى ان وصلنا شاطيء الأمان.

ولدت من جديد في ذلك اليوم على الرمل بعد أن أفرغت الماء المالح من رئتي.

لا أذكر اليوم الذي ولدت فيه مرة أخرى مثلما لا أذكر أي يوم آخر أجعله يوما لبدايتي، فكيف أحتفل بأيام ميلادي؟

ألوم الذاكرة لأنها تخونني وألومها لأنها ترفض أن تخونني، ولا أعرف كيف أتعامل معها، بكثير من الحب أم بحقد أعمى؟

على كل الحالات انها ليست عبدة لي ولا تخدمني متى أشاء.

انها حرة مستقلة تمحو ما تشاء وتحفظ ما تشاء وهي على كل شيء قديرة.

لماذا ؟

لا أحتفل بيوم ميلادي الأول ولا الثاني ولا الثالث، فأي يوم أختاره ليس مدعاة للاحتفال، ولو خيرت لاخترت يوما آخر أولد فيه وعاما آخر ومكانا آخر، فما ضرني لو أنني ولدت في يوم خريفي من أيام القرن السادس قبل الميلاد، أو في تدمر أو في كنعان الكنعانيين وخراسان بلاد فارس؟

لماذا ولدت بعد حرب ما زالت مستمرة إلى ما لا نهاية وفيها منتصر ومهزوم ويريدونني أن أكون دائما أنا المهزوم؟

لماذا ولدت في وطن يتآكل يوما بعد يوم ويأكل أهله ساعة بعد ساعة؟

لماذا لم أولد في أثينا على الأوليمبوس فأرى معلما يتبعه تلاميذه الفقراء إلى أن يشرب كأس السم، فأتبعه معهم ولا أنتظر أربعة وعشرين قرنا؟

لماذا لم أولد هنديا أحمر يقاتل الغزاة برمحه وريش النسر وصراخه الذي يشبه عويل الذئاب؟

أسأل فلا يجيبني أحد، فلماذا أحتفل بيوم ميلادي؟

عبد الحسن

عبد الحسن كان قبضاي وعجز الانجليز. قرروا يصفوه.

يوم طوقوا البلد وأمروا الرجال والشباب يتجمعوا في الساحة والنسوان والآطفال يبقوا في

البيوت، الطقس كان حامي والشمس بتقلي العصفور. نقعونا في الساحة من الصبح للظهر

والكابتن شيفر قال: بدي عبد الحسن من بينكم. قلنا لبعض، لو منموت مش راح نعترف عن

عبد الحسن. حتى لو بقينا شهر على رجلينا في الحم والعطش والجوع، لو قتلونا واحد واحد

مش راح نقول مين عبد الحسن، وصمدنا.

الظهر شفنا ختيارة حاملة صرة وقربة مي وجاي للساحة، وقفها الكابتن وسألها: لوين يا

عجوز؟

قالت: ابني من الصبح في الشمس، لا أكل ولا شرب، حاملة مي وخبز لابني.

مين ابنك؟ سالها الكابتن.

- هذاك هو، واقف مع الشباب، عبد الحسن القبضاي، لا أكل ولا شرب

– قال لها ابن الحرام: روحي أعطيه!

ومشيت بين الرجال والكل يهمس لها: ارجعي! ارجعي! لكن لا حياة لمن تنادي، ما كانت شايفه حدا الا ابنها. قبل ما تناوله الصرة، الكابتن حط ايده عليه وسحبه من بينا، سحب فرد وقوسه ثلاث رصاصات في راسه، وقال لنا روحوا ادفنوه.

قسم كبير من الناس صرخ في وجهها وقال: أنت السبب في قتل ابنك، أنت قتلتيه!

وهي صارت تشهق وتصيح:

هذا ابني حبيبي، جبت له أسقيه، عطشت يما، جعت يما؟

وأمضت ما تبقى من حياتها حاملة صرة فيها ثياب عبد الحسن وقربة ماء وهي تلف من بلد إلى بلد لا تنطق الا بجملة واحدة:

يما يا حبيبي، مين قتل عبد الحسن؟

الشيخ عباس

أخشى على نفسي من الذاكرة وأخشى على ذاكرتي مما أصاب ابن بلدنا الشيخ عباس.

مات قبل ثلاثين عاما.

أذكره يلبس قمبازا مقلما ويركب على حمار أبيض ويجوب في شوارع القرية حاملا رزمة من المفاتيح ويتنقل معها من بلد إلى بلد، وعندما كنا نسأله:

ما هذه المفاتيح يا شيخ عباس؟

كان يقول :

هذه مفاتيح طياراتنا ، ولا طياره بتطير في السما الا إذا استلموا مفتاحها مني .

لم يكن الشيخ عباس غبيا ، كان ذكيا ويحب المزاح ، وفي أحد الأيام التقاه شيخ ظريف ، وكان عباس يرتدي قمبازا أبيض ويركب على حماره الأبيض ، فسأله الظريف :

"قل لي يا شيخ عباس ، من هو الحمار؟ الأبيض من فوق أم الأبيض من تحت ؟"

ولم يفكر الشيخ عباس فأجابه على الفور :

"الحمار هو الذي لا يعرف من هو الحمار" .

الشيخ عباس كان مقاتلا في صفوف الثورة ، بعد أن عمل راعيا في شبابه ، ولأنه "ضريب حجر ممتاز ويصيب نقفه بنقفه" ـ كما كان يشهد عن نفسه – فقد حملته الثورة "مترليوز" لاسقاط الطائرات البريطانية التي كانت تحوم فوق مواقع الثوار وتقصفهم .

الله يرحمه ، كان يقول :

"الله وكيلك ، كل رصاصه بطياره ، بس الانجليز عندهم طيارات قد ما عنا هسهس"

وفي الحرب مع اليهود تطوع للدفاع عن "عين غزال" القريبة من البحر ، لأنه سمع أن اليهود سيقصفونها بالطائرات من تلك الجهة فحمل

سلاحه المضاد للطائرات ومترس في القرية وظل يطلق الرصاص إلى أن نفذت الذخيرة، فترك سلاحه وراح يركض إلى القيادة في الطيرة لاحضار الفشك، ولما عاد كانت القرية قد سقطت وهدمتها الطائرات وهجرت أهلها، فدخلها بيتا بيتا وسحب المفاتيح وربطها في سلك نحاسي، وحملها معه إلى كل مكان. وفي أحد الأيام عندما كان في زيارة لأصدقائه من أيام الثورة في شفاعمرو، حلق في السماء سرب من الطائرات. انتفض الشيخ عباس وحمل رزمة المفاتيح وركب على حماره مهرولا.

"الى أين يا شيخ ؟"

سأله أصدقاؤه.

"الى البلد، هاي طيارات العدو الصهيوني، لا بد أنه طيارينا البواسل بيفتشوا عن مفاتيح الطيارات، رايح لأفتح لهم اياها علشان يكسحوا العدو"

ولكش حماره وكانت الشمس تشرف على المغيب.

بعد يومين وجدت جثته على طريق "الجناديه" التي تربط سهل مرج ابن عامر بجبال الكرمل.

كانت الجثة ممزقة والى جانبها تناثرت المفاتيح وعلى بعد أمتار كانت جثة الحمار ممزقة أيضا.

لقد أكلهما الضبع...

لا شيء

تخونني الذاكرة وأفقدها يوما بعد يوم وقد يأتي يوم أسود فأجد نفسي بلا ذاكرة، مجرد جسد يتحرك إلى لا مكان، أهيم في الشوارع المزدحمة أو في الوعور الخالية أبحث عن أرنب أسأله أين أسكن ويخاف مني الأرنب فأركض خلفه إلى أن يعثر علي صياد كان يوما ما رفيق طفولة، فأخذ الحياة على علاتها واستقى منها فرحها فصان ذاكرته، ويمسك بيدي، أنا الذي ناطح طواحين الهوا ففقد ذاكرته وصار لا شيء، تماما لا شيء، ويأخذني إلى البيت الذي ولدت فيه ويسلمني إلى أهلي ثم يعود هو إلى بيته ليحدث أهله عن شيخ فقد الذاكرة ويقول متفاخرا أمامهم:

لولاي لأكلته الضباع.

ستأكلنا الضباع ان بقينا بلا ذاكرة.. ستأكلنا الضباع.

المفتاح

صيف 1980

لا أعرف إذا جمع أحد مفاتيح الشيخ عباس التي حملها عشرين عامًا واكثر، ولماذا يجمعها الناس وقد حطمت ابوابها أو حرقت؟

صار المفتاح أغنية وأسطورة، ولماذا لا نحيك الأساطير حول مفاتيحنا الضائعة أو تلك التي ظلت في الأبواب تنتظر عودة أهلها فأكلها الصدأ

وقد صدقوا أنهم عائدون بعد أيام فتوالت الأيام والأسابيع والشهور والسنين وما عادوا.

الشيخ عباس انتبه إلى المفاتيح المنسية في الأبواب فسحبها واحدا واحدا وظلت تتراقص على خاصرته عشرين عاما إلى أن سقطت على الأرض بجانب جسده الذي مزقه الضبع ولم يجمعها أحد من بعده لأننا فقدنا الأمل.

كل الآمال العربية ضاعت مع مفاتيح الشيخ عباس، الله يرحمه ويرحم أمواتكم جميعا.

ليس هناك كالمفتاح جسم جامد يحمل المشاعر التي يحملها، فالبصمات التي تبقى عليه ولا يمحوها قانون التقادم هي رسم خفي لاحاسيس الناس الذين حملوا المفتاح واخترقوا عالمهم أو خرجوا منه، كالرسم البياني على جهاز تخطيط القلب، يسجل الغضب والحزن والفرح والسكينة، فكيف يكون المفتاح حين يحمله شاعر غادر البيت حاملاً مفتاحه وديوان شعر وشحن على ظهر قارب في البحر اقلع به من حيفا إلى عكا، ثم إلى بيروت والى.. والى.. الى ان التقينا في صوفيا.

في طفولتي لم يقل لي احد شيئًا عن أبي سلمى.. لا في المدرسة ولا في البيت.. وحين كنا صغارًا نحفظ الشعر ونتبارى فيه، كنا نبدأ المبارزة الشعرية بما اسميناه "المفتاح"، أي البيت الذي نفتتح به وكان:

أنشر على لهب القصيد شكوى العبيد إلى العبيد

وكان يصر على هذا المفتاح معلم اللغة العربية، لكنه لم يقل لنا من هو قائله، والحقيقة اننا لم نسأل لأننا كنا نبحث عن أبيات ذات قافية صعبة، و "الدال "هو واحد منها، واما معلم التاريخ الذي كان يستجيب إلى الحاحنا لتمضية درس التاريخ الناشف بمبارزة شعرية فقد كان يصر على مفتاح آخر، وهو :

العرب اشرف امة من شك في قولي كفر

ولا اعرف حتى اليوم من هو قائل هذا البيت، لكن معلم التاريخ لم يكمل السنة الدراسية، فقد افتقدناه يومًا وقيل لنا انه يكتب الشعر وقد طرد من المدرسة وسمعنا فيما بعد انه غادر البلاد وصار يتنقل بين مصر وليبيا والاردن ولم يعد إلى وطنه، بل تركنا نسخر من أنفسنا ونحن نسأل :

هل حقًا، العرب اشرف امة ؟

قد يعود الينا يومًا ويحكي عن العرب، مؤمنًا أو كافرًا، ويعلم الله انه بعد ان تعرف على حالة العرب في الخارج فسيأتينا معتذرًا ليس على كفره بل على يقينه في تلك الايام.

أبو سلمى

بعد ان انهيت المدرسة الثانوية في حيفا سمعت لاول مرة عن ابي سلمى، ويحز في نفسي اليوم انني كنت امر يوميًا، ولأربع سنوات

متتالية، قرب بيته ولا اعرف ان في ذلك البيت عاش وكتب "شاعرنا القومي".

لم اعرف في ذلك الوقت ما معنى "الشاعر القومي" لأن معلمة اللغة العبرية، غرزت في رؤوسنا ان حايم نحمان بياليك هو شاعر قومي، ولا يجوز ان يكون هناك شاعر قومي لأمة الا بياليك للأمة العبرية.

عندما كبرت صرت أسأل كطفل صغير:

لماذا لا يكون لنا شاعرنا القومي، مثلما ان لهم شاعرهم؟

وكم اردت ان يكون أبي ومعلم التاريخ شاعراً كهذا.

التقينا في صيف **1980**، في صوفيا مدينة البلقان.

جاء ليلقي الشعر وذهبت لأدرس الشيوعية.

هناك تحدث عن حيفا، واذا بها مدينة غير التي تعلمت فيها وأعرفها واقضي معظم ساعات نهاري في غرفة صغيرة من غرف "الاتحاد" التي احتوت بين جدرانها على طاولة خشبية عريضة، هي طاولة ابي سلمى.

احتفظنا نحن بطاولة مكتبه واحتفظ هو بمفتاح البيت.

كنا نتحدث اليه عبر طاولته وكان يتحدث الينا عبر المفتاح.

مناجاة عشاق لقمر لا يغيب، ولكنه بعيد بعيد.

سأل عن شارع الملوك وساحة الحناطير وقال ان بيته في شارع البساتين، في حي الالمانية.

سأل :

هل تعرفون البيت؟

هل هناك احد يحرسه ؟

كان ابو سلمى يعاتبنا لأننا اكتفينا بطاولته ولم نحرس البيت ، حتى اننا لم نعرفه ، ولم نجرؤ على السؤال :

"لماذا ذهبت؟"

غجر

بين حيفا الأمس وحيفا اليوم درج من حجر .

الماضي من تحت والحاضر من فوق .

بحرها يتراجع وقممها تفقد خضرتها يومًا بعد يوم .

اصبحت مدينة شاحبة مشحونة بدخان المصانع وزعيق البواخر في الميناء .

بكى وهو يحكي وبكينا نحن على بكائه .

"خرجت مع مفتاح وقصائدي .

وقعت قصائدي في البحر وظل المفتاح لأنني ربطته بخاصرتي . . "

في طريقي اليه في فندق البلقان جلست على الارض امرأة غجرية وضعت في حضنها رضيعا والى جانبها وقف طفل في السابعة مادا يده للتسول . أردت ان أعطيه لكن مرافقتي البلغارية قالت :

"لا . انهم ليسوا بحاجة ، فالدولة توفر لهم كل شيء وهم يرفضون هذه النعمة !

- كيف يحدث هذا في بلاد الاشتراكية يا رفيقة ؟

سألتها بسذاجة وقالت :

"الغجر يرفضون النعمة ويفضلون التسول ! هذه هي حياتهم ! لقد بنينا لهم المساكن وسلمناهم مفاتيح الشقق ، فباعوا المفاتيح وتركوا البيوت فارغة وانتشروا في الشوارع . . يغنون ويرقصون ويتسولون . .

شو هالحكي؟

لماذا تضحك يا رفيق ؟ "

- خذيني إلى فندق البلقان واتركيني هناك مع الشيخ الغجري الفلسطيني !

انه شاعرنا القومي؟ هل للغجر شاعر قومي ؟

"لبلغاريا شاعرها ! "

قالت الرفيقة نانا ، وودعتني عند مدخل الفندق ، ولما عانقت ابا سلمى لم يتسلل إلى اذني الا شهقاته وطقطقة صرة المفاتيح التي حملتها موظفة جميلة وغابت في الردهات الطويلة .

تلة رضوان

رحلة البلقان كانت كالخرافات الموروثة ، لا يحيكها سوى القضاء والقدر والمصادفات الجميلة ، وفي صميمها انسان تتقاذفه الاقدار ، كهذا

الشاعر العجوز الذي يحلم بالعودة إلى بيته ويصفه حجرًا حجرًا، ويسأل عن الدرج وعن غرفة "سعيد "وعن الحديقة ويعاتبنا لأننا لم نحرسها. وحين يبدأ رحلته يختار الاسطورة : "يحكى عن راع في تلة رضوان كان يغني لجواميسه ويعزف على الناي، أحب ابنة شيخ القبيلة واحبته فبعث يطلب يدها.

غضب والدها على هذا الراعي "الوقح "الذي يجرؤ على مجرد التقدم اليه بطلب كهذا، فأمر بقطع اصابع يديه عقابًا له.. وكان هذا أقسى حكم ينزل على شاب ترقص انامله الجواميس في المراعي.. في اليوم التالي رفضت الجواميس الخروج لأن الراعي لم يأت ولم يعزف.. وما كان من أهل القبيلة الا ان قصوا اعواد القصب وركبوها في مكان الاصابع وعاد الراعي ليعزف على الناي فخرجت الجواميس إلى المراعي وتزوج ابنة الشيخ..

قال ابو سلمى انه تأثر كثيرًا بهذه الحكاية وظلت ترافقه ومنها بدأ يكتب الشعر، كانت هي المفتاح للالهام، مثلما كانت اصابع الراعي المقطعة المفتاح للموسيقى التي اطربت الجواميس، وهل هناك اقتحام لعالم روحاني أو مادي دون مفتاح ؟

في عام النكبة فقدت عشرات الوف المفاتيح، منها ما ظل في الابواب المشرعة ومنها ما وقع على الطريق الوعرية أو في البحر، إذا لم يربط في الخاصرة، وها هم اصحابها ينتظرون خمسين عامًا صابرين على فراقها مؤمنين "ان الصبر مفتاح الفرج "مستبدلين مفتاح البيت الحديدي

بمفتاح الأمل الذي تبدد بعد ان قامت الجرافات واخذت البيت والمفتاح . .

الخزانة

كانت لجدتي خزانة صغيرة مقفلة طول الوقت ولم يجرؤ أحد على فتحها ، حتى هي لم تفتحها وكانت تقول لنا انها لن تفتح الا في يوم القيامة .

عندما كنت في الخامسة من عمري حاولت أن أفتحها فضبطتني متلبسا بفعلتي ولم تضربني على يدي ولم توبخني ، بل أخذتني إلى حضنها وقالت لي :

لا تحاول أن تفتح الخزانة لأنك لن تنجح ، واذا كسرتها فسينهار البيت على رؤوسنا !

اياك أن تحاول !

"ماذا في داخلها ؟ "

سألت بدهشة وخوف .

لم تفكر جدتي كثيرا ، مسدت شعري الناعم وقالت :

هذه الخزانة ليوم الحساب وفيها يسجل الله ، سبحانه وتعالى ، كل أعمالنا الحسنة والسيئة وسيسمح لنا بفتحها في يوم القيامة .

أين المفتاح؟

سألت جدتي.

في مصر! في يوم الآخرة سيأتي الأنبياء من الشرق وسيقودوننا معهم إلى مصر لاجراء الحساب، ستعطل الطائرات والسيارات والسفن وسنقطعها مشيا على الأقدام وسنحمل الخزانة على ظهورنا وهناك يسلمنا المفتاح ملاك أبيض ومن ترجح حسناته على سيئاته سيذهب إلى الجنة ومن تغلب سيئاته سينضم إلى ابليس.

لم أجرؤ بعدها على فتح الخزانة، لم أقترب منها، ولكنني كنت أحدق بها قبل النوم وأراجع نهاري واتساءل بشيء من القلق: ماذا فعلت اليوم؟

سنوات طويلة ظلت الخزانة مقفلة ولم أجرؤ على الاقتراب منها، وأكثر ما كان يخيفني هو أن يكون الله قد سجل فيها أنني سرقت الحمص الأخضر من أرض الشيخ "أبو عاهد" في مساء حزيراني ولكنني كنت أعزي نفسي بأن أخي الأكبر مني هو الذي أغراني، إلى أن كان يوم حزيراني آخر في عام **1968**.

قبل غروب الشمس بساعة دخل إلى بيت جدي شيخ غريب، رأيته لأول مرة في حياتي، لبس قمبازا أبيض ناصعا وحطة بيضاء ورأيت جدي يمسك بيده ويقوده إلى الغرفة الكبيرة وجدتي تسير خلفه وهي تتمتم مبتهجة كأنها لا تصدق ما تراه عيناها وأنا أرقب ما يحدث بذهول ولم أشعر كيف قفزت من مكاني عندما سحب الشيخ مفتاحا صغيرا من جيبه وهو يقترب من الخزانة. أردت أن أصرخ:

هذا هو الملاك، يوم القيامة !

لكنني شعرت أن لساني انعقد ولم أقدر على النطق ولم ينتبه أحد لحالتي وفتح الشيخ الخزانة ومد يده إلى باطنها وأفرغ كثيرا من الملابس بعثرها على الأرض وأخرج منها صرة وفتحها بيدين راجفتين وسحب عقدا من الفضة وورقة كبيرة.

"هذا العقد لأم محمد وهذا كوشان الأرض سآخذهما وأترك لكما الخزانة"

قال أبو محمد وبات ليلته وعاد في الصباح إلى قرية نزوحه قرب جنين.

أبو محمد من عين غزال القريبة من بلدنا.

في عام **1948** شرد مع أهلها ومروا في بلدنا.

حمل الخزانة على ظهره ولم يقدر على حملها أكثر فتركها أمانة عند جدي، صديقه من أيام تركيا.

تركها مقفلة وحمل مفتاحها وعاد اليها بعد عشرين عاما فقط لياخذ العقد والكوشان ولينسف خرافات جدتي عن القيامة ويوم الحساب.

البيت

مات ابو سلمى بعيداً بعيداً عن وطنه، بعد شهرين من لقائنا في البلقان.

مات في امريكا ودفن في دمشق وترك المفتاح لأبنه سعيد . .

عدت إلى البيت في شارع البساتين، لأبحث عنه ولأسأله ان كان هو ايضًا يشتاق إلى أهله مثلما يشتاق أهله له، وقد كنت امر يوميًا بجانبه ولا أراه، وربما لأن معلمة المدنيات اليهودية قالت لنا:

"العرب في حيفا هربوا خوفًا من البراميل التي دحرجناها في نزلة ستيلا مارس وعلى الدرج الذي يفصل بين حيفا من فوق وحيفا من تحت ففكروها طائرات ودبابات . . وتركوا بيوتهم وهربوا، ويقال ان امرأة حملت وسادة بدلا من ان تحمل رضيعها الذي نام في السرير . . وعندما دخلنا كان الطبيخ على النار . . "

عدت إلى حيفا بعد رحلة البلقان وذهبت إلى حنا نقاره، صديق أبي سلمى، وطلبت منه ان يأخذني إلى البيت . .

وقع خطانا على السلم الخشبي لم يوقظ أهل البيت . .

انتظرنا ان يفتح احد بابًا ويقول: تفضلوا !

كنا كمن يتحرك في كهف مهجور.

"هذه غرفة النوم" . .

وضرب حنا بكفه على جدار اهتز هزات خفيفة واختفى رجع الصدى، وفي عينيه علقت دمعتان . . اما السقوط على ارضية "الكوريدور" الخشبية واما البقاء في عناق طويل مع الرموش الذابلة.

طرقنا على الباب . . لم يسمع صوت.

"ربما انها مهجورة "

طرقنا مرة اخرى .

"من هناك "؟

ردت علينا امرأة كأننا ايقظناها من سبات عميق .

لم نعرف كيف نعرف عن انفسنا ، ولو عرفنا لأثرنا خوفها في مدينة عندما يطرق غريب وصل بلا موعد على ابواب منازلها ، فاما ان يكون حراميًا واما ام يكون شرطيًا وكلاهما يثيران اشد احاسيس الخوف .

"سلام عليك ايتها السيدة "

وجوم . .

"هل تسكنين هنا منذ زمن بعيد؟ منذ عام**1948** ؟

عجوز في الستينات وقفت خلف بابها المشقوق وحدقت بنا حيرى ومرتبكة ونحن القينا بنظراتنا إلى باطن الغرفة .

"اسكن هنا منذ عام **1949** "

اشار حنا إلى الغرفة الواسعة وقال ، هذا هو الصالون . . كان يستقبلنا هنا . . وسألنا السيدة :

"هل تعرفين من كان يسكن الدار قبل مجيئك "؟

فاجابت السيدة :

"لا اعرف !عائلة بولونية . . قبلها سكنت عائلة المانية . . "

قال حنا نقارة :

"هذا البيت لقريب لي توفي قبل شهر. . نزح عنه قبل **32** عامًا. .

سألت السيدة :

"هل هو عربي ؟ "

امرأة عجوز قدمت من رومانيا عندما كان صاحب هذا البيت يحمل المفتاح وقصائده ويركب قاربًا ابحر به في محاذاة الشاطئ من حيفا، إلى عكا، إلى طرابلس. .

"هل تعلمين ان صاحب هذا البيت هو شاعر فلسطيني كبير توفي قبل شهر ؟

هل تعلمين انه ظل يحتفظ بمفتاح البيت على أمل العودة؟ "

حركت رأسها كأنها تقول :

مسكين هذا الشاعر!

ثم واصلت :

"البيت قديم وقد طلبت من البلدية ان تعطيني بيتًا آخر، ولكن لا يوجد فلوس. . اسكن في غرفة واحدة، هنا مطبخ وهنا حمام وهنا غرفة مسدودة بالباطون. . سدتها البلدية، انها تدلف، جدرانها مشققة وشبابيكها محطمة. .

مد حنا يده وصافح السيدة العجوز. .

الدمعة التي تراخت على الرموش الذابلة انقسمت وتساقطت على خده. .

عدنا إلى السلم الخشبي . . والكوريدور . . وخرجنا من المدخل . . هناك بيت فوزي بندر . . كان وكيل شركة تأمين . . وهذا بيت زكي التميمي . . وهذا لحسين عبد الصمد . . وهذا للدجاني وهذا للعنبتاوي ، وهناك نصار الفرمشاني . . وهذا بيت المحامي عيسى هزو . .

هل حملوا مفاتيح بيوتهم التي بنيت من حجر وما زالت قائمة حتى اليوم ؟

زنزانة

رهيبة صكصكة المفاتيح حين تجتمع وتتراقص على خاصرة راهب يمشي في دهليز إلى غرفة معتمة في الاديرة القديمة ، أو حين تصطك في يد سجان تسمع وقع بسطاره عندما تكون منقبضا في زنزانة ، وتعلو شيئا فشيئا إلى ان يتوقف ، فتقف على رجليك لتصغي بترقب وتوتر إلى معركة حشر المفاتيح في الثقب الوحيد الذي يربطك بالعالم الخارجي ، وعندما تسمع "طقة "وتتلوها اخرى اقوى منها تتنفس الصعداء لأن السجان يفتح الباب ويأمرك بان تخرج إلى ان يعيدك ثانية .

ليس بيني وبين المفاتيح علاقة عشق , وقد جاء مفتاح ابي سلمى ليحررني من حقد على المفاتيح كان اشتد في نفسي في ليلة من ليالي ايلول **1977** .

في منتصف تلك الليلة حرقت كل سجائري ، ولم يكن من عادتي أن لا ابقي سيجارة لقهوة الصباح ، لكنني فعلتها في تلك الليلة ، فتبين لي

فيما بعد ان السيجارة في البيت كالحجاب يطرد "الوسواس الخناس "ويبعد الشياطين واولاد الحرام والا كيف حدث ان في تلك الليلة وبعد ان اقفلت الباب واسترخيت على سريري وما كدت اغمض عيني حتى سمعت طرقا شديدا على الباب وهرجا ووقع خطى ايقظ طفلي وزوجتي فقاموا مذعورين وانا معهم، ولما فتحت الباب واذا بثلاثة رجال واربعة وخمسة وعشرة تجمعوا في المدخل بلباس مدني وبوليسي وقال اولهم:

"جئنا لنفتش البيت!"

وناولني ورقة لم اقرأها، ودخلوا بقوة وانتشروا في اركان البيت وفتشوا في المكتبة وفي الخزائن وفي الثلاجة وتحت الفراش، ووصل عددهم إلى اكثر من ثلاثين رجلاً ضاع بينهم طفلاي وهما يبكيان ولا يفهمان ما يدور في البيت. . كان على طاولتي مفتاح كبير لبوابة قديمة ورثته عن جدي. حين كنت أتأمل فيه وأقرأه كان يعيدني إلى تلك الأيام وذلك الجيل والى الحالة الفلسطينية التي تجمعني بهذا الجيل المعذب، ويبدو أن ضابط العملية بذكائه المخابراتي الخارق أدرك عمق العلاقة بيني وبين هذا المفتاح فبدأ يحقق:

من أين لك هذا؟

وأمرني بأن آخذه إلى البوابة الكبيرة، ولما أقنعته أن مثل هذه البوابات كان في زمن البيوت الحجرية الكبيرة التي هدمتها جرافاتهم، عندها سحبه بعصبية وقال:

سيكون شهادة ضدك، وأمرني بأن أصعد إلى السيارة واختفى المفتاح . . .

أمضيت ليلتين في زنزانة "الجلمة" ولم تكن المرة الاولى التي اعرف فيها السجن والزنزانة، ولكنها المرة الاولى التي شعرت فيها ان السيجارة تصبح في السجن وسيلة تعذيب، قلت للسجان: اعطني سيجارة!

نظر الي وابتسم ابتسامة خبيثة عبر الفتحة المربعة في وسط الباب وقال : "بعد قليل"، واصطكت مفاتيحه وغاب. . وكانت هذه "البعد قليل" ساعتين واكثر عاد بعدها وفتح الطاقة وناولني سيجارة وقال: نسيت علبة الكبريت, سأذهب لأحضرها بعد قليل.

وكانت "البعد قليل" الثانية اطول من سابقتها, وادركت ان طقوس التعذيب قد بدأت. . . ولم أشعر بالانفراج الا عندما كان السجان يفتح الباب ويقودني إلى غرفة التحقيق. . .

ثلاثة محققين كانوا هناك:

طيب وشريروبشع. .

الطيب عرض علي سجائره والقهوة وكان مؤدبا وحاول اقناعي بان ارتدع عن خطي السياسي المناهض للسلطة وعرض علي المال والوظيفة وحتى عضوية الكنيست. . وفتح ملفا كبيرا وقال: كل ما كتبته ونشرته وقلته محفوظ عندنا. . . وهو مترجم حرفيا. . .

قلت له:

انا سعيد ان هناك من يهتم بما اكتب . . . وسعيد اكثر ان كتاباتي تترجم . . حبذا لو تقومون بنشرها بلغتكم . . .

اغاظه هذا الكلام "الصقع" , فهب من مكانه وغادر الغرفة وتركني وحيدا ثم دخل علي الشرير وقال انه يستطيع ان "يخرب بيتي" وان يجعل حياتي جحيما وان الدولة التي انتصرت على مائتي مليون عربي لا تحسب حسابا لواحد مثلي . . .

قلت له :

اعرف انكم اقوياء وانا لا اتحدى دباباتكم . .

قال :

اذن ستظل مشاكسا ؟

وغادر الغرفة وتركني وحيدا ثم دخل البشع . شاب طويل وضخم ومفتول العضلات صار يبرم حولي ويلف ويدور وينظر الي نظرات مرعبة , وقال :

من انت؟ ماذا تساوي؟

انت لا تساوي الرصاصة التي ستخترق دماغك . .

لا . . لن نخسر عليك رصاصة . .

نحن سنطلق سراحك . .

سنقول لك أنت حر , اذهب اينما شئت , وستركب سيارتك . . وتسافر وفجأة تأتيك سيارة شحن كبيرة . . سيمترلر . . وتدوس عليك

كما يدوس الفيل على النملة . . وبعدها ستركض زوجتك خلف شركة التأمين لتدفع التعويضات . .

وتكررت هذه الجولة الثلاثية . . . لمدة **48** ساعة . . تعلمت منها درسا واحدا : ان لا أنام ليلة دون ان اترك سيجارة لقهوة الصباح . .

وصرت اكره المفاتيح وصكصكتها . . إلى ان كان ذلك اللقاء مع ابي سلمى في فندق البلقان في صوفيا . .

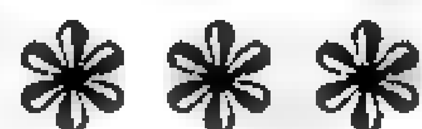
صار للمفتاح معنى آخر في حياتي . .

علمني مفتاحه ان ليلتي ويومي في سجن الجلمة كانت المفتاح إلى عالم من المواجهة ليس فيه تنازل ولا مساومة ولا التفاف على الحق . .

"سنلتقي في حيفا"

قلت لأبي سلمى . .

بعد شهرين رحل تاركا المفتاح . . وقد أشبعت قصائده الضائعة بملح البحر . . .



سفر على سفر

ما تيسر من رحلة الداخل
ورحلة الخارج

إلى سلمى وهيّ



قبل أن نغادر

ليس في هذا السفر ما يثير الدهشة وليس فيه ما يعلم عن مكان قديم أو جديد

ليس سيرة وليس مسيرة وليس رواية وليس أدب الرحلة والترحال

ليس وصفاً لعبقرية المكان وليس مرحلة ولا قضية

ليس فيه ما يلفت النظر وليس حداثة ولا شعراً

ليس فيه جديد وليس جديداً

ليس عن الفلسطيني المشرد ولا عن الفلسطيني الباقي في وطنه

ليس عن الإنسان

ليس عن المكان ولا عن المنفى ولا عن الوطن

ليس عنّي وليس عنكم

هو نصّ لعلامات السؤال وعلامات التعجب

هو المكان الفلسطيني بلا حدود والزمان الفلسطيني بلا بداية ولا نهاية

هـو الإنســان الفلسطيني بلا مكان ولا وطن ولا زمن ولا أمل ولا حلم

هو اللا مكان واللا زمان واللا أرض واللا سماء

هو نفي مطلق وهو فكرة مجردة وهو لا شيء

تمامًا لا شيء

ومن هنا تبدأ الحكاية

ألبوابة

إتصلت من باريس لنتفق على موعد للقاء

قالت لي فدوى: كل الطرق تؤدي إلى روما

واتّفقنا على أن نلتقي في روما

وضعتُ سماعة الهاتف وضحكتُ على حالنا

نلتقي في روما؟ كما لو كنا سنلتقي في رام الله، في شارع رُكب أو عند بوظة بلدنا أو في شارع الخوري في حيفا أو في تل-أبيب، في المقهى الواقع عند شارع شينكين أو بوغرشوف أو مقصف المكتبة في شارع كابلان

نلتقي

نحن الذين نحترف الكلام

نلتقي لنكتب القصائد عن الحجر ونحلم بطفل ترك طفولته ليصبح مناضلا

نفكر بمن أعاد إلينا الحلم ونخطط للمعركة من أجل تحرير الإنسان

نتقن التخطيط ونتفنّن في تحرير الإنسان وفي صياغة مستقبله وحريته وأمله وحلمه ونهوضه وثورته

مهمّة ضخمة أخذناها على عواتقنا

أسهل ما نفعله هو أن نتفق على موعد للقاء، في رام الله مثلا ، أو حيفا أو الناصرة أو روما أو باريس أو فيينا أو لندن. . مربط خيلنا !

سنلتقي بعد أن أعبر الحواجز وأقدم بطاقة الهوية لشرطي يتأفف حين يقرأ الاسم ، وعندها سأخرجه من طُمَأنينته

قد لا أسبّب له أي حرج لأنني حالة عادية بالنسبة له ، وقد يزعجني تفتيشه ، لكن يسرني أيضًا لأنني أزعجه وأخرجه من بطالته

ها أنا أُعدّ حقائبي وأستعدّ للسفر

أضع جانبًا كل ما قد يثير شكوك الشرطي عند الحاجز أو موظفة التفتيش قبل ركوب الطائرة

بعناية فائقة أختار الكتب التي أحملها معي وأتأكد من أنني أحمل التذكرة وجواز السفر

أنسى أنني تأكدت ، فأتأكد مرة أخرى وأتأكد كي أكون متأكدًا أنني تأكدت

كان خانقًا في الطريق إلى المطار

عرّجت السيارة من الشارع الساحلي إلى مداخل المطار الجاثم على أراضي قرية الخيرية الممسوحة عن وجه الأرض

مئذنة جامع الرملة تتحدى برج المطار بقامتها الطويلة

كأنها تتحدى

كأنها . .

لو أنها فعلا تتحدى لنسفوها بصاروخ أرض أرض

عند الحاجز وقف شرطي وجنديان وكثيرون من حرس الحدود

هذه هي الإشارة الأولى إلى أنني مُقبل على مغامرة المغادرة

توقفت عند ضوء أحمر وشرطي يعتمر قبعة خضراء

قرأ الاسم في بطاقة الهُوية وجواز السفر ، فتغيرت وتبدلت ملامح وجهه

بدأ التحقيق الأوّلي ؛ من أين وإلى أين؟ لماذا؟ كيف؟ أين حقائبك؟

ألرجل ذو القبعة الخضراء ينفذ التعليمات بحذافيرها

يتأكد من أنني عربي أولا ولا أهدّد سلامة أحد ولا أمن الدولة العظمى ولا أحمل الأسرار ورسائل العشاق

عليه أن يكون واثقًا أيضًا من أنني لن أدخل إلى الطائرة إلا وقد انهارت أعصابي تمامًا ، فألقي بجسدي المنهَك على المقعد ولا أحرك ساكنًا وأنتظر المضيفة لتأتي وتبلّ ريقي بعصير أو بجرعة ماء

تنفستُ الصُّعَداء بعد أن تحرّرتُ من قبضة الرجل ذي القبعة الخضراء

وطئت قدماي أرضَ المطار بسلام

حامت طائرة في السماء وهبطت وحلّقت أخرى واختفت وعلا هدير وجلبة

ألبناية الكبيرة تبدو وكأنها الحدّ الفاصل بيني وبين الفضاء أو بين الوطن وخارجه

أروع ما في هذه البناية هو البوابة الزجاجية التي تفتحها وتغلقها عين إلكترونية

لا تسألك من أنت ولا يَعنيها انتماؤك أو جنسيتك

تقترب من البوابة فتُفتح وتُغلق عندما تعبر وتبتعد

في تلك اللحظة صرت أداعب هذه البوابة كطفل صغير

أدخل ثم أخرج ثم أدخل، وهي تُفتح وتُغلق

كم هي جميلة هذه البوابة

لا تعرف العنصرية

كانت في انتظاري فتاة جميلة وكأننا كنّا على موعد

هي انتظرت بترقب وأنا نظرت إليها برَيبة

شالوم!

أخذت مني جواز السفر

أكثر من عشرة مسافرين كانوا يتحركون إلى الأمام

رجل أسود في الثلاثينات من عمره انتظر بصمت

لبس بدلة سوداء وربطة عنق وظهرت على وجهه علامات التوتر والارتباك وفي نظراته غضب شديد

طلبت منه الموظفة جواز السفر ووضع حقائبه على طاولة التفتيش

صارت تسأله وصار يجيب

طلبت منه أن يغلق حقائبه وأن يرافقها

إختفى

إمرأة شقراء في الثلاثينات أيضًا

قبل أن تفتح حقائبها، طلبت منها موظفة أخرى الوقوف جانبًا

بدأت تستجوبها باللغة الإنجليزية وهي تجيب بلهجة فرنسية

حاولتُ أن أسترِق السمع لأفهم عمّا يدور التحقيق معها

فهمت أنها من لجنة تضامن مع الفلسطينيين

حضرت في الجليل مؤتمرًا نسائيًا من أجل السلام الإسرائيلي الفلسطيني

أثار فضول الموظفة هذا السلام الإسرائيلي الفلسطيني

ظلت الموظفة تسأل وظلت الفرنسية تجيب بإسهاب

تحدثت ببراءة لا تطاق وكأنها تخطب أمام نساء الانتفاضة، أو في مؤتمر صحافي

تقدمت مني الفتاة الجميلة التي كانت تنتظرني وطلبت جواز السفر والتذكرة

كانت الفتاه لطيفة وجميلة جدًا

خطر ببالي أن أسألها: لماذا لا تعمل مضيفة بدل هذا العمل؟

عدلتُ . .

طلبت مني أن أفتح حقائبي ، ففتحت

سألتني إلى أين أنا مسافر ، فأجبت

هل كنت آخر من أغلق الحقائب فقلت : نعم وهل سلّمني أحد رسالة ؟

فقلت : لا

كان يبدو لي أن كل شيء يسير على ما يرام

شعرت للوهلة الأولى بارتياح من أسئلتها وتفتيشها للحقائب

أقنعت نفسي أن هذا يأتي حرصًا على سلامتي في الجوّ

طلبت مني الانتظار دقيقة واحدة فبدأت الأمور تتخربط

صار قلبي يخفق بشدة واستمرت الدقيقة عشر دقائق والعشر دقائق ساعة طويلة من الزمن الرديء ، حدث فيها كل ما يهين ويذلّ

إختفت المرأة الفرنسية

على طاولة أخرى وُضعت حقيبة مفتوحة

إمرأة فلسطينية ، تبدو في الستينات من عمرها ، وقفت أمامها

سألتها موظفة : فين بيروخ ؟

سألت المرأة : شو يعني فين بيروخ ؟

قلت لها : يعني وين رايحه يا حجة ؟

أردت البقاء مع الحجة لأترجم لها ، فقالت الموظفة :

بعد خمس دقائق ستقلع الطائرة، ورافقتني إلى الطائرة

هنا الوطن، يا عزيزتي فدوى، وهنا يعلموننا عندما نغادره من هم أسياد هذه الأرض، وعندما نعود لنعبر هذه البوابة الإلكترونية يعلموننا أيضًا من هم أسياد هذه الأرض ويتركوننا نتألم

لا تؤاخذيني يا عزيزتي على هذا الهذيان، فالطائرة تُقلع وأنا أنصاع تمامًا إلى تعليمات الكابتن خوفًا على حياتي

حُلم في روما

كان سهلا جدًا أن التقي فدوى حبيب في مطعم للمأكولات البحرية عند زاوية زقاق يطلّ على الفوروم الروماني القديم

قبل أن نتناول وجبتنا من فاكهة البحر، تحدثنا عن سكيتوبوليس مدينة ديونيسوس إلهة النبيذ

بين الفينة والأخرى، كان يقترب منا صاحب المطعم

إيطالي ظريف، يضحك دائما ويتراقص شارباه الكثّان حين يضحك كالإيطاليين الطيبين

تناول قيثارة وعزف ألحانا رقيقة وغنّى عن الحب وغنّينا معه أغنياتنا

أنشد هو أفانتي بوبولو وكنا نحن الكورس

أنا وفدوى حبيب

شاعرة ورسامة في السابعة والخمسين من عمرها

عندما كنت أتكلم كانت هي تُصغي باهتمام، وعندما كانت هي تتكلم كنت أقاطعها، إلى أن انتبهتُ إلى قلة أدبي

أدركنا صاحبُ المطعم الإيطالي بألحانه

أزعجها أنني لا أعرف كيف أبدأ الحديث عن سكيتوبوليس المدينة الصغيرة البالغة من العمر أكثر من ستة آلاف عام

أطلق عليها آباؤنا اسم بيسان، ثم جاء من جاء وأطلق عليها اسم بيت شآن

كان يمكن أن أبدأ مع التاريخ ومع أطلال الكوليسيوم بعقداته المهشمة فأتحدث عن نيسا مرضعة إلهة النبيذ التي دُفنت هناك ولم ينسها أحد

يذكرها الإيطاليون ونذكرها نحن لأنها إلهة النبيذ

قالت فدوى:

كنت في السادسةَ عشرةَ

أذكر كل شيء

أنت لا تذكرُ شيئا ولا تعرفُ ما حدث في ذلك العام

أنا ولدت هناك ولا أعرف من يسكن في بيتي اليوم

ربما الحاخام اليهودي الذي حدثتني عنه وعن الدجاجات في ساحة البيت

هل تعرف؟ ربما لم يعد يؤلمني أن غريبًا يسكن في بيتي

فالبيت أخذ مني ما يكفيه من الألم

بكيتُ عليه كثيرًا، وهل يجدي البكاء

يبدو لي أحيانًا أن البيت يؤلمنا لكي نتنازل عنه
هو تعب منا لأننا نُعيد إليه ذاكرته
مؤلم جدًا أن تعيد ذاكرة المكان
ولكن
هذه هي الطريقة الوحيدة لتثبت ولاءك له
نعم أيها البيت
سأظل أسبّب لك الألم
سأحكي وأحكي
أرجو ألا تقاطعني
كان ذلك في منتصف الليل
وصلت مجموعة من الجنود
قالوا لنا إن الطائرات ستقصف في الصباح وهم لا يستطيعون حمايتنا
علينا أن نترك البلد
أحضَروا شاحنات
حمّلونا
ألقَوا بنا عند الجسر بين الناصرة والعفولة
لم يكن هناك جسر
هُدم لسد الطريق
هدموه هم ليسُدّوا علينا الطريق
سرنا في الليل إلى الناصرة

كان أخي مقاتلا

هرب إلى الأردن

تسللنا إلى جنين

منها بدأت طريق الآلام

من هناك

إلى الأردن

إلى سوريا

إلى لبنان

إلى قبرص وباريس وروما وتونس

في نهاية المطاف كان المغرب محطتنا الأخيرة

قلت لي إن هؤلاء المهاجرين الذين أخذوا البيت يشعرون بالخوف

هم يشعرون بالخوف؟

قل لي

هؤلاء الذين يسكنون في بيتي، هل حدّثوك عن الخوف؟

هل يعرفون ما معنى الخوف؟

توقّفت فدوى عن الحديث وانتظرت إجابات على أسئلتها الصعبة عن الخوف اليهودي والخوف الفلسطيني ومخاوفي ومخاوفها وشعوب خائفة ومرعوبة، وصرنا نناقش حالنا ومأساتنا و نتحدث عن خوف مشروع

أي خوف مشروع أكثر خوف الضحية أو خوف القاتل؟

كلما توغلنا في النقاش، كان يبدو حديثنا عبثيًا، وفي بعض الأحيان يثير السخرية، فلخّصناه في النهاية بشكل عبثي

يبدو أن كل ما نحتاج إليه هو طبيب نفساني يحشرنا في عيادته ويبدأ بمعالجة جنوننا ليخلصنا من عُقَدنا

ضحكنا من هذياننا واستدركنا استهبالنا لأنفسنا ولمصائر الشعوب

وضعت هي حدًا للنقاش وقالت بحزم

لا تحوّل السياسة إلى علم نفس، فالأمر ليس بهذه السذاجة والبساطة

في نهاية الأمر يجب أن تعرف من هو الذئب ومن هي النعجة

يجب ألا تضع الاثنين على كفتَي ميزان ولا تساويَ بين القاتل والضحية

وافترقنا وغابت فدوى دون أن تقول إلى أين

ثرثرة في باريس

ø f ¹-ÛD

ليست منفاي وليست زيارتي إليها مجرد رحلة إلى مدينة الأضواء والمقاهي ووصول إلى مدينة أوروبية لقضاء بعض الأيام، فقد دعتني فدوى لمشاهدة معرضها

فدوى لا تعرض في متحف ولا في صالة، بل تعرض أعمالها في الشارع وفي بيت مهجور وفي مطعم أو مقهى

لأنني لا أتمتع بعقلية سياحية فقد آثرت قضاء الأيام الباريسية القليلة متسكعًا

يبدو أن صديقي الباريسي لقط هذه العقلية على الطاير فاتفق معي على أن نلتقي في مقهى يقع في ساحة مونت برناس وصفها بأنها ملتقى الأدباء ورجال الفكر

قال لي: نلتقي في التاسعة

كنت هناك في الثامنة والنصف، فتناولت الإسبرسو والكرواسون

لم يصل

أشارت عقارب ساعتي إلى التاسعة، ولم يصل، وعندما وصل بعد ساعة، نظرت إلى ساعتي ونظر هو أيضًا إلى ساعتي

ضحك لأنني لم أؤخر عقارب الساعة

لم أحمل معي إلى باريس فقط التوقيت الشرقي المتقدم بساعة على غرينتش

بل حملت معي الكثير مما حمّلني إياه المكان الشرقي

تصورت في خلال ساعة من الانتظار أنني أحمل على ظهري وطنًا بأسره

أحمل قريتي الكرملية وأضعها أمامي على الطاولة، إلى جانب المِنفضة الزجاجية التي لا تمنحها عاملة المقهى فرصة الامتلاء بقراعيم السجائر

هذه هي باريس المقاهي في صيف قائظ في جادّتي سانت جيرمان وسانت ميشيل

مئات ألوف الباريسيات والباريسيين يملأون كل زاوية وزاوية وكل مقعد وكرسي في المقاهي وينظرون إليك كأنك أهبل يسير في الشارع الفسيح وأنت تسخر منهم لأنهم يشربون القهوة ويثرثرون ويَحدِجونك بنظراتهم وكأنهم لا يفعلون شيئا

إعتقدت في البداية أن التسكّع ظاهرة شرقية وأيقنت أنني بتسكُّعي أصبح باريسيًا أيضًا

إنزاحت عن ظهري صخرة كبيرة وقلت لنفسي المضطربة

في باريس كُنْ باريسيًا

إطمأنَنتُ

أخذني صديقي إلى المقهى الذي اعتاد جان بول سارتر الجلوس فيه

هناك كان يفكر في الوجود والعدم والشيء في ذاته ولذاته فأحسست أن هذا المكان قد يكون مصدرًا للتأملات

صرت آتي إليه في صباح كل يوم وأجلس على مقعد في انتظار قدوم عاملة المقهى

بُنجور!

بُنجور مدام!

تحضر الإسبرسو والكرواسون

اعتدت على المقعد ذاته أو ربما اعتاد عليّ ولم أشعر بضائقة إلا عندما قمت وخرجت لشراء جريدة عربية من كُشك يقع عبر الشارع،

ولما عدت، كانت امرأتان عجوزان جلستا حول الطاولة واحتلت إحداهما مقعدي

لم تقل لها العاملة انه محجوز لهذا الرجل الشرقي الذي يدخن كثيرًا ولا يفعل شيئًا سوى مراقبة المارّة ولا يتكلم الفرنسية

اخترت مقعدًا آخرَ منتظرًا إخلاء مقعدي الأصلي، ولما قامت العجوزان الشمطاوان حملت جريدتي وسجائري وعدت إلى المقعد

عدت كأنني عائد من منفى إلى وطن ولدت فيه

عندها أدركت أن الوطن ليس مكانًا ولا المنفى مكان

هما العمق الذي تلتقي فيه الذات بالأجسام الموضوعية

أخفيت ابتسامتي الساخرة عندما اكتشفت قريتي، وطني ومسقط رأسي في مقهى باريسي

اكتشفت كم كنت مشغولا عنه عندما كنت فيه

أنت لا تكون في المكان الذي تحبه إلا حين يبتعد عنك.

عدت إلى جدي وأولاد حارتي وإلى البيت العتيق وإلى حيفا

إلى مقاهي وادي النسناس التي جلس فيها الناس وحدجوا المارّة بنظراتهم واعتقدوا أنك أهبل لأنك تسرع إلى العمل في كل صباح

إعتقدت أن هؤلاء الحيفاويين مصابون بالهبل لأنهم لا يفعلون شيئًا سوى الشرثرة وارتشاف القهوة والنرفزة على زهر الشيش بيش وشتم العالم والحكومة ويدفعون مقابل ذلك بالشواقل

حيفا مدينتي الجميلة تحضر في قلب باريس

في الوطن تفقد شكلها يومًا بعد يوم وتغيب عنها ذاكرتها وتفقد لغتها ونكهتها وفي باريس تعود إليها هذه الذاكرة

أصغيت إلى ثرثرة الفرنسيين

لم أعرف من يشتم الباريسيون الجالسون في المقاهي ويثرثرون دون انقطاع

فأنا لا أُجيد اللغة الفرنسية لأعرف من يشتمون

كنت مطمئنًا إلى أن لكل مقهى حكومة يشتمها زُوّاره وإلا فما الداعي لجلوس الناس ساعات طويلة في المقاهي إن لم يكونوا مثلي قدموا من الشرق إلى لا شيء؟

تساءلت: هل يجوز أن ثورة المظلومين تبدأ في المقاهي وليس في المكاتب ولا المصانع ولا القاعات الكبيرة؟

لم يسعفني أنني أنتمي إلى الجيل الذي ولد منزوعًا من الأحلام الطفولية والثرثرة ومحرومًا من التفكير بلا شيء ولا يملك الوقت ليصرفه هباء

ربما يعتقد أنه لا يملك الوقت لأنه محكوم بالالتزام لكل شيء إلا لرفاهيته ونفسه ويعتزّ بجبروته وإبائه ويتفنّن في دجل نُكران الذات دون خوف أو وجَل

يا عزيزتي فدوى

خطفتنا جِدّية الحياة كما تخطف لحظةُ النوم يقظتَنا المبكرة فأصبحنا نتعامل معها بعَناية فائقة وما تركنا حيزاً للأحلام وما تركت لنا هي فُسحة للخوف ولا للمفردات الصغيرة

أتقنّا الخطابات الرنانة وما تحدثنا حتى في ثرثرتنا إلا عن الحرية والشعب والقضية

ساقنا الغير كالقطيع إلى ساحة النزال ولم نملك القدرة على المقاومة لأننا كنا مسكونين بأحلام العظماء وفراستهم البدوية

انشغلنا بأفكارهم العظيمة فصغرنا أمام أفكارنا ومُثُلنا وأساطيرنا

بحثنا عن الانتصارات الكبيرة وحاولنا عبثًا أن نَمُطّ قامتنا وأن نقفز فوق التاريخ وأن نغير وجه التاريخ

تصورنا أن الإنسان كالعجينة بين أناملنا وأننا نصوغ حتمية التاريخ وفقًا للسطر الأخير في الصفحة الأخيرة التي وصلنا إليها فوضعنا عندها فاصلا من الورق الشفّاف خوفًا على كتابنا المقدس

ماذا بقي لنا؟

نوسطالجيا . . .

فما رأيك يا عزيزتي أن نلتقي المرّة تلو المرّة في مقهاي الباريسي

مقهاي ! مقهاي أنا ! أي المقهى الذي هو لي !

رائع أن تحوّل الغربة إلى وطن

صار المكان في مونت برناس مقهاي وفيه ألتقي أصدقائي

قالت لي : منذ التقينا لم يهدأ لي بال

أعدت إليّ بيسان كما تركتها

أعدتها إلى خيالي وإلى أحلامي وهواجسي

كنت أتذكرها فقط

أليوم صرت أعيشها

أضحك معها

أبكي معها

توقفَتْ برهة عن الحديث واغرورقت عيناها وشهقت وتنهدت وأخرجت قصائدها من محفظتها وقرأت وبكت وأمسكت بذراعي وشدتني إلى مطعم لبناني في قلب باريس

هناك تعرض أعمالها وهناك تجلس حين تكون في المدينة

وقفنا أمام لوحاتها التي علقتها على جدران المطعم ففاجأني أنها أطلقت على إحداها اسم الطريق إلى عين حارود، إستوحته من قصة كاتب إسرائيلي، قالت إنها أحبت الكتاب لأنه يصف الطريق إلى بيسان ولأنه يحكي عن نهاية حكم الجنرالات

عندما قرأته سيطر عليها خوف رهيب فعبّرت عن مشاعرها بلوحة كبيرة بطول مترين ونصف وعرض مترين وقد صنعتها من خيمة لاجئين عليها ختم وكالة الغوث وشكل جنرال يحمل رشّاشًا وعليها جثتان

ممزقتان وامرأة في حضن رجل في الخمسين من عمره وأسلاك شائكة وفي العمق جبال جرداء يبتلعها الأفق الرمادي الكئيب

بكت وجفّفت دموعها بمنديلها الوردي وقالت:

قد لا أعود إلى بيسان في حياتي

كل شيء تغير

التاريخ والواقع والمكان

قد تنتظرني بيسان إلى ما لا نهاية

لن أخلُد كخلود المكان

كل ما أستطيع أن أفعله وفاء لها هو أن أترك أعمالي وقصائدي ووصية

لا تنسَوا البيت!

لا تنسَوا الطريق المرصوف بالحجارة السوداء!

لا تنسوا بيسان!

ربما أخدع نفسي عندما أقول إنني أمقت العيش في باريس وفي الرباط وفي روما

هنا كل شيء جميل

ربما أخادع حين أقول إنني لا أطيق التجول مع بطاقة لاجئ

معها أكسب كثيرًا من العطف

لكن

ألواقع هو الواقع
لا أستطيع أن أحول الوهم إلى واقع
ولا أن أجعل من الواقع وهمًا وسرابًا
ألخوف هو الخوف
هل تعرف بشرًا يعيشون دائما في المنطقة الحرام؟
بين الخوف والأمان وبين الحرية والسجن
بين الأمل واليأس وبين الفقر والغنى
بين الحزن والفرح وبين الجنّة والجحيم وبين الحياة والموت
كأننا نلعب في مسرح دُمى
هناك من يَشدّ الخيوط من وراء الكواليس
قد يظلّ هؤلاء المهاجرون في بيسان
ربما أكتفي يومًا بأن أسكن في قرية قريبة تُطلّ على بيسان
قد آتي لزيارة الناس الذين حدثتني عنهم فيستقبلونني في بيوتهم
عفوًا
بيوتنا
كما استقبلوك
هل هي بيوتهم أم بيوتنا؟
عفوًا
سأدعوهم لزيارتي

سنتبادل الآراء والزيارات

هل هذه هي الإنسانية المطلوبة مني؟

هل هكذا فقط يعترف العالم بوجودي

ينزع عني صفة القتل

هل عندما أتنازل عن ذاكرتي أصبح جديرة بالحياة؟

هل عندما أخون المكان أكون صاحبة حق؟

قالوا لي هذا شعر

حُلم

مجرد حُلم شاعري

ليكن! فها هو الشعر يلتقي بالواقع، و لنُسَمِّه واقعًا شاعريًا أو شعرًا واقعيًا، وهل نبحث عمّا هو أكثر من التسمية؟

ألاسم: فدوى حبيب

ألمهنة: شاعرة فلسطينية ورسامة تعرض في قلب باريس

مكان الولادة: بيسان

ألحالة الاجتماعية: متزوجة

إسم الزوج: الدكتور مهدي المغربي الأصل المنتمي إلى عائلة ارستقراطية

والده كان تاجرًا معروفا وكان له شريك يهودي و كان اليهودي جارًا أمينًا

تُوفي في مطلع الخمسينات، وبعد عام هاجر خمسة من أولاده، من الرباط إلى فلسطين.

ربما أنهم يعيشون في بيسان وربما في نتيفوت أو أوفكيم

هاجر اثنان آخران إلى كندا

الأول غني جدًا والثاني حالته جيدة

سألت في بيسان:

هل يوجد هنا عائلة تحمل اسم بن مسعود؟

قالوا:

لا نعرف

ربما أصبح اسمها بن أشير وهي تعني ابن مسعود

لم أحدثهم عن فدوى ولا عن الدكتور مهدي ولم أحدث فدوى عن البحث عن ابن مسعود اليهودي التاجر المغربي

أمضيت في باريس أسبوعين ولم تأخذني إلى متاحفها في رحلة اللاشيء ولم تشدّني إلى معالمها العظيمة، ليس لأنني لا أتمتع بعقلية سائح، بل لأنني كنت شرقيًا أهبل يحمل في جيبه بطاقة الميترو ويشنّف أذنيه للإصغاء إلى شرقي آخر يتكلم اللغة العربية، وفي داخله تلتهب شعلة من الحنين إلى الماضي القريب وإلى أساطيرنا وحتى إلى جراحنا

حالة غير مبررة ليأس غير مبرر أعدت فيها إلى الرومانسية كرامتها

هل تذكرون كيف كانت الرومانسية لعنة إبداعية؟

رحت أبحث عن حكايات جدّي وخرافات الجيل الذي سبق التكنولوجيا

إحتقرنا، نحن، هذا الجيل بما أنعمته التكنولوجيا علينا واحتقرنا، هو، بما أنزلته علينا، فقد كان يقول لنا:

ما قيمة هذا التقدم بدون هداة البال؟ وما قيمة هذه الحياة بلا طُمَأنينة ولا سلام ولا محبة؟

في تلك اللحظة الباريسية تشعر أيضًا أنك لا تحب الزمان الذي تكون فيه إلا إذا ابتعد عنك وعندما تتحدث عن الماضي بكثير من الحب فهذا يعني أن حاضرك سيّء جداً

كان الطقس حاراً في باريس ولم يترك لي الدخان الذي نفَثَتْه السيارات مجالا لتنفُس عميق

لم أملأ رئتي بهواء نقي كالهواء الذي اعتدت عليه كلما وقفت على قمة من قمم الكرمل

قمم كثيرة وعلى إحداها يقع بيتي

كأنني لا أملك من هذه الدنيا سوى النسمات الرطيبة القادمة من البحر، فأكتفي بما أنعمته عليّ الطبيعة ولا أحلم بمكان آخر، ويبدو أن هذا يشبعني سياحة

إذا ضاقت بي الدنيا حملت نفسي وخرجت إلى وادي النحل

أقفز من صخرة إلى صخرة وأشقّ طريقي الوعر بين أغصان القندول فتغرز أشواكها في لحمي وتحدث ألمًا لذيذاً لا يخلو من رعشة تسري في جلدي

أنتصر على الألم حتى وإن سال دمي

أتذكر حكيم بلدنا الذي قال لي ذات مرة :

ألكرمل أفضل صيدلية، فكل نبتة فيه دواء

ألقندول يتحول إلى أسبرين والطيّون لأوجاع الرأس الناجمة عن نشرات الأخبار الصباحية والسريس يطرد الأخبار المثيرة للرعب

أعادتني باريس إلى صيف بلدنا

لا أعرف لماذا بقي لصيف تلك الأيام البعيدة رائحة حاولت مقارنتها برائحة دخان السيارات الباريسية

طَمْأنت نفسي ووجداني أن نكهة بلدنا ألذّ وأشهى

الرائحة التي أحملها معي إلى باريس هي تلك التي عطّرت الغبار بما انبعث من روث البقر وجلد الغنم عندما كان عجّال البقر ينطلق من الساحة الترابية المقابلة لبيتنا

في لحظة وجوم عبثية كان يبدو لي أن سيارات السيتروين والبيجو تتحول إلى بقرات تطارد بسرعة فائقة وتنتشر في أزقّة البلد الترابية لتفرغ ما تحمله من حليب صاف ثم تغيب البقرات عندما يأخذونها عُنوة من فضائها ليجزّ اللحام رقابها فتعود إلينا قطعة قطعة

رهيبة هذه الحياة التي لا تمنح البقر الحقّ في أن يعيش العمر الكامل

ألبقر في بلدنا لم يعرف تجربة الشيخوخة

ألبقر في بلدنا لم يعرف أحفاده

هل هذه هي سنّة الحياة وحكم أنزل على الحيوان؟

لماذا لا تعرف الحيوانات أحفادها؟

هل حقًا لا تعرف الحيوانات أحفادها وأبناءها وأصدقاءها؟

هل للأبقار ذاكرة؟

هل تحنّ إلى المكان الذي ولدت فيه؟

هل لها وطن؟

عدت إلى بلدي وإلى جدّتي وجدّي في مقهى يغصّ بالباريسيين

في جادة سانت جيرمان

جلست أراقبهم بنظراتي الشرقية المشبوهة وأعود إلى حكواتي بلدنا

يروي عن عنترة وأبي زيد الهلالي كأنه ممثل مونودراما يلتفّ حوله الناس وينتظرون بترقّب نتائج المبارزة على قلب عشيقة صحراوية وعلى بطولة العروبة والعرب

قلت لصديقي الباريسي: مدينتكم أعادتني إلى بلدي

قريتي الصغيرة

أشعر وكأنني فيها

جسدي هنا وقلبي هناك

ضحك صديقي ملء شِدقيه وقال:

ما تجده في باريس لن تجده في أي مكان آخر في العالم

فما بالك في قرية لا تظهر على خريطة؟

تبجّحت أمام صديقي بين مازح وجادّ:

في بلدنا تجد كل شيء

هل يوجد في باريس زعتر وعكّوب؟

هزّ رأسه واثقًا من النفي

شعرت أنني انتصرت عليه بضربة قاضية

كيف لا؟

نحن جعلنا من الزعتر سلاحًا نواجه به الأمم الاستعمارية قاطبة

يُلقون علينا النابالم ونحن نرشّهم بالزعتر..

كم من محتلّ قاومناه بقصص الزعتر والمناقيش؟

ظل صديقي الباريسي يذكّرني طول فترة إقامتي بهذا التفوّق

كان يأسف لأن باريس تفتقر إلى العكّوب وكان يحكي بين مرح وأسف وبين مزاح وجدية

في اليوم الأخير زرت صديقي الفنان الفلسطيني سمير

علم بقدومي فاتصل بي، في الحال، وقال:

أدعوك لعشاء لم تحلم به في باريس

أكلة عكّوب

ولد سمير في صفد

كان طفلا صغيراً حين قطع جبال الجليل ووديانه شرقاً إلى دمشق

منذ ذلك الحين لم يرَ البيت الذي تركه حين كان طفلا صغيراً

صار يرسم في المخيم رغماً عن معلم اللغة العربية وصار هو يكبر وصارت صفد تتقلّص

صار المنفى وطنه الكبير الذي لا يعرف الحدود

قال لي : كم أتمنى أن أعود إلى طفولتي في صفد ولو لساعة قصيرة

شعرت أنه لا يحسدني على شيء إلا لأنني أستطيع أن أزور صفد متى أشاء

هي لا تبعد عني أكثر من ساعة زمنية قصيرة

صار يحدّثني عن البيت وعن السوق وعن المدرسة وعن النسمات الجليلية العليلة وعن الوادي وقمة الجرمق وعن أشجار الصبّار والسرايا وكنت كمن يجتاز امتحاناً في المعلومات العامة أو جغرافيا الوطن

أثار حزني من جديد

قلت له : سأذهب إلى مدينتك المصادرة

أنا القريب منها لا أعرفها وأنت المغيّب عنها تعرف كل تفاصيلها؟

سأحدّثك عندما نلتقي

سأحدّثك يا صديقي

إنتظرني

إنتظرني في باريس

سآتي إليك

سآتيك بأخبارها وصورة البيت الذي ولدت فيه

وذهبت إلى صفد

منعطفات حادة

الشارع يتلوّى كالأفعى وعلى القمة تطلّ بيوت يغطّي القرميد سطوحها

على جانبي الطريق أشجار صنوبر باسقة

تدخل

تقترب من البيوت الحجرية القديمة

هنا شجرة تين وهناك الصبار

تشعر للوهلة الأولى أن القرميد في صفد غريب كالعكّوب في قلب باريس

لوحة سريالية تقف إزاءها مشدوها وتفكّر في صديقك الفنان وحديثه الرومانسي

لا بد أن البيت الذي تركه تحول إلى مرسم مثل كل البيوت القديمة

يسكن فيه فنان لا يقيم في البيت، بل يأتي ليرسم أو ليقضي الصيف

السيّاح يأتون من كل مكان ويتنقلون من مرسم إلى آخر ومن بيت إلى بيت

في الصيف تفتح البيوت وتغلق في الشتاء البارد

عرّفني صديق على فنان يسكن في بيت عربي قديم

ولد في لندن وقدم إلى البلاد عندما كان في العشرين من عمره

شارك في العدوان الأول على مصر وأصيب بجراح

سافر إلى أفريقيا ليعبد الشوارع في الكونغو وعاد إلى البلاد

قال لي هذا الفنان الإنجليزي الأصل:

جئت إلى هنا

كان البيت خربة مهجورة

استوليت عليه دون أن أسأل أحدًا

أعجبت بالطبيعة ومناظر الجليل الخلابة

كنت أنا وزوجتي نقضي أيامًا طويلة في أحضان الطبيعة

نأكل ونشرب ما تعطيه الأرض

صرنا جزءًا من هذه الطبيعة

صدمني هذا الغريب الذي جاء من لندن ليحاربنا على أرضنا ويستعمر في الكونغو ويستوطن في صفد ويصبح جزءًا من طبيعة الجليل

هناك خطأ ما

أليس كذلك؟

لم أقدر على مواصلة الإصغاء

هذا شيء من صفد التي لا يعرفها سمير الذي كان طفلا صغيراً عندما حمله أهله وهربوا من الخوف

كيف يشعر هذا الإنسان المهاجر أنه جزء من طبيعة لم يولد فيها؟

هل هذه نفسية شعب بلا أرض جاء إلى أرض بلا شعب؟

سأذهب إلى الجاني في عُقر داره

سأذهب وحدي وسأحمل ذاكرة جدّي وأبي

لندن مربط خيلنا

هذه هي المدينة التي رسمت الجريمة

تأخذني إليها حكايات جدّي وأبي وشيخ مشقّق الوجه، قال لي والشرر يتطاير من عينيه: والله لو يصح لي لأفجرها عن بكرة أبيها

يصعب عليّ حتى اليوم أن أفهم هذا الحقد الذي يكنّه هذا الجيل لبريطانية العظمى

يبدو أنه ينتقل بالوراثة، فما من شيخ عرفته إلا وشتم وسبّ ولكنه يتمنى أن يزور لندن ولو في آخر لحظة من حياته

في ذاكرة كل منهم صورة للإنجليزي نفسه الذي لا يتبدّل

رجل في الثلاثينات، وعلى رأسه قلبق ويلبس الشورت وبدلة بنية وسباطا أسود ويصرخ **hold up** ولا يعرف الضحك

لم أفكر بشيء، في الطريق إلى هذه المدينة الخبيثة، سوى الانتقام

أحسست في تلك اللحظات أنني سأصفي حسابًا عسيرًا مع لندن ومع الكابتن شيفر الذي حكم بلدنا ثلاثين عامًا وتركها تنزف

لم يضع حدًا لهذه المشاعر إلا لحظة الوصول إلى المعبر الأرضي

بوابة للأوروبيين، يجتازونها بلا سؤال ولا جواب، وبوابة أخرى لغيرهم وأنا معهم

أخذوا منّي جواز السفر وطلبت منّي شرطية أن أنتظر فانتظرت

أمرني ضابط أشقر بأن أفتح الحقائب، ولما فتحت طيّر صوابَه كيس الزعتر الذي أخرجه من حقيبتي بعصبية بالغة

قلت: ها هي لعنة الزعتر تنزل عليّ في بلاد الانجليز وتلاحقني إلى هنا

بعد لحظات وصل ثلاثة آخرون وأمروني بالوقوف جانبًا

حضر كلب كبير وصار يشمّ الحقيبة تارة، وأطرافي تارة أخرى ولأنني، لا أجيد الضحك بالإنجليزية فقد قهقهت فاغرًا فمي وأنا أقول:

هذه هي لعنة الزعتر

قلت للضابط:

This is zaater. Do you know what is zaater?

لو كان هذا الضابط الأشقر هو الكابتن شيفر الذي حكم بلدنا لما أثرْتُ مخاوفه، فالكرمل هو وطن الزعتر، ولو كان هذا الضابط من مخلّفات أولئك الإنجليز لعبّأ رئتَيه برائحته الزكية

في لحظات كنت محاطًا بثلاثة ضباط آخرين أمروني بالوقوف إلى جانب الحائط، فوقفت

إرفع يديك!

رفعت

الكلب صار يشمّني بلهف وأعلنت حالة تأهُّب قصوى في المطار

لندن في حالة طوارىء والجيش البريطاني في حالة تأهّب والأسطول في البحر حرّك بوارجه وأعلنت بريطانيا في الإذاعات عن تجنيد عام لطياري سلاح الجو

لماذا؟

خوفًا من كيس الزعتر

أخذوا الكيس وأمروني بالجلوس على مقعد خشبي وصار الضابط يحقّق معي

من أين جئت؟

إلى أين أنت ذاهب؟

هل ينتظرك أحد في لندن؟

لماذا تحمل هذا الكيس؟

قلت: إذا قسا عليّ الدهر في لندن ولم أجد ما آكله فسألتهم الزعتر

Do you know what is zaater ?

ابتعدوا عني وتركوني جالسًا وحدي

تساءلت في صمتي ووجومي: كيف استعمروا بلادنا ثلاثين عامًا وهم لا يميّزون بين الزعتر المطحون والبارود؟ أم أنهم يخافون من الزعتر لأنه يقوي الذاكرة وهم يريدون مسحها عن بكرة أبيها؟

إكتشفت في تلك اللحظة أن المستعمِر لا يقلّ جهلًا عن المستعمَر

يا مستر! أنتم استعمرتمونا بجهلنا وإذا بقيتم على جهلكم فسنستعمركم نحن

شعرت بارتياح لأن الزعتر قضّ مضاجع بريطانيا العظمى في هذه المرة

هذا هو سر الزعتر

لعنة في أوّله وبركة في آخره

لعنة الزعتر أعادتني إلى حكاية أبي صلاح اللوّاح ابن بلدنا الذي يرفض أن يموت وما زالت ذاكرته معه وحكايته معه والحطّة على خاصرته، يلوّح بها حين يطرب وحين يقف على رأس الدبكة

يقول:

يوم قالت لي أم صلاح خُذني عالزعتر

ركبنا الحمار وطلعنا عالوعر

لقّطنا من هالموجود

حطّينا في الخرج وركبنا على الحمار ورجعنا

شوَيّ والا جاي علينا جيب أخضر من جماعة الطبيعة

نزل منه واحد

صار يصيح:

عتصور! عتصور! عتصور!

يعني وقّفْ وقّفْ

ضربنا بريك عالحمار وعتصرنا

ابن الحرام صار يصيح علينا:

ممنوع زعتر!

ممنوع مرامية!

ممنوع زوفا!

ممنوع عِلت!

ممنوع خبيزة!

يا خواجة هذا مليح للمعدة

وهذا للأعصاب

وهذا لوجع الراس

شو فيها؟

جايبين شوَيّ للبيت

لا

أنت بيخرِّب طبيعة

أنا بيخرِّب طبيعة؟

أخذ كل شيء لقّطناه وسجل لي مخالفة

أخذوني عالمحكمة ودفّعوني ألفين شيكل

بعد سنة فتحت الجريدة والا صورة زلمة الطبيعة على نُص الصفحة

ألأخ فاتح مصنع للزعتر والميرمية وكاتب

هذا مليح للمعدة وهذا للأعصاب وهذا لوجع الراس

أنا بخرّب طبيعة؟

كم كنت بحاجة إلى أبي صلاح في مواجهة بريطانيا العظمى

بعد نصف ساعة جاء شاب وهو يحمل الكيس ويضحك ملء فمه

قال لي بالعربية: تيوس والله تيوس لا عقل ولا هداية

عرفت من الشاب أنه فلسطيني يعمل سائقًا في المنطقة وقد استُدعي بصفته خبيرًا في شؤون النباتات العربية

سألني:

هل تعرف أحدًا في لندن؟

قلت: نعم ولي أصدقاء سوف أزورهم

قال:

خذ هذا الرقم لصديق لي اسمه مروان

مغترب من مخيم طولكرم سوف يسهّل عليك الإقامة في لندن

قلت له: يا أخي! والله ما حملت هذا الكيس إلا لصاحب القسمة والنصيب لأيّ أخ فلسطيني لم يشمّ رائحة الوطن في غربته، ومنذ بدأت

رحلتي يتنقّل معي من مكان إلى مكان ولم يفتح إلا لضرورات التحقيق، فما بالك لو استجبت للقسمة والنصيب وأخذت الكيس هدية من أخ لأخيه؟

إغرورقت عيناه ففتحه ليملأ رئتيه برائحة الزعتر

اخترق الجلبةَ صوتٌ رقيق يعلن أن الباص إلى لندن سيتحرك بعد دقيقتين

عانقته كأخ يفترق عن أخيه وافترقنا

نزلت في محطة فيكتوريا واتصلت بمروان

بعد عشر دقائق مثَل أمامي شابٌّ في العشرينات من عمره

كان ينبض حيوية ولا تفارق الضحكة وجهه

قال لي:

لن أسمح لك بالمبيت في فندق

سوف أسلمك شقّة تبيت فيها

عرفت منه أنه يملك في لندن خمس شُقق يؤجّرها لطلاب من العالم الثالث، فقط من العالم الثالث وبأجرة زهيدة، تعبيرًا عن تضامن الشعب الفلسطيني مع شعوب هذه الدول

هكذا أكّد لي عندما رآني مندهشًا من كلامه وحركاته وقد خربط مروان كل حساباتي وأفكاري، مثلما خربطتْ لندن كل عادات السير التي أعرفها

اليمين في الشمال والشمال في اليمين، ولولا أن مروان شدّني إلى الوراء لصدمتني سيارة أقبلت من اتجاه معاكس

قال مروان:

سأنتقم منهم

لقد استعمروا بلادنا ثلاثين عامًا ليسلموها لليهود وأنا سأشتري لندن،

بأموالهم سأشتريها

ضحكنا كثيرًا على حالنا وعلى نقمتنا الطيبة وقلت له:

يا مروان

أنا وأنت لا نختلف كثيرًا عن آبائنا

إسمعْ هذه الحكاية

في بلدنا كان ضابط إنجليزي

كلما خطر على باله وأحبّ أن ينتقم راح يأمر الناس بالخروج من بيوتهم

كان يجمعهم في ساحة البلد

ساعة وساعتين وبعد ذلك يأمرهم بالعودة إلى بيوتهم

أبو صلاح قرر أن ينتقم منه

في أحد الأيام أمر الضابط الناس بأن يتجمّعوا في الساحة

أبو صلاح جلس على سطح بيت

صرخ عليه الضابط :

come on.come on here!

صرخ أبو صلاح على الضابط :

كَم أون أنت ! أنا مكرسح وما بقدر أنزل

إسّا بَوْقَع وبينكسر ظهري

إقترب الضابط والتصق بالحائط

دلّى أبو صلاح رجليه وركب على كتفيه

مشى الضابط

أبو صلاح صار يصيح بأعلى صوته :

يا أهل البلد، والله ركبناهم

ركبناهم زيّ الحمير

ركبنا بريطانيا العظمى

صار الناس يصفّقون ويهتفون

الضابط أيضًا كان مسرورًا

إعتقد أنهم يُحَيّونه على شهامته

عندما اكتشف الضابط الأمر

سحب جندي أبا صلاح وعلمه على جلده ماذا تعني بريطانيا العظمى

قلت لمروان:

إلى متى سنظلّ نحمل هذا الغضب وننبش الدفاتر العتيقة؟

قال: إلى أن نستعيد كرامتنا المهدورة..

إلى أن تقوم الساعة

مروان شاب طيب إلى حدود السذاجة وهو يعرف المدينة شبرًا شبرًا ويعرف أسرارها

تحدث عن الانتقام والثأر كطفل بريء سرقوا لعبته

انتقام حلو كالعسل

ليس فيه موت ولا هدم ولا يؤذي

لم أبحث عن المقاهي في لندن وقد أدركت في اللحظات الأولى أن هذه المدينة ملعونة ولا تعرف الهدوء

مدينة الضباب والصخب وفيها يتسكع لابسو العباءات البيضاء والبنّية ومعتمرو العُقل وكوفيّات الموصلين ويجوبون في شوارعها العريضة الغاصّة بكل أجناس الناس فيخرجون من مَتجر ويدخلون إلى آخر

ما خطر في بالي حينذاك سوى ما كان يواسي أجدادنا

لندن مربط خيلنا

ردّدت هذا القول وأنا أتساءل:

أين يربط هؤلاء خيولهم؟

في مطار هيترو

قال لي مروان

خيولنا العربية استبدلناها بالبوينغ 707

ها هي مربوطة هناك

في المطار

قلت :

وهل معهم سنستعيد مجدنا الضائع؟

قال مروان :

في المساء سآخذك إلى الأماكن التي تتجلى فيها الشهامة العربية بكامل عنفوانها

في لندن شاهدت بشكل حيّ ومباشر كل ما تراه في الصور

برج الساعة والتيمز وجسوره التي تفتح لعبور البواخر وساحة البيكاديلي والحرس الملكي المتصنّم في مكانه ولا يتزحزح ولم تثر في نفسي أي انفعال

في لحظة ضجر أردت أن أهرب منها لولا أن حلقة المعارف والأصدقاء بدأت تتسع وكان جميعهم من العرب المنفيين من أوطانهم أو الهاربين خوفًا على حياتهم

تحولت الإقامة القصيرة هناك إلى كابوس من الهموم العربية ، وصار يبدو أن ما أحكيه عن معاناتنا هو جنة عدن نحسد عليها لولا شماتة الشامتين

توقفت عن الكلام المباح وصرت أحدثهم عن قريتي الصغيرة التي لا تظهر على خارطة

قلت لهم متفاخرًا :

بالنسبة لي هي الكرة الأرضية بأسرها

سألني صديق سوري :

هل يوجد في بلدكم مسرح ؟

قلت :

لا

هل يوجد سينما ؟

لا

قصر ثقافة ؟

لا

خبز طابون ؟

لا

هل يسرح عجّال البقر كل صباح ؟

لا

إذن ما سر هذا العشق لبلدة لم يبق شيء من قديمها ولم يدخل عليها شيء من حديث هذا العالم؟

قلت:

عشق غير مبرر

ربما تربطني بها الحكاية

قال صديق عراقي :

والله لا يربطني ببلدي سوى حمار أبيض

كان لنا حمار أبيض نربطه في ساحة البيت

أحلم به

أتخيّله مُحلقًا بجناحين وهابطًا هنا في ساحة الدار ليعيدني إلى بلدي دون أن تكتشفني الرادارات العربية

قلت للصديق العراقي

لا تنتظر أن يأتيك الفرج على حمار أبيض

اقترح صديق فلسطيني آخر أن نقوم بجولة في المدينة الصاخبة علّنا نُريح أنفسنا من هموم الماضي فنزور المسارح والساحات العامة

ساحة البيكاديلي

في محيط دائرة بشرية كبيرة من اللندنيين واللندنيات وقفنا نرقب شابًا إنجليزيا يروي الحكايات

حكواتي البيكاديلي سكوير شدّ أنظار المئات بصوته الإيقاعي وحركاته البهلوانية

شنّفوا آذانهم لسماع نهاية الحكاية عن فارس إنجليزي يقاتل لانتزاع قلب أميرة من أميرات شكسبير

قلت لصديقي الفلسطيني :

إما أنه أهبل وإما نحن

هيا بنا ننصرف

ولد صديقي في نابلس وترعرع في عمان في كنف عائلة ثرية وتعلم في لندن إدارة الأعمال والتجارة ويدير هناك أعمال عائلته

قال لي :

أنت من دالية الكرمل

أليس كذلك؟

قلت :

نعم

قال :

هل يهمّك أن ترى في لندن صورة لقريتك من قبل ستين عاما؟

قلت :

سوف تذهلني

سرت في جلدي قُشَعريرة حين سحب من حقيبته صورة عتيقة ظهر فيها ثلاثة شيوخ يجلسون على مقاعد حجرية وأمامهم فناجين القهوة وقُمقم النحاس وفي يد كل منهم مسبحة

كانوا ينظرون إلى المصور كأنهم يتساءلون :

ماذا يريد هذا الغريب؟

حاولت أن أعرف من يكونون من ختيارية البلد، فلم أُفلِح، وكان واضحًا لي أنهم جلسوا في ساحة الحارة الغربية

على الصورة كتب بالإنجليزية :

دالية الكرمل، ثلاثة شيوخ لا يفعلون شيئًا

(Three old men. They do nothing)

سألت صديقي الفلسطيني :

من أين لك هذه الصورة ؟

اشتريتها في لندن

في أيام الأحد تعرض للبيع تحف وطوابع وصور عتيقة

من مخلفات الأجداد الإنجليز

يبدو أنها لا تثير اهتمام الأحفاد

يعرضونها للبيع

ربما أن سائحًا إنجليزيًا كان زار قريتكم والتقط الصورة

قلت :

غريب

كيف اختار هذا الإنجليزي أن يصور ثلاثة شيوخ لا يفعلون شيئا؟

وأنت؟

لماذا اخترتها عن سواها من مخلفات هذا الانجليزي؟

قال :

لأنني أحنّ إلى هذا الجيل

هنا في لندن وهناك في عمان

في نابلس وقبلها

في الخيرية

بلدنا

والدي كان دائمًا يحدثني عنها

كأنني عشت معهم . .

في ذهني صورة لبيوتها وشوارعها ومدرستها

حدثني أبي عن لون الشبابيك

عن الحبق عند مطلع الدرج

سألت صديقي الفلسطيني :

هل تعرف ماذا أصبحت الخيرية؟

أعرف

أعرف تمامًا

لا بد أنك في طريقك إلى هنا مررت بأرضنا وحلّقت في سمائها

هل بقي بيت من حجر وفي ساحته شجرة سِدر وارفة؟

كنّا في تلك اللحظة نقطع الجسر على نهر التيمز وكنت أتساءل بيني وبين نفسي:

كيف تبدأ الحكاية بين الوطن وخارج الوطن؟

أو بين المكان الذي أنت فيه وذلك الذي ابتعد عنك؟

هذه هي حالنا يا عزيزتي فدوى فقد أصبحنا رزمة من الهموم ولسنا عربًا إلا بالمنفى

أنت عربي إذن أنت منفيّ

لم يعد للمكان العربي ما يشدّك إليه

فيه فقط ما يبعدك عنه

أعداء الأمس هم أعداء اليوم وهاجسنا الانتقام من هؤلاء الأعداء

من بريطانيا ومن فرنسا ومن أمريكا

وماذا عن أصدقاء الأمس؟ ليس لنا اليوم أصدقاء

زمان زمان كنّا يا رفيقة نتغنّى بالحرية والتحرر واليوم صرنا نبكي على حالنا

عندما تلتقي ماضيك تبكي على حاضرك القاحل كأرض الصحراء

هذه الصحراء التي تنفيك عنها كلما اقتربت منها ولكنها تعيدك إليها

وتعـــيــدك دائمــا إلى بداية الحكاية وإلى المطار الجــاثم على أرض الخيرية

سفر على سفر / خريف 1993

الرياح التي هبّت على المنطقـة من بلد الصـقـيع كـانت دافـئـة وقـد اصطلحنا على تسميتها رياح مصالحة وهمية بيننا وبينهم أي بين الضحية وجلادها وكان مناخ آخر انعكس تمامًا في المطار عبر البوابة التي تطلّ على العالم

تساءلت :

هل نستطيع أن نبدأ رحلة جوية دون التوقف في المطار؟

رحلة عادية في زمن ليس عاديًا

بدأت أستعد ذهنيًا لانتظار قد يستغرق ساعة من الزمن في غرفة التفتيش

مع الجهاز الإلكتروني والأسئلة التقليدية :

ما هو هدف الرحلة؟ هل لك أصدقاء؟ في أيّ فندق حجزت؟

في هذه المرة ابتسمت الفتاة واعتذرت لأنها تريد أن توجّه إليّ بعض الأسئلة ، حفاظًا على أمني و سلامتي فانفرجت أساريري

قلت لها :

قبل أن تسألي إليك إجاباتي الكاملة

أنا أغلقت حقائبي ولم يفتحها من بعدي أحد ولم يسلمني أحد رسالة أو أي شيء آخر ولا أحمل السلاح

كرجت الإجابات فضحكت وسألتني عن هدف زيارتي فجمعت كل ما لدي من شجاعة وقلت لها :

هذا أمر يخصّني ولا علاقة له بسلامتي في الطائرة

اعتذرت هي وأمضيت الدقائق المعدودة في حديث عن الأدب و السينما

تحدثنا عن فيلليني المخرج الإيطالي الذي تُوفّي في ذلك الأسبوع

قالت لي :

مع السلامة

قلت في نفسي :

سبحان مغيّر الأحوال

لو أن اتفاق إعلان النوايا حقق لنا تجاوز ساعة التفتيش هذه وبهذه البساطة ، نحن عرب الثمانية وأربعين ، لقلنا الحمد لله على هذه النعمة والحمد لله الذي لا يُحمد على مكروه سواه

بدا لي أن كل شيء قد تغير وبدل الشعور الذاتي والإحساس بالضيق والتوتر والقلق والإذلال والغربة

كل ذلك اختفى و حلّ محله شعور آخر

أنت واحد من المئات الذين يتحركون في قاعة المطار

لست شاذًا ولست غريبًا وقد أصبحت حالة سلمية تمامًا فلا تثير الشبهات ولا ما يستدعي السؤال

هكذا تشعر وهكذا يتعاملون معك

فجأة تبدو موظفة الأمن لطيفة وضابط الأمن الذي يرقبها من يعيد لا يثير أي قلق و تهديد

عربي فلسطيني في المطار يا مرحبا يا مرحبا

لا يهدد أمن الدولة ولا الطائرة ويعبر نقاط التفتيش والبوابات الإلكترونية دون أية عراقيل

لأول مرة تشعر بأنك تملك الوقت الكافي للتجول في حوانيت البلا جمرك

تبدد كل شعور بالقلق وتنقلتُ في الترمينال كأنني في ساحة بلدنا

سنيوري

سنيورا . .

هكذا بدأ كابتن الطائرة الإيطالية تحيته وهذا كل ما فهمته من الإيطالية في الرحلة الجوية من الخيرية إلى روما

سنيوري

سنيورا . .

حطت الطائرة في مطار ليوناردو ديفينتشي وبعد ساعة كنت في قلب هذه المدينة التاريخية العريقة فوضعت حقائبي في الفندق وخرجت إلى شوارعها لأبحث عن البيتزا

روما كانت منهمكة بالانتخابات المحلية مثلما كنّا مشغولين نحن في انتخاباتنا المحلية وقد أثارت حملتهم الانتخابية فضولي فتساءلت بسذاجة شرقية :

هل تقوم الانتخابات هنا على العائلية؟ من هي أكبر حمولة في روما؟

تساءلت بيني وبين نفسي إلى أن تحرّشت بأحد الجالسين في المطعم الشعبي

سنيوري

سنيورا . .

لا حمولة و لا حزب

ممثلات العري والجنس يحاولن احتلال مقاعد رئاسة البلديات ويحاشرْن مرشحي الأحزاب والمستقلّين

حملة انتخابات تشيتشولينية على الطراز الحديث ، ففي روما رشحت نفسها فتاة جميلة تحت شعار مرشحة دافئة لمدينة ملتهبة ووعدت بحلّ مشاكل السير والبيئة وخلق أجواء جديدة للحب

أكثر من ثلاث ساعات جوية تفصل بيننا وبين روما ولكن عالمًا شاسعًا يفصل بين لغتنا ولغتها وبين مفاهيمنا ومفاهيمها

في بلدنا تثير حملة الانتخابات الحزن في قلوبنا وفي روما تثير سخريتنا وكثيرًا من امتعاضنا

في الغربة تقرر أن تنسى همومك فتطردها لتعيش عالما آخر كي ترتاح وسيأتي ما يعيدك إلى واقعك

في طريقنا إلى الفندق، توقفت سيارة صديقنا محمد من طولكرم وسط شارع رئيسي، بعد أن أصابها عطب في منتصف الليل

رأيتنا في قلب هذه المدينة العريقة ندفش سيارة اللانشيا. . وهي ترفض أن تشغل محركها. .

نحن نحاول وهي ترفض وبعد ساعة اكتشفنا أن سلكًا قفز من مكانه فأعدناه إلى قواعده سالمًا وتحركت السيارة

كم نعاني من السلك المنفلت في حياتنا فنتصور أن كل شيء قد انتهى ونستعد لما هو أكبر من الكارثة

نعتقد أن نهاية العالم قد اقتربت وأن كل ما على الأرض إلى زوال حتى ندرك في ما بعد أنها مسألة سلك قفز من مكانه

قالت لي فدوى: تجتاحني رغبة جنونية لأعرف ماذا يقول المهاجرون الذين استولوا على بيتي في بيسان

كيف يشعرون؟

بماذا يفكرون؟

هل استطيع أن أكون مطمئنة إلى أن من شرّدني وورثني لا يكرهني

هذا كل ما أطلبه منه إلى أن نتّفق

هل هناك إنسانية أعمق واكبر؟

ضحكت فدوى وواصلت:

هل تعرف؟

والدي كان يقول، لا توجد شعوب جبانة

يوجد حكومات جبانة

مكانها الطبيعي في المارستان

هل تستطيع أيها الإسرائيلي الساذج أن تأخذ حكومتك إلى المارستان؟

ضحكت هي وأنا ضحكت على حالنا وعلى عشقنا البريء

عشقان

عشق للبلاد وعشق لخارج البلاد باتجاهين معاكسين

قالت لي:

أرجوك أن تذهب إلى بيسان

عد إليها وابحث عن الإنسان

لا عن المكان

لا شيء يغير صورة المكان في ذهني

ما تغير عليه هو هؤلاء الغرباء الذين اقتحموا المدينة واغتصبوها

لا

ليس فقط إلى بيسان

إلى الناصرة وجنين وحيفا والقدس وأريحا

خذني معك في هذه الرحلة الخرافية إلى مواقع الروح ومنابت الذاكرة

إن من يعيش في المنفى لا يرى أجزاء الوطن

لا يرى ما يخصه فقط

في البداية يريد البيت

ثم يريد المدينة وبعدها يريد ما تبقى ثم يريد كل الوطن

فلسطين لي من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى البحر

إذهب إليها في سفرك المقبل واحملها معك عندما نلتقي

ما الذي بحثت عنه الشعوب في هذا الوطن خلال ستة آلاف عام؟

بحثت عن الطبيعة وعن الأرض وعن البحر وعن الله وعن جنة تجري من تحتها الأنهار

كل ذلك على حساب الإنسان ومن هو الإنسان في بيسان الأمس،

بيت شآن اليوم؟

كل أرض لها تاريخ وكل إنسان له أرض و لها تاريخ وأين يبدأ التاريخ؟

هكذا تساءلت فدوى حبيب عندما تورّطنا في حديث سفسطائي عبثي

توقفت عن الحديث وطلبت أن أحدّثها عن الناس الذين أعرفهم هناك

سأذهب إلى بيسان يا عزيزتي

سأذهب إلى بيسان

وأنا اليهودي الأخير

في صيف قائظ ذهبت إلى هناك

كان الوقت عصراً

خيوط الشمس انسلت بين أشجار الصنوبر والكينا

في الطريق إليها

كان الطقس حاراً وجافًا

بعد أن تجاوزت سجن شطة، شعرت بضيق غير مبرر

عن بعيد رأيت شبح رجل يتحرك على جانب الطريق

كان رجلا عجوزاً يلوّح بيده

لم يتوقف أحد ليأخذه معه

وقفت ودعوته للصعود

فتح الباب بيدين راجفتين

جلس إلى جانبي

قال:

شكرا لك

شكرا جزيلا

كل السائقين مرّوا من هنا دون أن يتوقّف أحد لعجوز مثلي ينتظر ساعتين على جانب الطريق

لم يبق هنا يهود طيبون

لم يبق في هذه البلاد أيّ يهودي

أنت اليهودي الوحيد الذي بقي هنا

أشكرك جداً

أنت يهودي طيب

تحدث كثيراً وبمرارة عن خيبة أمله من اليهود

لم يتوقّف عن الثرثرة طول الطريق

بعد كل جملة كان يشكرني مؤكداً أنني اليهودي الأخير الذي بقي في البلاد، لأن كل الآخرين مرّوا من أمامه ولم يتوقّفوا

لم أكشف له عن هُويتي

طمأنته إلى أنه ما زال يوجد يهود طيبون وربما أنهم لم ينتبهوا

قال:

أنت اليهودي الوحيد الذي بقي في هذه البلاد

علمت منه أنه متقاعد وقد توفيت زوجته قبل بضعة أعوام

كانت طيبة جداً

كما قال

كانت تساعد المساكين والفقراء وتقدم لهم الطعام

أليوم هو وحيد

لا يكفيه معاش التقاعد

قال لي أكثر من مرة :

أنت يهودي طيّب

أنا متقاعد

غدًا سأتوجّه إلى مدير البنك

زوجتي تُوفيت . . .

سألته عندما وصلنا إلى بيسان :

إلى أين تريد الوصول؟

قال :

إلى حيّ إلياهو

قلت : سآخذك إلى هناك

شكرًا لك

أنت يهودي طيّب

أنا متقاعد

زوجتي تُوفيت

غدًا . . .

للمرة السابعة حدثني عن زوجته

طلب منّي أن أتوقف عندما اقتربنا من بيته

مدّ يده الراجفة إلى باب السيارة

تمكن من فتحه بصعوبة بالغة

أخرج رجله ثم مدّ يده ليصافحني ويشكرني

قال بانفعال :

شكرًا لك وسلام عليك . . سلام على عام يسرائيل- شعب إسرائيل

شدّ على قبضتي وذكّرني أنني اليهودي الوحيد الذي بقي في البلاد وأن زوجته كانت طيبة

قلت له :

سلام عليك وعلى عام يسرائيل وعلى الشعب الفلسطيني أيضًا

سحبتُ يدي من يده

حدق فيّ

إنكتَمَ تمامًا

سألني بصوت راجف :

ماذا تقول؟

تمتم :

آه . . نعم . . سلام . . هل أنت؟ سلام . . شكرًا . . آه . .

نزل من السيارة

وقف بتثاقل على رجليه

إرتسمت على وجهه المتجعد ابتسامة غريبة وهو يقول : شكرًا

لم يقل إنني اليهودي الوحيد الذي بقي في البلاد

تحركت

نظرت إليه في المرآة

كان واقفًا يحدجني بنظراته إلى أن اختفى عن أنظاري خلف لافتة كتب عليها: بيت شآن مدينة سياحية

رحلة الأسماء

من هنا يبدأ السفر في الوطن يا عزيزتي

من الأسماء

من يطلق الأسماء على الأرض؟ أو لماذا لا تتغير أسماء المواقع مع تغير معالمها؟

لماذا تتغيّر معالم المواقع مع تغيُّر أسمائها؟ وهل الوطن جغرافيا وتاريخ وقصيدة؟

كيف يبقى الوطن في الذاكرة وكيف يعود إلى الوعي؟

هل نتخلى عنه لأنه يتخلى عنّا؟

هل نموت من أجله؟

هكذا؟ بهذه البساطة؟ يأتي آخرون ويأخذونه ثم يأتي آخرون ويأخذونه هم أيضًا. . .

تغيّرت الأسماء كثيرًا

ألمجيدل صارت مجدال والبصّة صارت شلومي والجاعونة صارت كريات شمونيه

تغيّرت الأسماء وتغيّرت الملامح

لماذا يخاف المحتلون من أسماء المكان؟

لماذا يعتقدون أن الاسم يثبت بقاءهم؟

ألاسم يخلد ذكرهم فقط

يبقي مباذلهم وشرورهم وسمعتهم السيئة لأنهم ذاهبون والمكان باق باسمهم إلى أن تزول رائحتهم الكريهة

كيف نبدأ رحلتنا هنا على الأرض التي أنجبتنا؟

هذه الأرض ليس لها بداية ولا نهاية، وليس لها شرق وغرب ولا شمال ولا جنوب

ألغزاة سرقوا بحرها وصحراءها وماضيها وأمنياتها ولا نبدأ رحلة إلا من جهة الروح، فمن أين نبدأ يا عزيزتي فدوى؟

سنأتي على الأسماء من شمالها إلى جنوبها

سنسير على طريق فلسطيني تعذّب لأنه أراد أن يمارس إنسانيته كما آمن بها وصُلب لأنه أراد ما لم يرده الآخرون، فهل نبدأ يا عزيزتي من الفكرة؟ من الحلم؟ من المدينة التي تثير الرهبة وهي غيبية إلى حدود الجنون وواقعية إلى حدود الابتذال

بين جنونها وابتذالها تقاوم الحصار وتنبض فيها الحياة وتحلم بأن تصبح عاصمة لمكان متخَيَّل وهي تقاوم وتواصل الحياة وتبلع الكثير من الهموم والمواجع

في هذه المدينة لا يطرحون إلا الأسئلة المصيرية

هناك يصير كل شيء مصيريًا

ليس فيها مُتّسَع للهزل والسخرية

مدينة تتظاهر بالجِدّية لأنها متواصلة مع عمق التاريخ

الناصرة، القريبة من بيسان، نجعلها محطة الأسماء والهموم الأولى

هل تعرفين يا صديقتي ما معنى أن تبدأ رحلتك في وطنك بثقل الهموم؟

أشعر بأنني أحكي لك كأبٍ يقدم أولادَه بحزن وألم وخجل

فالبكر عاطل عن العمل والأصغر مدمن على المخدِّرات والبنت ضحية اغتصاب وليس فيهم ما يبعث على الأمل إلا الرغبة في تسريع خلاصهم

في الكنيسة اهتم بحضورنا راهب شاب لأننا قادمون من نصف آخر لفلسطين

كل نصف هو آخر بالنسبة للنصف الثاني، وقال كأنه يسخر من التاريخ أو من الطغاة:

أمر الملك بقتل الصبي النصراوي لأنه خاف منه على عرشه ولكن الصبي هنا بدأ رسالته

هكذا تبدأ الجِدية في هذه المدينة، وبعد هذه الفاتحة لا نملك إلا أن نتحدّث بجِدّية عن الأمس واليوم

في الطريق الملتوي من الناصرة إلى المرج، صار حديثنا عن الحكام والطغاة وعن المعجزات، فسأل أحدنا: كم من معجزة سيحتاج الفلسطيني اليوم لكي يحقق رسالته؟

أجاب آخر:

ألفلسطيني اليوم يحمل صليبه على ظهره مثلما تحمل السلحفاة درعها ويقطع طريق الآلام

إن مجرّد بقائه على قيد الحياة هو معجزة

يتشعّب الحديث عن المعجزات وتتشابك الأفكار والمواقف ولا يفكّها سوى مرج ابن عامر، السهل المنبسط من جبل الطور إلى البحر

كان المرج يتحول في الربيع إلى بساط أخضر، وفي الصيف يصفرّ باصفرار السنابل، وفي الخريف يعود إليه لونه الخمري

كان المرج يبدل ألوانه من موسم إلى موسم ومن فصل إلى فصل وينبت الأغنية الشعبية التي تتغزل بالأرض والفتيات الجميلات

داهمه الإسمنت والحجر ولم تعد السنابل تطيقه فهجرته وبحثت عن مرج آخر

لا يثير فينا السهل أي إعجاب، فقد صار مكانًا عاديًا تمامًا، وكنا بحاجة لاستحضار الحكاية والذاكرة كي نعيده إلينا

هنا ألقوا بالناس الذين شُرّدوهم وكانوا في طريقهم إلى جنين

كان ذلك في كانون الأول

تحول المرج إلى مستنقع

هنا غرق ثلاثة عشر فلسطينيا في الماء والوحل

لا يُحتمل هذا التذكُّر في رحلة البحث عن المعجزات

لن نلجأ إلى المعجزات ، يا عزيزتي ، كي نحرر أنفسنا ، فلن يأتي الفرج من الغيب

لنواصل في عالمنا المحسوس إلى جنين

عندما تنام هذه المدينة تغرق في سبات عميق وعندما تستيقظ لا تكفّ عن الضجيج والصخب

في باطنها تاريخ قديم وعريق قد يبدأ من عين الماء

عين السنجب

نفق في الصخر يوصل بين الموقع السكني القديم على التلة وبين عين الماء

على التلة كانت مدينة بلعمة الكنعانية

في الوادي كان النبع

وكانت البئر مصدر الحياة

الصراع على الماء هو صراع أزلي

ألحدّ الفاصل بين الصحراء وبين الجبل

ما من قرية أو مدينة إلا وأقيمت حول النبع

مدينة بلعمة أمّنت وصول الماء إليها عبر النفق

حفروا في الصخر عندما كانت المدينة مُهدَّدة بحصار الغزاة

كان النفق يربط البئر بمركز المدينة

لا تهمّ التفاصيل التاريخية

كل ما يهمّك وأنت تنظر إلى هذا التاريخ هو أن تكون واثقًا بأن هذا المكان لك

لك دون سواك

أنت جئت من هناك وبقيت هناك ولن ينتزعوك

قال الشيخ الجنيني:

نزل قوم غرباء عند عين الماء وطلب أهل القرية من ملكهم بلعام أن يلعن هؤلاء الغرباء

اللعنة كانت تعني استباحة طردهم وملاحقتهم

رفض الملك

هؤلاء الغرباء لم يكونوا غزاة ولا محتلين ولم يشكّلوا خطرًا على أحد

كانوا عابري سبيل

أصرّ أهل المدينة على طلب اللعنة فاشترط الملك امتحان أخلاق الغرباء قبل أن يصدر حُكْمًا ، فأرسل إليهم نساء عاريات ، وعندما رأوهن أداروا وجوههم خشية وحياء، فقال بلعام لرعاياه :

إنهم قوم شرفاء، فكيف ألعنهم؟

لم يقنع أهل المدينة الذين كانوا يخافون من مزاحمتهم على مصادر الماء

أصرّوا وألحّوا فلعن الملك الغرباء

بعد أيام فقد البصر

أنهى الشيخ حكايته :

هذه حكايتي على ذمّة الراوي

صارت أو ما صارت

العلم عند الله

تحت شجرة وارفة في حديقة واسعة جلسنا نستعيد الحكاية

هل كان على الملك أن ينصاع إلى رعاياه، فيلعن هؤلاء الغرباء؟ وهل الشعب مُحِقّ دائما؟

ألا تخطىء الشعوب مثلما يخطىء الملوك؟

ألا تدفع الشعوب ملوكها إلى ارتكاب الخطيئة؟

ألا تتعب الشعوب؟ هل حقا تُمهل لكن لا تُهمل؟

لماذا اختفت الشعوب التي عاشت هنا ولم يبق منها سوى آثارها؟

من يجرؤ على محاسبة شعب في عصر مذابح الشعوب بأيدي الطُّغَم في الغرب والشرق؟

حكاية بلعام أخذتنا بعيدًا في السياسة فتوقّفنا عن الحديث المباح وواصلنا بحثنا عن المعجزة الأخرى في برقين عبر وادٍ جميل تبدو فيه أشجار الرمان واللوز والتين مُنهَكة من تقلّبات الزمن وشُحّ المياه وتحنّ إلى شبابها ونضرتها

أعيدوا إلى هذا المكان هيبته وجماله وحكايته!

موقع يتآكل يومًا بعد يوم، ككل المواقع التي نأتي إليها عبر الأزقّة الضيقة من مركز القرية أو عبر الطريق الترابي الأبيض

من الوادي إلى الجبل

تاريخ حافل محفور في الصخر وجهد بشري لا حدود له

كان يومًا للآخرين واليوم هو لنا

كل ما يبقيه الغزاة يصبح لنا

هذا هو معنى السيادة على المكان

هل يمكن تقاسم السيادة على التاريخ؟

قد يأتي الجواب من سبسطية، فالى هناك

أبو حافظ شيخ في الستينات من عمره

يبدو من تجاعيد وجهه وكلامه الأبويّ الرزين أن الحياة لم تعطه أيّة تسهيلات

نظر معنا إلى أعمدة سبسطية التي ما زالت منتصبة على جانبَي الطريق

قال: ما يضيع حق وراه مطالب

تمددنا على الأرض

على هذه الأرض أُقيمت مدينة السامرة التي عرفت عصور ازدهار وعنفوان، وعرفت عصور انهيار وسقوط

لا يعرف ماذا بقي من آثارها الأولى، فالمخفيّ منها هو أكثر بكثير من البائن

أخذتنا سبسطية وحكايات أبي حافظ بعيداً في التاريخ وفي الحُلم

تقاطعت كل الطرق من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب

سكة الحديد من الحجاز إلى دمشق عبرت من هناك

بقايا محطة المسعودية

الخطوط الحديدية ممتدة على الأرض في انتظار أن يعود زمان الوصل وأن تعود البلاد إلى تاريخها

محطة مركزية يلتقي فيها الشرق بالغرب والجنوب بالشمال

محطة العرب المركزية على الطريق من بغداد إلى القاهرة ثم نابلس

ستة آلاف عام مرت على هذا الموقع الفلسطيني الذي توالت عليه الشعوب من الأشوريين إلى الفارسيين إلى إسكندر الكبير

قال الكاهن السامري على جبل جرزيم:

نحن بنو إسرائيل الحقيقيون وبيننا وبين اليهود سبعة آلاف اختلاف

نحن احتفظنا بالتوراة الحقيقية وبالكتب الخمسة الأولى

نحن نطبّقها بحذافيرها وهنا يعيش اليهود الحقيقيون

الأرض لمن كان عليها ولم يفارقها ولمن تعامل معها بالحسنى

شرب من مائها وأكل من خضارها وتنفس هواءها

بينما كنا غائبين في نقاش عن المستقبل والمصير انحرفت بنا السيارة إلى اليمين

أثار هذا الانحراف المفاجىء فزعنا فتمسّكنا بالمقاعد

لم نهدأ إلا بعد أن قال السائق:

لن نسافر على الطريق الالتفافي

طريق الغزاة

سنواصل على الطريق القديم

إلى القدس

أصعب ما في الأمر، يا عزيزتي فدوى، أننا لم نعد نعرف كيف ندخلها

من كل الجهات وكل البوابات

من التاريخ ومن الحاضر

في سوقها التي تعبق بروائح البهارات والتوابل

جلس شيخ ينتظر ما يرزقه الله

بساطة الحياة تشدّنا إلى الماضي والتاريخ

كلما زرتها وجدت فيها شيئًا أجمل لم تره من قبل

من هناك يبدأ طريق الآلام

حالة خالدة من حالات المعاناة

معاناة الفرد أمام السلطة

معاناة قائل الحقّ أمام قوى الباطل

ألسير على طريق الآلام، يجعلنا نفكر بكل هذا

صورة قديمة لما نفكر به اليوم، فنستمدّ منها قدرة على مواصلة الطريق، رغم القمع والطغيان

تغيرت كثيرًا معالم القدس

وجهها اليوم ليس كوجهها بالأمس وقلبها لم ولن يتغير

الحياة التي لا تهدأ في أسواقها وأزقّتها

للقدس نبضٌ لا يحرك من يسكنها أو يأتي إليها فقط

للقدس نبض يحرك كل من يشعر معها بأيّة علاقة من بعيد أو قريب

مدينة ترفض أن تكون رمزًا

إنها واقع وحالة غير عادية

التاريخ لا يتوقّف

لا شيء خالد على هذه الأرض

كل شيء يتغيّر ثم يزول ثم يولد من جديد

كثيرون مرّوا من هنا

كثيرون احتلوا وهدموا وبنَوا وذهبوا وجاء غيرهم

ولا يبقى سوى قصص التاريخ

إذن

ليكن سفرنا القادم إلى عمق التاريخ

يا عزيزتي فدوى

سنواصل السفر

نغيب في التاريخ

سائقنا اليوم هو أبو عيسى اللداوي

يحمل معه صورة سريالية لمدينة اللد

صورة لما كانت عليه قبل أن يولد، ولكنها تسلّلت إلى ذاكرته

صورة لما هي عليه بعد أن رآها لأول مرة

يحاول أن يبعد خلقها المشوّه عن الذاكرة

حملنا في سيارته، وكنّا عشرة فلسطينيين في سفر من رام الله إلى أريحا

في لحظة وجوم وشيء من الخوف الذي تملّكنا عند المنعطفات الحادّة والانحدارات الشديدة اعترانا إحساس بأن كل الشعب الفلسطيني ممثل في سيارة أبي عيسى

كنّا حالة مصغّرة للوطن والمنفى والعودة والنكبة والفرح والألم والرصانة والسخرية والمعرفة والجهل والأكثر من ذلك

جئنا نطلب المزيد من كل شيء فأدهشنا التعامل مع التفاصيل الصغيرة للوطن

كان مصيرنا معلقًا بأبي عيسى، وقد انتصر مكيّف الهواء بشكل بطولي على حرارة الطقس وسخونة الانحدار

نحن فريق من الجوّالة

هكذا أقنعنا أنفسنا لكي نرى جزءًا من الوطن بعقولنا لا بقلوبنا فقط

ننقل ما نشاهد إلى الذين لا يقدرون حتى على مشاهدته بعيونهم المجردة

إلى أولئك الذين حُرموا من البصر

أو من مجرد الوصول إلى هذا المكان الذي يبدأ التاريخ منه

هنا بدأت الذاكرة وهنا مكان السؤال الأبدي

ماذا يعني الوطن؟

ألوطن! ليس شعارًا وليس فكرة هُلامية وليس قصيدة وليس حالة غير معرّفة

ألوطن! ليس جسدًا كبيرًا لا يحتمل

ليس ثقيلا وليس خفيفا

ليس حبًا وليس غضبًا

ليس المثل العليا وليس القيم الكبيرة

هو التفاصيل الصغيرة

نبتة عارية في الصحراء

زهرة قرنفل في الحوض

زقاق قديم

عتبة بيت من حجر

غنمة رأسها في الأرض

غزالة شاردة

شيخ ينتظر على قارعة الطريق

عباءة الشيخ المطويّة على ذراعه

هو ما يبنيه الناس

هو ما يهدمه الناس

هو الناس أولا

وآخرًا

هو نحن

هو بيتي الذي ولدت فيه وعلمني الحرارة والبرودة وحليب الثدي

هو حارتي التي كبرتُ فيها ولقّنتها الشيطنة فلقّنتْني الشتائم

ألانتماء في المنفى هو انتماء إلى الناس ، إلى التاريخ

الانتماء إلى التاريخ؟

كيف نعود إلى هذا التاريخ وأين هي بوابته؟

أقنعنا بعض الأصدقاء بأن أفضل البوابات للدخول إلى التاريخ هي أريحا، وكان ذلك في صباح يوم جمعة

خرجنا من رام الله

رام الله جميلة جدًا بدون صخب الصباح، فالشوارع ليست فارغة ولكنها ليست مكتظّة

عندما تنام رام الله تبدو قرية وادعة، وعندما تفيق يكتسحها جنون الحركة والانفعال

خرجنا منها في لحظة تثاؤب بين نومها ويقظتها

عندما وصلنا إلى تل النصبة على يمين الشارع مددنا أعناقنا لنرى بقايا مدينة وبعض المعاصر القديمة

إنعطف بنا أبو عيسى يسارًا

أزاح نظراتنا عن أم الشرايط وكفر عقب ومخيم قلنديا

المخيم يحمل اسم ضابط انجليزي!!

لماذا ظلت أسماؤهم هنا؟

لماذا لم يأخذوا أسماءهم معهم؟

الشارع يقطع جبلا مشقوقًا

ما أكثر الشقوق في جبالنا!

يبدو أنّه ما من هدف لتهشيم الجبال إلا إظهار الجبروت

كأن الغزاة يقولون:

من يقدر على قصم الجبل يقدر على شقّ الإنسان

إنكسار هيبة الجبل يثير فينا الغضب حتى وان كان يسهّل علينا الطريق ويختصرها

هل حقًا يختصرون علينا الطريق؟

إذن

لماذا اضطُررنا إلى اللجوء إلى شوارع التفافية ملتوية؟

المحسوم! الحاجز اللعين! نقطة التفتيش

هل سيأخذون أسماءهم معهم؟

في حيفا بين بلد الشيخ وبين الحليصة مفترق يسمى تشيك بوينت

أهلنا يلفظونها: تشيك بوسط

كانت هناك قرية صغيرة

إسمها حوّاسة ولكنها تحمل اسمها الغريب أكثر من خمسين عامًا

أهل حيفا يسمونها اليوم أيضا وادي الكحول لكثرة النوادي الليلية وبيوت الدعارة فيها

في ستين عامًا تبدّلت وتقلّبت وتغيّرت أسماء المكان

ألغزاة يذهبون ويتركون الأسماء كما يتركون علب السردين الفارغة والفَشَك المفرغ من الرصاص

إحذروا تحوّل المحسوم!

إذا كان الشيء بالشيء يذكر فما نقلتنا إلى حيفا ووادي الكحول إلا رَحاب الزانية

عندما أطلت قرية جَبَع على يسار الشارع الملتوي إذ بدت صورة حيّة للقرية الفلسطينية كما تُوصَف في الكتب وتُحفَظ في الذاكرة

يُحكى على ذمّة الراوي أن يهوشع بن نون قبل أن يحتلّ أريحا

بعث باثنين لفحص الطرق المؤدّية إلى المدينة

دخلها بعون رحاب الزانية

وقعت معركة حامية . .

هذه المنطقة كانت عامرة ومزدهرة

تقلب عليها الدهر وأكل وشرب

ظلمها مثلما تظلم الطبيعة الجبال الجرداء ومثلما يظلم الإنسان الإنسان

في أجواء الظلم والحيرة والنقمة

تنظر مليًا إلى مضارب عرب الجهالين

صمدوا في وجه الريح والظلمة والعراء وظلوا في مواقعهم

من أين يدخلون إلى مدينة النخيل والقمر؟

من التاريخ

من بوابته الأولى

ليس هناك مدينة على الأرض نسجت حولها الحكايات والخرافات مثل هذه المدينة

أول مدينة في التاريخ

ليس لأن التاريخ أنصفها بل لأنه لم ينصفها

إنها مدن على مدن

الشمس تأكل منها والملح يأكل منها والزلازل والعساكر

لم يبق فيها حجر على حجر

دخلها يهوشع بن نون

قتل جميع من فيها ونهبها وأحرقها

لعن كل من يحاول بناءها من جديد

بناها الملك عجلون الموآبي وهيرودوس الكبير

كلهم تركوا فيها آثارهم

إحدى وعشرون طبقة تراكمت على هذه المدينة

كل هذا التاريخ يجتمع في بقعة صغيرة

على تل يُخفي تحته طبقات التاريخ المتآكلة

تل السلطان

هنا في هذه البقعة بدأت الحضارة المدنية

العمل في الزراعة حول عين الماء التي لم يتوقّف تدفُّقها

بين أكوام الحجارة البدائية على التل

يقع برج المدينة القديمة

ألمياه الجارية في العين تبعث بالحياة في المدينة الجديدة

تجلس في ظل شجرة كبيرة

تفكر وتتأمل

لا يخطر ببالك أنك على أرض صحراوية

ما يفصل بين التاريخ وحضارة اليوم بوابة يجلس عندها حارس يقطع التذاكر للدخول إلى التل

إلى اليسار تدخل إلى التاريخ

إلى اليمين تدخل إلى حضارة اليوم

ساحة فسيحة تقف عليها حافلات السيّاح

عمارة كبيرة تعجّ بالحياة:

كانيون أريحا

ألمُول

ألمجمع التجاري

تقطع الشارع المعبّد

تجد نفسك في شكل آخر من هذه الثقافة

مطعم عصري

المحطة السفلى للقطار الهوائي الذي يربط بين هذه الثقافة ودير القرنطل المعلق على الجبل

على هذا الجبل كانت التجربة..

إمتحان آخر من امتحانات الأنبياء

هناك قيل:

ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان

لم يكن القصد أن لا يكتفي المرء بالخبز وحده

يعني أن يأكل معه الشوارما والفلافل والشيش كباب . .

كما تباع بكثرة في المجمع التجاري

كان يقصد :

بكل كلمة تخرج من فم الله

لو لم يدركنا المغيب لوصلنا في السلة المعلَّقة بالهواء إلى الدير وسألنا المعتكفين المتقشّفين :

هل يستطيع الإنسان أن يعيش على الخبز وحده وكلام الله ؟

أطلعت يوسف على السؤال الذي خطر ببالي

ضحك وسألني :

هل تريد أن تتبنى دور إبليس ؟

قلت :

معاذ الله ! وما علاقة إبليس ؟

أجاب :

حاول اختبار السيد المسيح في هذا المكان

سأله أن يحوّل الحجارة إلى خبز

إن كان حقًا نبيًا

أجابه المسيح :

ليس بالخبز وحده

هل تريد اختبار هؤلاء النُسّاك المتزهّدين؟

دعهم وشأنهم يا رجل!

قلت:

يبدو حقّاً أن الحياة اكتفاء وقناعة

ذهبنا إلى ما تركه لنا العرب في هذه البقعة التي تثير الأسئلة المحيّرة

فلسطين هي المكان الوحيد الذي حمل عشرة آلاف عام من البناء والهدم

ألسلام والحرب

ألحضارة والتخلف

ألحياة والموت

ألاستقلال والاحتلال

شعوب دخلت إلى هنا

شعوب انصرفت من هنا

شعوب اندثرت هنا

جيوش حاصرت

جيوش اقتحمت

جيوش دُفنت في هذه الأرض الرمليّة

ظلّ الماء يجري فياضًا في عين السلطان

وعين الديوك

وعين النويعمة

وعين القلط

وعين العُوجا . .

ما الذي تركه العرب الأوائل على هذه البقعة؟

على خربة المَفْجَر

يقع قصر هشام الأُموي

بعد يوم طويل من اللقاء بالتاريخ

ترتسم في المخيّلة لوحة فسيفسائية لكلّ المشاهد والصُوَر

للعظَمة والتواضع

للفقر والغنى

للماضي والحاضر

للقصور والأكواخ

أمام هذه اللوحة تحاول أن تبحث عن ذاتك الجماعية . .

أين أنت كعربي؟

ماذا ترك أجدادك هنا؟

ألقصر . .

ما الذي يبقى على قيد الحياة؟

ثقافة الحاكم أم ثقافة الشعب؟

تسأل نفسك أمام قصور الخلفاء والملوك والزعماء

لمن هذا؟

لهم أم لشعوبهم؟

هو لهم في حياتهم

في لهوهم ومُجونهم ورَخائهم

بعد أن ينصرفوا

تبقى الحجارة

يبقى القصر نصبًا تذكاريًا للعمال الذين بنَوه . .

للمسحوقين الذين نقشوا الحجارة وحملوها على أكتافهم ووضعوها واحدًا فوق الآخر

للفنانين والمهندسين الذين رسموا وخطّطوا

هؤلاء لا ينعَمون بالقصر في حياتهم

بعد مئات السنين

عندما يأتي أناس مثلنا ليتعرفوا على ما تصنعه سواعد الغلابى

نذكرهم بكثير من الإعجاب

نذكر حكامهم بكثير من الازدراء

ألكادحون البسطاء الطيبون

مجهولو الأسماء والهُويّة

تركوا عرق جباههم على الحجارة الصلدة

تركوا عطاء سواعدهم على الجدران

تركوا إبداعهم في الرسومات الملوّنة وأرضيّة الفُسَيفساء

هؤلاء نذكرهم وهم الخالدون

لا يهمّ إن كان هشام بن عبد الملك أو الوليد بن يزيد بنى القصر

الأهمّ أنه لا يمكن لهذه المأثرة أن تكون لولا مئات العمال المسحوقين

مدخل كبير

حارس يحمل رمحًا وسيفًا

ينتصب على اليسار

حارس آخر مثله على اليمين

هكذا تبدو الصورة في الخيال

ألخيال لا يعرف الحدود

يخلط بين الماضي والحاضر

يُهَيّأ لك في حضرة الحارس أنّ ما ستفعله بعد لحظات هو أن تضع يدك على جيبك

تسحب بطاقة الهُوية

تقدّمها إلى الحارس كما تفعل أمام قصور ملوك وزعماء اليوم

تثبت له أنّ أنت هو أنت

يبدأ عملية التفتيش والاستجواب:

هل تحمل سلاحًا؟

موادّ متفجرة؟

ضع كل شيء في جيوبك على الطاولة

أُدخُل عبر بوابة صغيرة فيها أجهزة

إذا نسيت قلمًا في جيبك أو إذا ظلت ساعتك اليابانية على زندك

ستصفّر وتزمر

لا . .

هذا يحدث اليوم

أيام الخلفاء الأُمَويين لم تكن تدخل إلى القصر إلا إذا كنت وزيرًا أو شاعرًا يمدح

أو جارية

أو راقصة

أو بهلوانيًا يخفّف عن الملك همومه

أو أحد وشاة المملكة . .

أما أن تكون مواطنًا عاديًا

فالقصور مِنطقة تُحرَّم عليك إلا بعد مئات السنين . .

يوم تأتيها سائحًا

تركنا خيالنا الشرقي عند البوابة الرئيسة ذات الهَيبة بأعمدتها وتيجانها المنقوشة

عاد إلينا خيالنا في فناء القصر

في حديقته وأعمدته الرخامية

صرنا نعبث بخواطر عشوائية عن مجامع الخلان وحفلات الغناء في ضوء قمر أريحا الساطع وطقسها الدافىء في الشتاء ونسَماتها العليلة

توقّفنا عن المداعبة عندما نزلنا في سُلّم إلى الحمّام

ألتحفة المعمارية ذات أرضية الفسيفساء والحمام البارد

الجاكوزي العربي

فخر الحضارة العربية

هزّة أرضية ضربت القصر قبل أن يستمتع به الخليفة وحاشيته

ولكن

من ترك الفحم المحروق على جدران المواقد؟

جوعنا لمعرفة التاريخ لم يكن أقوى من خَواء مَعِداتنا

قاربت شمس أريحا على الغروب

كانت قُوانا منهكة

حملنا أبو عيسى بسيارته إلى منتزه يطل على عين الديوك

للمكان

كل مكان

ذاكرته الخصبة

تعود إلى هذه الذاكرة

لا لتفهم التاريخ

بل لتفهم الحاضر

لتستمدّ قدرة جديدة على مواصلة الحياة

التاريخ

حالات من النهوض والسقوط

عندما تلتقي بتاريخ الآخرين، تختزل تاريخك الخاص

تسحبه شهادة حيّة على أن ما يبقى في الذاكرة يبقى على قيد الحياة

أريحا أولا

صارت مصطلحًا سياسيًا

يكمّل عشرة آلاف عام من السقوط والنهوض

من الموت والحياة

ألحياة من جديد

أليوم يتوّج رحلة طويلة

رحلة مدينة ترفض الاختفاء

رحلة مجموعة صغيرة من الفلسطينيين

لا يأتون إلى عالم غريب يُبهجهم ظاهرُه

يأتون للبحث عن ذاكرتهم في عالم يُبهجهم باطنُه

إسحق

وُلد في نابلس

والده من القدس

جدّه من الجزائر

جدته من المغرب

أمه نابلسية . .

من يملك هذا الانتماء المتفرع على العالم العربي

تبدو له المسافات الأخرى قصيرة

سأل :

ما رأيكم أن تأخذوني إلى نابلس ثم تعودون إلى رام الله؟

وجدتُنا نمتعض ونتأفّف ونحتجّ على منطقه

كيف يمكن الوصول من أريحا إلى رام الله عن طريق نابلس؟

طريق التفافي لا يقدر عليه حتى الاحتلال البغيض!

استنجد بزميل نابلسي آخر انتصر علينا بقوله :

أقترح عليكم أن تأتوا إلى نابلس أولا لمواصلة سبر أغوار الذاكرة

نابلس لا تقلّ أهمية عن أريحا

إنها ثلاث مدن فوق بعضها البعض

لم تأخذ حقها تاريخيًا وحضاريًا . .

إن جئتم تُنصفوها

ثم!

ألا تُحبّون الكنافة النابلسية؟

كان يمكن أن نتنازل عن العدالة التاريخية

لكن أن نتنازل عن الكنافة؟

هذا أمر ليس له علاقة بالفكر!

إلى نابلس يا أبا عيسى!

مرة أخرى

ألطرق الملتوية

ألطلعات والنزلات

ثُكْنات الجيش

ألمستوطنات المزروعة في السهول وعلى قمم الجبال

قال حافظ مداعبًا:

إن كنتم ستعودون إلى رام الله عن طريق نابلس

فما رأيكم أن تعودوا إليها عن طريق البحر الميت!؟

ضحكنا على هذا العبث بالمسافات

لماذا البحر؟

لأنني أسكن في طولكرم

قريبة من البحر ولا أستطيع الوصول إليه

عندما كنت صغيرًا كنت أقف على أعلى بناية في طولكرم لأرى البحر..

سألناه باستهجان:

أنت تتحدّث عن البحر المتوسط وذكرت البحر الميت

قال:

لا يهمّ

ألمتوسط . . .

ألميت

ألمهمّ البحر . .

أيّ بحر

أنا شاب يبحث عن بحر !

بعد أن نزل الشباب في نابلس . .

أعادنا أبو عيسى إلى رام الله بسلام

كان عليّ أن أعود إلى مكاني على الكرمل . .

تضــامنّا مع الزمــلاء الذين لا يعــرفــون البــحــر من رام الله ونابلس وطولكرم

تنازلتُ عن طريق الساحل الأقصر والأسهل

إخترت أن أقطع الوطن الأكبر في وسطه

من الجنوب إلى الشمال . .

أعرف هذا الطريق منذ ثلاثين عامًا وأكثر

بعد رحلة أريحا صرت أُحسّ به بشكل آخر وأراه بشكل آخر

إنه امتداد لتل السلطان

لعشرة آلاف عام . .

كان خيالي يسرح ويمرح

كنت أغيب في شطحات لا يوقظني منها سوى الالتواءات الحادّة

وفرامل السيارة

ولكن

يبدو أن الطريق الذي يبدأ بالمحسوم سينتهي بالمحسوم

هذه هي سُنّة الاحتلال

سيارة شرطة وقفت على جانب الطريق

بعد مفرق سبسطية

أوقفني شرطي

طلب رخص السيارة !

بحثتُ عنها في كل مكان

لم أجدها

قلت له :

يبدو أنني نسيتها في حقيبتي ونسيت حقيبتي في البيت !

قال :

سأسجل لك مخالفة لئلا تنساها في حياتك !

لا حاجة للمخالفة !

لن أنسى

طبعا لن أنسى

هنا كان احتلال . .

كان شرطي يصطاد أُناسًا مثلي قرروا العودة إلى التاريخ البعيد فابتعدوا عن حاضرهم ليوم واحد

غابوا في شطحة الماضي

أفاقوا

صفعهم واقع مرير

كابوس يربض على صدورهم

ما أجمل الاحتلال لو أن جرائمه هي فقط مخالفات السير

العبث مرة أخرى

عود على بدء

أطلّت عليّ جبال الكرمل

أضواء قريتي النائمة

إنتهتْ رحلة اليوم الواحد

بدأتْ رحلة العمر

جلستُ خلف طاولتي

حملتُ قلمي

صرتُ أصوغ الرحلة من جديد . .

هل اكتشفت معنى جديدًا للوطن بعد هذه الرحلة؟

ربما

لا أعرف ما هو هذا المعنى

كل ما أعرفه هو أنني صرت أحبّه أكثر . .

أكلت من لحمه وشربت من دمه

فصار فيّ وصرت فيه . .

حالة عبثية يا عزيزتي

كل شيء يتبدّل

لا معنى للكلمات

تاريخ طويل يمضي

كما في شريط سينمائي

تحاول أن تحشر أبطالك في مربع صغير

أحيانًا تراهم يتنازعون

تعتقد أنهم يتعانقون

في أحيان أخرى يتعانقون

تعتقد أن الواحد يحاول أن يخنق الآخر

وأنت

أي أنا

عليّ أن أفصل بينهم أو أن أقرّب فيما بينهم على طاولة المونتاج

بعد اليوم

سنقطع ما قطعناه في ظل جدار من الإسمنت

يرتفع بضعة أمتار

عليه أسلاك حديدية

كتلك الأسلاك

على زواياه أبراج مراقبة

كتلك ألأبراج

جدار يقصم الأرض والبيوت والزيتون

يمتد إلى ما لا نهاية

لا يرعب بمنظره الخارجي فقط

بل بما يثير من تداعيات

بما يستحضر من أماكن أخرى

جدارات كانت في مواقع أخرى

هناك

في منفاك القسري

سأقمع خيالي لأحرّر نفسي من خوف مريع

سأعود إلى بيسان

كما خرجت منها

سأعود إليك

لأعيدك إليها

نعم

لم أعرف كيف مضى ذلك الخريف
كنت أستيقظ في الصباح
أشغل مُحرِّك السيارة
أسافر إلى بيسان
أبحث عن الناس
عن بشر أجلس معهم وأتحدث
أسأل وأسجل وأعود إلى طاولتي
أستمع من جديد إلى أقوالهم
أكتب وأمزّق وأُعيد الكتابة
أحاول أن أحشر أبطالي في مربّع صغير
أنتظر وصول تذكرة من عاصمة أوروبية
أدفع ضريبة السفر
أحلّق فوق البحر
أثرثر في السياسة الشرقية
أذهب إلى مطعم لبناني في قلب باريس
هناك ألتقي فدوى حبيب ابنة السابعة والخمسين
أركب طائرة
أعود
مرة أخرى استيقظ في الصباح

أشغل محرّك السيارة

أنطلق

أمرّ بجانب سجن شطة وأدخل المدينة التي أقيمت قبل ستة آلاف عام

كانت تسمى سكيتوبوليس

أسماها أجدادنا بيسان

أسماها القادمون من جبال بعيدة بيت شآن

عند مداخلها لافتة كبيرة

بيت شآن مدينة سياحية

أنت

أي أنا

لا أدخلها سائحًا

أدخلها زائرًا من نوع آخر

ليس معرفة وليس نكرة

أحمل رسالة ليست معرفة وليست نكرة

أعدك يا عزيزتي فدوى أن أعود إليك في الربيع القادم

إسمحي لي أن يكون هذا الشتاء كله لي

لنا نحن الذين نعيش في الوطن

نحن المساكين المعذبين في هذا الثقب الصغير من العالم

مكان

مجرّد مكان

يكاد لا يظهر على الخارطة لكننا متّفقون أنه

مكان الذاكرة

وأنه

القنبلة المفخّخة التي تهدّد الكرة الأرضية

سأعود إليك في الربيع القادم

أنت حلم

كما تقولين

ونحن واقع

ولكن أي واقع نحن وأي حلم أنت؟

وأنا كالأهبل أعدو بيني وبينك

وبيني وبينهم كمن يعاني انفصامًا بلا بداية ولا نهاية

يتأرجح بين السماء والأرض

وأنتِ

لم تُخفي حبك لي لأنني معلّق بين الحلم والواقع

ولأنني أحمي ذاكرة المكان

في المنطقة الحرام

قلت لك

إنني أشعر أحيانًا أنني ملاك

ملاك يتعذّب

أو مجنون البلد

طيّب وظريف ومحبوب

لا أحد يأخذ كلماته على محمل الجِدّ إلا عندما يحمل الفأل ويزفّ بشرى مروعة

عندما يضحك ويبتسم ويمزح ويسخر

يسمى الأهبل

أهبل البلد

إذن

عودي أنت إلى هذيانك وأحلامك

سأعود أنا إلى واقعي . .

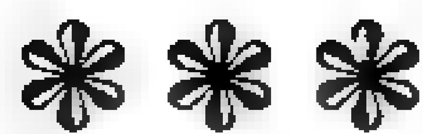
عودي أنت إلى هذيانك

سأعود أنا

عودي أنت

سأعود

سأعود



إنتظار

إلى أم سميح



الفلسطيني المنتظِر

اذهبوا إلى هذا الجيل الذي ينتظر

ولا يريد أن يورثنا هذا الانتظار

اذهبوا!

لقد ملّ الانتظار

ملّ الانتظار!

انتظار في ساحة باريس

اذار 1980

الخامسة . . .

تقلب على فراشه . . . كأن في داخله ساعة حائط مع رقاص وعقارب تشير إلى الخامسة . . هكذا في كل يوم، حتى ايام الجمعة عندما يقرر ان يرتاح ويريح جيبه من دفع نفقات السفر إلى الناصرة ثم إلى حيفا ثم إلى الناصرة وإلى البيت . . وهكذا دواليك . .

لكشته زوجته ففرك عينيه . . شاب في الخامسة الثلاثين . . يبدأ يومه قبل ان تعرف خيوط النهار سبيلها إلى الشقوق التي تترك فراغاً بين الشبابيك وجدران البيت . . تقلب بهدوء وصمت . . يستيقظ "ايمن" ابن الرابعة فيوقظ اخوته الخمسة الذين تمددوا على الفراش الذي يغطي ارضية الغرفة.

– تسألني كيف ابدأ يومي؟

هكذا، كل يوم، "مثلي مثل هالناس . . هالعمال" . . نحن لسنا مثل "الخواجات" الذين ينامون حتى الساعة الثامنة بعد سهرة . . أو وجبة دسمة . . هكذا كما ترى، استيقظ في الخامسة، احمل "زوادتي" واترك في البيت ستة اطفال ينتظرونني طول النهار إلى ان اعود حاملاً معي ما يسد رمقهم . . وزوجة مظلومة كل ذنبها انها تزوجت من "عامل عربي"

امضى معها عشر سنوات ينتقل بين اماكن العمل المختلفة ، مرة في حيفا ومرة في العفولة ومرة في الرملة ومرة في بئر السبع . . ومرات كثيرة في البيت . . بدون عمل . . حتى ان زوجتي اصبحت تؤرخ حياتنا حسب اماكن العمل . . فتقول "ايمن" خلق يوم كنت في شركة "السوليل بونيه" . . وأمينة دخلت المدرسة يوم بدأت عملي في "بنسيون كلاب" في اللد . . نعم ، اشتغلت في هذا المكان مدة سنة ونصف السنة ، اقول لك بصراحة : "كنت مبسوط . . " كنت مسؤولا على رعاية الكلاب التي تصل الينا احيانا في سيارات امريكية طولها خمسة امتار ، فنعتني بها بعد ان نسمع توصيات اصحابها الذين يلحون علينا بأن نعاملها معاملة حسنة . . لم استطع البقاء في هذا المكان . . فكرت مرة . . سألت نفسي : ماذا تفعل يا رجل هنا ! في البيت تركت زوجة بائسة وخمسة اطفال ، بدون عناية ، بدون رعاية ، بدون أب ، وجئت تهتم بكلاب "الخواجات" . . صدقني انني لم اطق هذه الحياة . . فقلت لصاحب العمل : سئمت . . إذا اردت ان تدفع لي اتعابي فتكون صاحب فضل ، والا فانا عائد إلى بيتي ، إلى اولادي . . وهكذا عدت . . وكانت محطتي الاخيرة هنا في ساحة باريس . . ساحة الخناطير . .

السادسة . . .

"ساحة باريس" أو كما يسميها العرب "ساحة الخناطير" . . تقع في قلب حيفا . . السفلى . . في سنوات مضت كانت المنطقة التي تقع فيها مركزاً ، يلتقي فيه تجار حيفا ويافا ومدن الشمال . . كانت امتدادا لبندر

التجار في البوابة الشرقية والجرينة وسوق الشوام، البورصة التجارية التي غصت بمن يلبسون الجاكيتات المصنوعة من الصوف الانجليزي وبالذين يلبسون الكوفية والعقال ويتحركون، منهم من يحمل سلة ملأى بالبيض وآخر يسوق دابة محملة بما انعمت به الطبيعة . . وكما يقولون: كانت هذه الساحة تنبض بالحركة والحياة . . وراحت الايام، وجاءت الايام، والساحة تغير وجهها ومئذنة الجامع المهجور تختفي شيئاً فشيئاً خلف أو تحت عمارات "تسيم" والبريد وعمارة البنوك التي تقيمها سواعد اولئك الذين ربما كانوا يبعثون الحياة في قلب الساحة . .

تغير وجهها . . تغير شكلها . . تغير اهلها . . صارت بورصة . . تقوم على قوانين العرض والطلب . . واختيار الاقوى والارخص والمزايدة والبيع والشراء . . بورصة العبيد . .

وصل حسن ابن الخامسة والثلاثين، ودخل السوق عارضا طاقته وعرق جبينه

- يا الله تسهلنا علينا اليوم!

شق طريقه بين عشرات العمال الذين ينتظرون القسمة والنصيب، وقف واتكا على الحائط قريباً من الشارع الذي تمر عليه سيارات المقاولين واصحاب المصالح، وانتظر . . وانتظر . . - كل يوم يصل إلى هنا حوالي مائتي عامل، القسم الاكبر منهم من الضفة الغربية، من جنين، طوباس، عرابة، اليامون . . ويأتي إلى هنا من الجليل، الناصرة، كفر مندا، ومجد الكروم، من قرى عديدة .

تحدث وعيناه تنظران إلى الشارع، يتحرك كلما وقفت سيارة وخرج منها رجل طويل وسمين يتقدم من العمال ويمد ذراعه ويشير بسبابته: انت، وانت، وانت! تعالوا معي!

- انظر إلى هذا المنظر، انهم يتهافتون على السيارة.. أنا اخجل، لا اسمح لنفسي بأن اتقدم.. أنا اعرف بعض المقاولين، اقف هنا عند الحائط ويأتي المقاول الذي يعرفني ويناديني، احياناً يأتي واحياناً لا يأتي.. أنا هنا معلق بهؤلاء الذين اعرفهم، مصير اولادي معلق بهم، إذا جاء "طلعت اليومية" واذا لم يجيئ ينامون بدون عشاء.. أو يأكلون الخبز والزعتر.. وانا اعود كئيباً افكر بمصيرهم.. هذه هي حياتنا، ننتظر هنا من الساعة السادسة، نأتي يومياً واذا افرجها الله، نعمل اربعة أو خمسة ايام في الاسبوع، ولكن في المدة الاخيرة الوضع صعب جداً والعمل خفيف، في خلال الايام العشرة الاخيرة اشتغلت يومين فقط، انني لم اعوض حتى اجرة السفر.. هل هذه حياة؟.. من يقبلها على نفسه.. ولكن ماذا افعل؟ هل اترك اولادي يموتون جوعاً".

السابعة..

منذ شهرين ونصف وانا اتوجه إلى مكتب العمل في شفاعمرو.. كل يوم كنت اذهب.. يسجلون اسمي.. ويقولون تعال في اليوم التالي.. آتي يسجلون اسمي ويقولون تعال في اليوم التالي وهكذا.. حتى زهقت.. يئست من مكتب العمل فقلت الافضل ان آتي إلى

هنا . . هنا العمل مضمون اكثر من مكتب العمل . . ان اشتغل "يوم أو يومين في الاسبوع احسن من بلاش" . .

قبل فترة كان موظفو مكتب العمل يصلون إلى هنا، فيسجلون مخالفات للمقاولين الذين يآخذون العمال . . لم يتغير أي شيء . . كنا نقول لهم : اوجدوا لنا اماكن عمل . . فيقولون تعالوا وسجلوا اسماءكم . . ذهبنا، وماذا استفدنا . . انهم يضحكون على الذقون . . "بحياة اولادك . . هاي ديمقراطية هاي؟ نحن هنا تماما مثل العبيد . . اقول لك بصراحة نحن عبيد . . عبيد . . اكتب ان في ساحة باريس يوجد سوق للعبيد . . انظر . . انظر . . لقد وصلت سيارة . . يتهاتفون عليها . . كلهم يريدون ان يعملوا، انهم يضطرون لبيع انفسهم . . هل ترى هذا المقاول؟ انظر اليه، هناك . . هناك . . انه لا يعرف الرحمة ولا يقدر الصديق . . يأتي كل يوم إلى هنا ويختار العمال كما تختار زوجتك حبات البندورة في سوق الخضار . . الاكبر . . الانضج . . كل يوم يأخذ خمسة عمال . . يعملون في الاشغال الشاقة . . في الباطون . . في الحفريات . . في القرف . . نحن محكوم علينا بالاشغال الشاقة . . وكأن حياة السجناء افضل منا بكثير . . انهم يعرفون متى يطلق سراحهم وتنتهي محكوميتهم . . ولكن نحن لا نعرف . . كل يوم بالنسبة لنا في الحلم هو يوم حرية ولكن في الواقع هو سجن من جديد . . اشغال شاقة . .

الثامنة . . .

اكثر العبيد هنا عرب. . هناك اربعة أو خمسة يهود. . اليهودي لا يقف هنا . . أنت تعرف لماذا ! انهم يستطيعون ان يطرقوا كل الابواب. . واذا ضرب الباب يحصل على عمل . . في مصنع. . في مكتب. . في دائرة. . في أي مكان . . لكن الحسرة علينا . . ليس لنا الا مكتب العمل . . اننا نسميه حائط المبكى. . نذهب إلى هناك فقط لنذوق الدموع ونتوسل اليهم ليجدوا لنا اماكن عمل. . أي طز على هيك حياة . . ياه . . تصور العنصرية حتى بيننا هنا . . احيانا يأتي مقاول ليأخذ عاملا . . نتهافت عليه . . فيأتي احدهم ويصرخ: أنا يهودي. . هكذا "على بارد المتهني". . يتركنا جميعا ويأخذه وحده. . ومن يعرف كيف يعامله؟

لكن بينهم اناس "محترمون"!! هيه . . فعلا "محترمون" !! مرة وصل مقاول فتهافتنا عليه. . اختار ثلاثة منا . . فجاء هذا الذي يجلس هناك. . وقال له: أنا يهودي خذني! فاجاب المقاول: "آز ما". . شو يعني. . ورفض ان يأخذه. . وقال لنا: أنا لا احب العنصرية. . يهودي. . يهودي. . عربي مليح احسن من يهودي مش مليح. . انني اعرفه. . انتم تعملون افضل منه بكثير. . انه بطئ في العمل. . ويحيرني كل مرة بشروطه. . انه يريد **500** ليرة. . ويعمل حتى الساعة الثانية فقط. . أنا لا احب العامل "المدلل"!

قبل ان نبدأ العمل. . اسقى كلا منا قنينة كولا . . واشتغلنا حتى الرابعة ودفع لكل واحد **300** ليرة. . وشكرنا. . وشكرناه وعدنا مع اليومية. . إلى البيت.

هالله . . . هالله يا هالزمن . . . مقاول محترم على كيف كيفك؟

التاسعة . . .

أحيانا يأتي مقاول: أو صاحب عمل . . يأخذ العمال، يشتغلون طول النهار . . فيقول لهم: غدا آتي إلى الساحة لآخذكم . . وسأدفع لكم الأجرة . . "لكن هذاك يوم وهذا بداله" يختفي الرجل . . وتذهب الاجرة . . هذه المعاملة تتكرر دائما . . حتى أننا أصبحنا لا نصدق أحدا . . يأتي صاحب العمل، يتساوم معنا، يدفع اليومية قبل ان "نقلب أي صرارة".

انظر إلى هؤلاء الأطفال . . هل تراهم . . إنهم من كفر مندا . . أربعة أخوة . . تركوا المدرسة وجاءوا إلى هنا . . كيف سيكبرون هنا في ساحة الحناطير ؟! في سوق العبيد . . هل تعلم . . أحيانا يأتي صاحب عمل ويختار من بين هؤلاء الأطفال . . يدفع لهم مائة ليرة فقط . . "ويحرث على الولد" . . طول النهار . . أحيانا يطردهم بعد ساعات دون ان يدفع لهم الأجرة . . هؤلاء الأطفال يعملون في العتالة، في الباطون، في ورش العمار . . انظر إلى هذا الطفل ! "رفع القشة" ويحمل شوال الاسمنت على ظهره . . هل تصدق . . ماذا يدفع له ؟

مائة ليرة . .

لماذا لا يكون هذا الطفل في المدرسة . . لماذا لا يتعلم؟ . . ابحث عنه . . عن أهله . . ربما ان عائلته تعد عشرة أنفس . . ربما ان الأب مقعد ولا يعمل . . وهم يعتاشون على كسرة خبز ناشفة . . هنا توجد مقبرة أحياء . . هذه مقبرة . . الفرق أننا نتحرك في قبورنا . . لكننا "محسوبين

على الأموات . . على المعدمين . . نحن لا نعيش في هذا العالم . . نعيش في عالم آخر . . بعيدين عن الناس . . بعيدين عن الحضارة . . يتأجرون بعرق جبينا . . بدون مستقبل . . بدون كرامة . . بدون مصير . . بدون تأمين . . تصور ، هل استطيع ان ادفع لكوبات حوليم 500 ليرة في الشهر . . واذا مرض احد أطفالي . . كيف ادخله إلى المستشفى . . كل ليلة في المستشفى تكلف 3 آلاف ليرة . . على أنا وزوجتي ان نصلي ليلا ونهارا لئلا يمرض احد الأطفال . . ولو مرض هل تظن أننا نأخذه إلى الطبيب . . ولو أخذناه هل نستطيع ان نشتري الدواء . . من اين احضر النقود ؟ . .

أطفالنا عبيد مثلنا . . يا أستاذ . . كل بيت من بيوتنا أصبح مصنعاً . . مصنعا للعبيد في هذه الساحة / المقبرة /

اكتب . . اكتب "ملعون ابو هالحياة" . . صور للناس . . صور للعالم . . قال حرية ! أي طز . . طزين ثلاثة . . " .

العاشرة . . .

اسمع هالنكتة . . هذا الشاب زيدان من الناصرة . . يعمل منذ ثلاثة أشهر هنا في ساحة العبيد . . مثله مثل هالعمال . . قبل شهر حكمت عليه المحكمة بدفع غرامة 20 ألف ليرة !

لماذا ؟

لأنه لم يقدم حسابات لضريبة الدخل . .

هذا ما ينقصنا . . إدارة حسابات . . علشان 300 ليرة يوم عمل وخمسة لأ . . ماذا تطلب منا ضريبة الدخل ؟ ماذا تريد منا الحكومة . . لقد قالوا له في المحكمة ان تربح ألف ليرة كل يوم . . ألف ليرة . . يا سيدي يعطونا خمس مائة ليرة كل يوم ويأخذوا الباقي . . صحتين على قلوبهم . . يعطونا 300 ليرة . . ويأخذوا الباقي . . مهزلة الحياة كلها مهزلة . .

انظر إلى هذا الشيخ . . انظر إلى وجهه كيف انه مشقق مثل وديان النقب . . انه يربي تسعة أولاد صغار . . كان يأخذ من الشؤون الاجتماعية الفي ليرة كل شهر . . أولاد الحرام فسدوا عليه . . فقطعوا عنه المساعدة . . وها هو انظر اليه . . انه لا يستطيع ان يقوم بالأعمال الشاقة . . ولهذا السبب لا يأخذه احد . . مرات كثيرة نشفق عليه . . ونتنازل له ، نتوسل إلى صاحب العمل ليأخذه واذا كان ابن حلال والعمل غير شاق . . يأخذه . . هكذا . . تحدث إلى الناس . . تسمع حكايا كثيرة . . هل تظن اننا نحب هذا العمل . نحن لم نختر هذه الساحة لنبيع فيها عرق جباهنا . . ولكننا مجبرون . . "ورانا عيال . . ورانا أولا بدها تاكل الخبز . . هل نتخلى عنهم ونقول : "نحن نتكبر على الشغل . . لا . . الشغل مش عيب . . عيب على اللي بيعمل العيب" . .

الحادية عشرة . .

لا يكفي اننا نقف هنا ساعات طويلة تحرقنا الشمس في الصيف . . ويلسعنا البرد في الشتاء . . اننا معرضون دائما للاعتقالات . .

والتفتيش . . "كل ما دق الكوز في الجرة" تصل سيارة بوليس تحمل ما تحمله من العمال وتأخذهم إلى المخفر للتحقيق . .

- ما اسمك . .

- من اين جئت . .

- ماذا تفعل هنا . .

كأنهم لا يعرفون ماذا نفعل هنا . . أحيانا نقضي ساعات في التحقيق . . "والبهدلة واكل الهوا" . . كل ما وقع انفجار ، تحضر سيارة بوليس . . كل ما عثروا على قنبلة في "الهدار" . . يحملوننا إلى المغفر . . "كل ما صار شي" في "المفراتس" . . يحملوننا في سيارات الشرطة . . هكذا . . تحقيقات . . تفتيش . . إخواننا من الضفة مساكين . . أكثر . . أنهم يوقفونهم عند حواجز الجيش . . وهنا يفتشونهم . . كل يوم . . دائما يتأخرون عن العمل . .

لكي يصلوا إلى هنا في الساعة السادسة يجب ان يخرجوا من جنين أو طوباس الساعة الرابعة . . يأتون إليهم في أماكن العمل . .

مساكين . .

الثانية عشرة . .

في هذه الساعة تخف الحركة . . العمال الذين لا يخرجون إلى العمل يجلسون على حافة الجدران ويأكلون الخبز واللبنة . . بعد نصف ساعة . . حسب مواعيد الباصات . . يحملون همومهم ويأسهم

ويعودون إلى بيوتهم . . يبقى عدد قليل منهم أحيانا حتى الثانية أو الثالثة . . وفي ساعات المساء تكون الساحة فارغة تماما . . نظيفة من العبيد . . هؤلاء الذين يبقون هنا . . يصادف ان يستدعوا للعمل في العتالة . . واحد يريد ان ينقل ثلاجة . . . أو فرن غاز . . أو أثاث . . فيحضر إلى هنا ويأخذ العمال . . ولكن أكثر المرات يعودون إلى بيوتهم دون ان يحملوا شيئاً . .

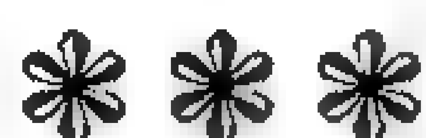
أنا أبقى حتى الساعة الرابعة أو الخامسة . . اتنقل من شارع إلى شارع . . ابحث . . أفتش . . ربما أجد عملا . . أحيانا أجد وأحيانا لا أجد عملا من تحت الأرض . . أعود إلى البيت، اجلس مع أطفالي، أنهم لا يعرفون أين اعمل، أقول لهم فقط أنني اعمل في حيفا . . في المساء اذهب لزيارة أصدقاء وأقارب . . أحاول ان أنسى ساعات النهار . . كل يوم يمضي اشطب عليه . . أنساه . . وأفكر في اليوم التالي . . لعل وعسى . . يكون أفضل مما مضى . . دائما أفكر كيف أتخلص من هذا الوضع . . يجب ان أتخلص . . لكن لا اعرف كيف ! هل تستطيع ان تساعدني . .

الثالثة عشرة . . عفوا . . الواحدة . .

كل شيء يتجدد في حيفا . . تشرق شمس نهار جديد . . وتغرب . . وساحة الخناطير لا تتغير منذ سنوات . . احمد . . مصطفى . . ابو هاشم . . أديب . . علي . . ابو العبد . . وجوه . . تتطلع إلى مستقبل يبدو للوهلة الأولى كعداد الأرقام . . بلا نهاية . .

وجوه تتشقق يوما بعد يوم . . تعكرها الهموم والتفكير بمصير أطفال صغار . . بمصير شعب . . يحلم بالحرية . . سمها ان شئت ساحة باريس . . أو ساحة الخناطير . . سوق العبيد . . أو بورصة تقوم على قوانين العرض والطلب . . بعد الواحدة . . تأتي الثانية . . والثالثة والرابعة . . وحسن ابن الخامسة والثلاثين . . يحلم بحياة أفضل .

ولم ينته اللقاء الذي تم بيننا في ساحة باريس التي تطل عليها مئذنة جامعة الاستقلال . . لم ينته اللقاء الذي بيننا . . لم ينته بعد . . .



بيت من النايلون

كانون الاول 1982

يوم بارد وماطر .

لاشيء يدفع إلى الخروج من البيت، لكن حين تقرر ألا تفعل شيئا تتكاثر عليك الأفكار لتفعل أشياء كثيرة، هنا تبحث عن حالة نقيضة لحالتك. أنت في البيت أمام المدفأة وترتشف القهوة وفي أماكن كثير وفي برد أقسى، أناس بلا مأوى. متى تفكر بالجياع؟ عندما تكون جائعا ام متخما؟

في تلك اللحظة تذكرتهم. حدثني عنهم صديق يعمل في بيارة قرب كفار سابا.

قال: يجب أن تصل إلى هناك، شيء لا يصدق.

ذهبت في ذلك اليوم الماطر.

قريبا من سجن "بيت ليد"، الذي زينت جدرانه الخارجية بنقوش ملونة كتب إلى جانبها "تبرع كريم من هبنك هبنليؤمي" أي البنك الدولي، من هناك تمتد بيارات الحمضيات التابعة لمستوطنات تل موند ومشميرت وحيروت ولشركتي "مهدرين" و "ياخين". اما طرق الإسفلت المؤدية إلى المستوطنات فتوصلك إلى فيلات والى آخر ما أفرزته الهندسة المعمارية. وأما المسارب التي تخترق البيارات فتوصلك الى.. محمد

من رفح وحسن من غزة وعلي من طولكرم وجميل من بيت لحم ومن الخليل وقلقيلية والطيرة وقلنسوة . .

عند مدخل مستوطنة تل موند، عامل يقف على سلم خشبي ويقطف البرتقال .

سألناه عن اسمه فأجاب ضاحكاً: ماذا يهم؟ يهودي. ثم قهقه وقال: يهودي يمني. ولما رآنا ننسجم معه ونضحك قال: مناحيم. عمره 63 عاما. يعمل براتب زهيد جدا . ينتهي يومه حين تغيب الشمس.

سألناه: لماذا لا تطالب بتحسين أجرك. لماذا لا تتوجه إلى مجلس العمال؟

أجاب: هذا ما يدفعونه لنا. لا أحد يدافع عنا. .

سألناه: هل يوجد هنا عمال عرب؟

أجاب: ان الموسم لم يبدأ حتى الآن ولهذا لم يجلبوا العرب إلى هنا. بعد أسبوع سينتشرون في البيارات . .

حين تركناه وذهبنا نبحث عن العرب لفت انتباهنا لوح الإعلانات أمام بناية مجلس العمال، وقد برز بينها إعلان كبير يقول (والكلام موجه إلى أهالي تل موند):

"استعدوا، استعدوا، يوم الثلاثاء يجري حفل كبير وبازار، تنظمه نقابة العمال، ويخصص ريعه لإقامة مطار "عبدات" العسكري في النقب. . هلموا بجماهيركم".

تسللنا إلى بيارات شركة "مهدرين" . . ونحن نعرف ان وجودنا هناك هو "غير شرعي" لأننا دخلنا بدون إذن. كنا نخشى ان تعتقلنا الشرطة أو حرس الحدود، وعرفنا فيما بعد ان تواجد هذا الحرس هناك هو عادي وجزء من الواقع الملموس، وخشينا ان ينتهي بأن توجه الينا تهمة الاعتداء على أملاك الغير، فكانت لقاءاتنا مع العمال على عجالة لنتحدث مع اكبر عدد منهم.

قرب براكية من الزنك التقينا بعضهم. وصلوا من الخليل. بواسطة مقاول من قرية الطيرة. بينهم من وصلوا قبل يومين فقط ولا يعرفون كم سيدفعون لهم:

- لم نتفق معه على الأجرة. قالوا لنا يوجد عمل، فجئنا. المهم ان نشتغل ونطعم أطفالنا. نبدأ في حوالي الساعة الثامنة صباحا وننهي العمل عند مغيب الشمس. أحيانا نشتغل مقاولات. عالصندوق.

الذين بدأوا العمل قبل أسبوعين يعرفون التفاصيل أكثر:

- نحن ندفع التأمين الصحي وثمن الطعام، ولكن ماذا نأكل؟ الصبح اشرب فنجان شاي. في الغداء رغيف خبز وبصلة. في العشاء فنجان شاي وخبز و"شمينت". "الريس" يحضر الطعام ونحن ندفع له . .

- ألا تأكلون اللحم ؟

- أي لحم . . أي بطيخ اصفر.

قالها بعصبية وفتح لنا باب البراكية:

على الأرض الترابية فراش لحوالي عشرين شخصاً. كلهم يحشرون في هذه البراكية وقد سدوا الثقوب التي تبرز في ألواح الزنك بالنايلون

ليمنعوا تسرب مياه الأمطار. "لكن -كما يقول احدهم- كل النايلون اللي في العالم ما راح يمنع تسرب البرد يا عمي. كأنا نايمين في ثلاجة". يعودون إلى البيت كل أسبوعين. يأخذهم الريس يوم الجمعة بعد الظهر ويعيدهم الأحد صباحاً. . يأخذون معهم ما تبقى لهم ويواصلون العمل . .

معسكر

حين كنا نبحث عن معسكر العمال التابع لمستوطنة "حيروت" تسللنا إلى عدة يبارات: بيارة أبو ايلي، وزلينغر وأولاده، وشاؤولكي وبار ناتان وغيرهم. . في كل بيارة براكية أو بناية قديمة كانت حظيرة للدواب قبل استحضار التكنولوجية، والآن تحولت إلى "اوتيل" للعمال العرب من الضفة والقطاع . . في كل "اوتيل" كهذا بين **5 - 12** عاملاً، ينامون على الأرض، فراشهم على التراب. لا يعرفون الماء الساخن، وأحدث ما وصلت اليه هذه الظروف السكنية هي باصات شركة "دان" العتيقة. فيها مصباح كهربائي. والباص كله مغلف بالنايلون.

وصلنا إلى المكان بعد بحث دام حوالي ساعتين . . فوق تلة تطل على ساحة وسط البيارات وقفنا ننظر إلى ما تشاهده أعيننا . . خمسة باصات . . اثنان مغلفان بالنايلون . . وبناية عتيقة . . وساحة فسيحة . . يتحرك عليها بضعة آدميين . . في الطرق المؤدية إليها التقينا اثنين. قالا أنهما ذاهبان إلى المعلم "تسفيكا" ليقبضا المعاش . . لم يصل جميع العمال حتى الآن. استقبلنا من كانوا يتحركون على الساحة. بينهم

رجل في الأربعينات من عمره جاء من غزة وهو يعمل في المستوطنة منذ حوالي عشر سنوات. في الموسم يعمل في القطف وفي بقية أيام السنة يعمل في إعداد الأرض. هو دائم وأما الباقون فيحضرهم المسؤول فقط في هذه الأيام.

ليس كل من يُقيم في هذا المعسكر يخرج يومياً إلى العمل. عليهم ان يكونوا تحت الطلب. يستطيعون العمل في مستوطنة أخرى. ففي كل يوم يأتي تسفيكا أو شاي أو ايلان أو بار ناتان أو تشاؤولكي أو نيسان، أو عامي وهو أصحاب بيارات، ويختارون عمالاً. من لا يقع عليه الاختيار يبقى بدون عمل في ذلك اليوم. وينتظر، على أمل، ان "يفرجها الله" في اليوم التالي.. وصل عدد العمال في هذا المعسكر إلى حوالي خمسين عاملاً. بعد أسبوعين قد يصل عددهم إلى أكثر من مائة وخمسين. صاحب البيارة مطمئن، فلديهم ثلاثة باصات فارغة. شركة "دان" تعطيهم ما يريدون من باصات عتيقة. اول شيء يهتمون به هو تأمين المبيت!! ثم يوزعونهم على البيارات.

قال احدهم: حين وصلنا حذرونا من الدخول إلى المستوطنة في ساعات الليل حتى السابعة والنصف صباحا. كل يومين أو ثلاث تصل دورية "حرس الحدود" ويبدأون بالتفتيش في ساعة متأخرة من الليل. عم يبحثون؟ يقولون لنا أنهم يبحثون عن سرقات! إذا كنا سرقنا حمضيات أو افوكادو. قال لنا "حرس الحدود" كل من نجد عنده حبة برتقال سنعتقله. إذا أردنا ان نأخذ شيئاً لنأكله فنطلب من "المعلم" وهو يعطينا "ورقة" يسجل فيها ما أخذناه. نعود إلى البيت مرة كل أسبوعين. ينقلنا

"المعلم" إلى رعنانا وهناك نركب التكسيات إلى غزة. نبيت هنا في الباصات كل عشرة عمال في باص. نفرش على الأرض. وهنا نحضر الشاي. لقد غلفنا الباص بالنايلون ولكن لا نعرف كيف تتسرب إلينا المياه والبرد ! نكاد نتجمد في الليل !

المعلم

حين كنا نتحدث مع العمال وصلت سيارة "لانشيا" زرقاء ونزل منها شاب في الثلاثينات من عمره. قال لنا العمال: "اجا المعلم" ! والمعلم شاب في الثلاثينات من عمره، عينه اهالي المستوطنة مسؤولاً عن العمال في هذا المعسكر. وهو صاحب بيارة تنتج سنوياً **140** طناً من البرتقال. ويملك بستاناً للزهور يدر عليه سنوياً حوالي عشرة آلاف دولار. أنهى عمله في وزارة الخارجية واشترى البيارة وسكن في المستوطنة مع زوجته الأرجنتينية التي تدرس في الجامعة. لهما طفل في الخامسة يقول عنه: "تسوتسيك". وهو يشغله كثيراً لان امه تذهب إلى الجامعة فيضطر ان يبقى معه في البيت !

أما مستوطنة "حيروت" فاقيمت قبل حوالي خمسين عاماً. تسكنها **114** عائلة. وكل عائلة تملك قطعة ارض تصل مساحتها إلى خمسين دونما. أكثرهم ينتمون إلى حزب العمل.. و"حيروت" تعني الحرية. كان "المعلم" مرتبكا حين وجهنا إليه أسئلتنا:

"في السابق كان العمال يبيتون في الطيرة. ولكن هناك حدثت مشاكل مع الأهالي. وبما ان "دائرة أراضي إسرائيل" لا تسمح لنا بإقامة

بنايات على الأرض فقد رأينا ان أفضل حل هو هذه الباصات! أنا لا أحب هذا الوضع ولكن ماذا استطيع ان افعل. اليهود لا يريدون ان يعملوا في البيارات. شُبّاننا يفضلون ان يتسجلوا في مكاتب العمل وان يقبضوا شهرياً وهم في بيوتهم على ان يعملوا في البيارات، أنا صهيوني وأريد ان تكون الصهيونية كما كانت في السابق. عملا عبريا في الأرض وليس في "البورصة".

ويضيف: "حتى العام الماضي كان عندي بدوي من سيناء. كنت اعتمد عليه في كل شيء. ولكنه تركني عندما أعادوا سيناء. والآن ابحث عن واحد مثله يقوم بكل عمل. هؤلاء العمال للقطف فقط. يأتون في المواسم. كنت أفضّل تشغيل متطوعين أجانب، كما في الكيبوتسات، بالنسبة لي لو أنهم يعطونني متطوعاً اجنبياً فإنني اسكنه في بيتي واستعمله في العمل (هكذا !!). عندما نحتاج إلى عمال، نطلب من القدامى هنا ان يحضروا معهم عشرة. . عشرين، حسب الطلب. أنهم يعرفونهم. ونوصيهم بأن يحضروا الملائمين فقط. قبل يومين احضروا هذا الطفل. قلت لهم انني لا أريد اطفالاً هنا. وعندما يعودون إلى البيت سيعيدونه معهم. انه يقوم فقط بأشغال خفيفة (يشير إلى طفل في العاشرة من عمره كان يشعل النار لإعداد الشاي). أننا لا نرغم هؤلاء العرب على العمل في بياراتنا. هم يطلبون ذلك. ماذا نفعل لهم؟ نحن ندفع لهم الأجرة ونوفر لهم المبيت. لو كان لدي حل أفضل لكنت لجأت إليه. ولكن هذا هو كل ما لدينا. أنا لست سياسياً ولا استطيع ان احل مشكلتهم. يهمني ان اقطف الحمضيات. كيف؟ هذه هي الإمكانية الوحيدة المتوفرة لدي. من لا يعجبه فلماذا يأتي إلى هنا.

ثم انتم لماذا جئتم اليوم؟ لماذا لم تصلوا إلى هنا قبل سنتين. لقد كنت في مستوطنات النقب وقطاع غزة. هناك الوضع أقرف بكثير. وهل تعرف كيف يعاملون العمال في دول أخرى . . في الأرجنتين مثلاً؟ قبل سنوات كان العرب يسمون هذه المنطقة "الكويت الصغيرة" لأنهم كانوا يربحون كثيرا. لقد تغير الوضع. ونحن لا نستطيع ان ندفع لهم أكثر. هذا كل ما لدينا. . ما ندفعه لهم هو أجر عادي. هكذا يدفع للعمال في كل مكان. تسألني لماذا نخصم عنهم أجرة مبيت شهرياً؟ لأننا نوفر لهم المياه والكهرباء، وهذه الباصات لم تنزل علينا من السماء، لقد دفعنا ثمنها.

- ماذا يقول "تسوتسيك" طفلك عن هذه الظاهرة؟

- في العام الماضي قمنا برحلة إلى الأرجنتين لزيارة عائلة زوجتي. والدها مزارع ويملك ثلاثة آلاف دونم ويعيش في بناية أشبه بالقصر. في بيته تعمل ثلاث خادمات، وهذا شيء عادي في الأرجنتين. لقد أخذنا "التسوتسيك" معنا. ولما دخل إلى غرفة الخادمات التي هي بالطبع ليست في مستوى غرفة جدي أزعجه ان الغرفة تخلو من الستائر، فتوجه إلى جده واحتج أمامه على هذه المعاملة . . في الأرجنتين لفت انتباهه هذا التمييز !

- وهل شاهد "تسوتسيك" هذا المعسكر وماذا يقول عنه؟

نعم لقد شاهده. . بالنسبة له هذا شيء عادي. انه لم يقل لنا شيئاً عن حالة عمالنا، لان هذه هي حالة عمال جارنا يوسي وجارنا الآخر. كلهم مثلنا. ونحن مثل الجميع. انه يقبل الوضع كما هو. وعادة ليس هذا هو الموضوع الذي يشغله أو يشغلنا نحن !!

اخذ المطر يتساقط بغزارة.

ركض العمال إلى الباصات المغلفة بالنايلون.

ركب المعلم سيارة "اللانشيا" الزرقاء..

ابتعدنا عن المعسكر..

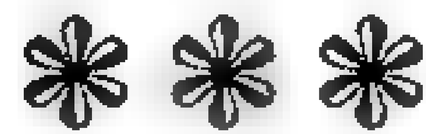
كان علينا ان نعبر في بيارة زايغر وأولاده كي نصل إلى الطريق المؤدية إلى حيفا..

شيئا فشيئا صارت تختفي البيارات وبيوت النايلون ووجوه العرب الستسلمة والمحتقنة.

كل ما هو بعيد عن العين هو بعيد عن القلب.

انحرفنا يسارا إلى طريق الساحل، كان البحر هائجا وأمواجه تتحطم بعنف على الصخر ليزحف الزبد الأبيض على الرمل، ثم يعود إلى البحر، ثم تقذفه الأمواج إلى الرمل، ثم يعود...

وهكذا.



حكاية شيخ فلسطيني : عزة أو لا . .

تموز 2000

قلت لسائق التاكسي الذي نقلني من معبر "أيرز" إلى مدينة غزة :

- خذني إلى شارع الوحدة!

قال بعد ان شرح لي ان شارع الوحدة كبير وطويل :

- شارع الوحدة العربية . .

قلت له :

- لم يبق من الوحدة العربية الا اسماء الشوارع .

ضحك السائق وقال :

- حياتنا كلها خداع بخداع ، لا وحدة ولا ما يحزنون .

صدق سائق التاكسي مائة بالمائة ان حياتنا خداع بخداع

ليس لأنه يجيد التعبير عن الحالة العربية ، بل لأنه لطش مني ستين شاقلا أجرة نقلي من المعبر وهو يحملني "ألف جميلة انه راعاني واكرمني" لأنني فلسطيني قادم من الداخل .

عرفت فيما بعد أن الأجرة لا تزيد عن ثلاثين شاقلا ، وهذا ما دفعته في طريق الرجعة وبلا تخفيض خاص .

شارع الوحدة في غزة طويل وعريض ويعج بالحركة والحياة

في الايام التي امضيتها في المدينة كنت اقطع مسافة طويلة في الصباح واعود بعد الظهر

في اليوم الأول لفت انتباهي شيخ في السبعينات من عمره

كـان يلبس جلبـابا ابيض ويجلس على كـرسي من القـصب ، عند مدخل حانوت

على طاولة صغيرة امامه استراحت كاس زجاجية فيها شاي ، دائما نصفها فارغ والنصف الاخر مملوء

لا يتكلم

يراقب المارة بنظرات فاحصة

عندمـا تقع نظراته على رجل قـادم من بعيـد ترافقـه نظرات الشـيخ المضطربة وفـمه الذي يبرز منه رأس لسانه كأنه عـدسة كاميـرا لا تفارق الرجل الا بعد ان يبتعد و يغيب في الزحمة لتقع نظراته على رجل اخر يأتي من الاتجاه المعاكس

حين تمر من امامـه امـرأة يطأطئ رأسـه فـيكاد وجـهـه يلتـصق بكرشـه المندلق أمامه ، ولا يرفعه الا بعد ان يتأكد من أن الفضـاء خال من النساء ، فيعود إلى مراقبة الرجال ومرافقتهم بنظراته المضطربة التي تبحث عن شيء ما . .

قلت له في اليوم الاول : صباح الخير يا حج . .

لم يرد ، هز رأسه وازاح نظره

في عودتي مساء قلت له : مساء الخير يا حج . .

لم يرد

في اليوم الثاني دخلت إلى الحانوت وكان هناك رجل في الخمسينات من عمره، يشبهه كثيرا، سمين وغليظ ويلبس هو أيضا جلبابا ابيض

انهمك الرجل بترتيب الحانوت والإستجابة لطلبات زبون ملحاح يفاصل على الأغورة..

قلت للرجل بدون مقدمات ولا لف ودوران:

- من هو هذا الشيخ الذي يجلس أمام الحانوت؟

أثار سؤالي دهشته وسأل إذا كان ضايقني بشيء

قلت له إنه اثار فضولي فقط، فهو يجلس طول النهار ولا يفعل شيئا، يراقب المارة ولا ينطق بحرف..

- هذا أخي، اخي البكر..

قال الرجل وقدم لي كأسا من الشاي وأخذ أخرى إلى أخيه

- انه ينتظر عودة أبي.

قال لي بنبرة حزينه ثم تظاهر بانهماك ما في ترتيب الطاولة التي تناثرت عليها اغراض كان طلبها الزبون الملحاح ولم يدفع ثمنها.

- هل ما زال ابوكما على قيد الحياة؟

- من يعرف؟ ربما! بالنسبة لأخي انه لا يزال حيا، أما بالنسبة لي، فالله اعلم.

الشيخ الصامت الجالس على رصيف شارع الوحدة، لاجئ من بيت جبرين المهدومة

هو الابن البكر في عائلة كانت تعد ثمانية أولاد.

في تشرين الأول عام **1948**، دخل عليهم أربعة جنود.

جمع الأب افراد الاسرة في زاوية من زوايا البيت وتصدى بجسده للجنود الذين اقتحموا شاهرين بنادقهم.

الابن البكر الذي كان في التاسعة عشرة من عمره حمى بجسده امه التي حملت اخاه الأصغر (صاحب الحانوت اليوم) وحاول تهدئة اخوته الصغار.

أمره الجندي بأن يقترب منه.

رفض.

تقدم الجندي نحوه ليضربه بكعب بندقيته فهجم الأب عليه وتلقى الضربة على كتفه.

سحبه جنديان إلى الخارج.

صرخ الاطفال وبكوا.

تقدم الابن البكر ليلحق بأبيه وهو يصيح: يابا.. يابا..

أوقفه الجندي بضربة على رأسه.

سقط فاقدا الوعي.

قال الأخ الحانوتي والدمع يترغرغ في عينيه:

- انا كان عمري شهرين، امي حملتني على ذراعيها، أخي هذا انعقد لسانه من الضربة.. انه أخرس، لسانه مربوط. عندما استيقظ

صار يطلق اصواتا غريبة و يشير بيديه، فهمت امي انه يسال عن ابي، فقالت له: أخذه اليهود، أخذه اليهود. شردنا إلى المخيم. منذ ذلك الوقت وهو ينتظر عودة أبي. يجلس هنا منذ ثلاثين عاما، لا يفعل شيئا، ينظر إلى المارة في شارع الوحدة، لعله يعثر على أبي جاء يسأل عنا.. الله اعلم ان كان أبي على قيد الحياة. رفض أخي ان يتزوج. عندما عقد لسانه كان خاطبا فتاه من بيت جبرين، أحبها كثيرا واحبته، هربت هي مع أهلها إلى مخيم عزة في بيت لحم. أنا اعرف انها تزوجت و عندها أولاد، وأخي يعتقد أنها ماتت، مثلما يعتقد أن أبي ما زال على قيد الحياة.

بماذا تفكر أيها الشيخ الصامت الجالس على رصيف شارع الوحدة العربية؟

كان أبوك في الأربعين من عمره واليوم هو في التسعينات

لماذا لا تراقب المارة الختيارية ألذين تجاوزوا التسعين فقط؟

ألأنهم لا يقدرون على المشي في هذا الشارع المكتظ؟

أم لأن والدك ما زال في الاربعين من عمره بعد اثنين وخمسين عاما؟

هل توقف الزمن أيها الشيخ عندما سحب الجنود أباك وأسقطوك على الأرض، أنت الشاب اليافع الطويل الجهم الذي لم يقدر على حماية امه و طفلها الصغير، في وجه جنود في مثل سنك؟

قلت لأخيه:

- هل تعتقد أن عقدة لسانه سوف تنحل إذا عثر على أبيه؟

قال مبتسما ومنفرجا: وسيتزوج أيضا، لأنه سيعود شابا في التاسعة عشرة من عمره.

- واذا عدتم إلى بيت جبرين؟

- آه. .آه. . سأعود طفلا على ذراعي امي. . سنبدأ كل شيء من جديد.

- خطيبة أخيك تزوجت، فهل سيبحث عن عشيقة اخرى؟

- عندما نعود نحن وهي إلى بيت جبرين، سنبدا كل شيء من جديد، انها تعيش في مخيم العزة، تأتي هي من الشمال و نذهب نحن من الجنوب و نلتقي في منتصف الطريق.

بعد أيام كنت في مخيم العزة.

لم أذهب لأبحث عن خطيبة أخيه.

ذهبت لأتعرف على أصغر مخيم، يقع بين شارعين كبيرين في مدخل بيت لحم، ألف وخمسمائة لاجئ، كلهم من بيت جبرين، على مساحة ثلاثين دونما.

سهرنا على سطح بيت أبي أحمد.

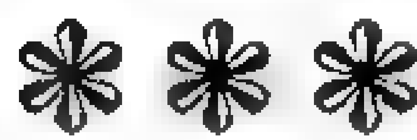
كان هناك أبو رائد وأبو الوليد وكلهم يذكرون قريتهم المهدمة ويزورونها في تشرين.

حين تحدثنا عن العودة، فاضت الذكريات وغمرنا حنين فياض إلى ذلك المكان وذلك التاريخ القريب

انفلتت كل الألسنة التي نقلت مشاعر ملتهبة من الشوق إلى الأرض والدار والشجر والذكريات والعشق . .

" عزة أولا ، ومن هنا يبدأ السلام"

ما الذي يقنع شيخا معقود اللسان وينتظر والده في شارع الوحدة ، وما الذي يقنع طفلة في الثالثة تسرح وتمرح تحت عريشة العنب في مخيم العزة ، أن العدالة هي أقل من العودة إلى بيت جبرين التي أوقفت دواليب الزمن؟



يوم حزيراني على حاجز ملتهب

صيف 2002

ثقب كبير من ثقوب العدالة والانسانية .

موقع تقسمه مكعبات الاسمنت إلى حيزين متشابهين .

في الوسط اربعة جنود .

اثنان منهم ينظران إلى الشرق .

اثنان إلى الغرب .

أسراب من البشر تتداخل .

سيارات تتداخل ايضا .

تتحرك خطوة ثم تنتظر وتتحرك لتنتظر .

أختار يوما واحدا من أيام كثيرة تجاوزت فيه هذا الحاجز من والى رام الله .

الساعة الرابعة عصرا ، في يوم حزيراني قائظ .

كانت رام الله هادئة .

الخروج من المدينة كالعادة لا يثير الا الرغبة في العودة اليها .

ما ان اقتربت من مخيم قلنديا حتى ظهرت أسراب السيارات قبل الحاجز .

كلها توقفت عن الحركة .

توقفت تماما .

بعد لحظات كانت تحيطني سيارات لا حصر لها ولا عد .

توقفت هي أيضا .

"ترانزيت" اصفر يحاول حشر نفسه إلى أن يتوقف بين الكتل المعدنية .

الشارع الذي يتسع لسيارتين اصطفت على عرضه ، بقدرة قادر ، خمس أو ست سيارات .

تفصل بين السيارة والأخرى سنتمترات قليلة .

بين اللحظة والأخرى تسمع ضربة خفيفة .

يلفت انتباهك ان كل السيارات الجديدة والعتيقة مهشمة .

مجرد ضربات خفيفة .

كان لسيارتي أيضا نصيب من هذه القبل السياراتية المؤذية التي تتقبلها بالرضى والتسليم .

من سينزل ويسأل ويحتج على تهشيم جناح سيارته أو كسر الضوء الجانبي مثلا .

هنا تأخذ الجرعة الأولى من البلادة ، وتقول : "في المال ولا في العيال" .

قبلات الحديد للحديد تصبح ظاهرة فلسطينية شائعة وعلانية خلافا لقبلات العاشقين المحظورة علانية وهي لا تؤذي ولا تهشم .

تنتظر إلى أن يتحرك أحد أمامك .

تسرع لتملأ الحيز قبل ان يحاشرك عليه سائق تكسي أو أن تلف عليه سيارة شحن كبيرة فترى نفسك في الفضاء الذي يفصل بين الأرض وجناحها.

تخرجك هذه الحالة للحظات من البلادة.

تتوتر قليلا وتخاف كثيرا لأنك لا تقوى على مناطحة سيارة شحن ولا معارضتها.

تسللت بعد جهد جهيد من منتصف الطريق إلى جانبه الأيمن كي أبتعد عن سيارات الشحن التي صارت تشكل خطرا على السلامة أكثر من أي شيء آخر.

واصلت الزحف البطيء للاقتراب من الحاجز.

شعرت بنشوة لأنني انتصرت.

الجهة اليمنى كانت تبدو لي آمنة لخلوها من السيارات.

انتبهت إلى الجهة اليسرى والى الأمام والخلف.

كانت سيارات صغيرة تزحف مثلي ولا تشكل خطرا علي.

آمنت أن سائقيها يخافون على سياراتهم مثلي، فلا يحاشرون الا في اطار الأدب واليقظة.

أمر جميل ويدعو على الاعتزاز بسائقي شعبنا.

عشرات الشبان من مخيم قلنديا تحولوا إلى شرطة سير وصاروا

يوجهون السير إلى شوارع التفافية أو يوقفون سيارة لفتح الطريق للسيارات من الاتجاه المعاكس.

بعد لحظات سمعت طلقات نارية.

على تلة صغيرة على يمين الطريق وقف جنديان قبل الحاجز بعشرين مترا.

أطلق أحدهما النار في الهواء دون أن يقترب منهما احد ولم يطلق عليهما احد رصاصة ولا القى بحجر قد يهدد أمنهما.

اطلق الجندي اربع أو خمس رصاصات واستراح.

شعرت بخوف شديد على نفسي وعلى سيارتي التي أصبحت في تلك اللحظات شريكة حياتي.

خشيت أن يشتعل اشتباك مسلح بين الجنديين وبين شبان المخيم، فأجد نفسي وسط ميدان القتال.

نظرت إلى شبان المخيم الذين وجهوا حركة السير.

كانوا منهمكين في عملهم ولا يلتفتون إلى مصدر النار.

الجنديان أطلقا النار مرة اخرى، وثانية وثالثة، ثم أطلقا في الهواء باتجاه الحاجز.

توقفت السيارات عن الحركة.

نظرت إلى الجنديين، كانا يصوبان نظريهما نحونا، ثم صوب احدهما بندقيته وأطلق رصاصة أصابت باب سيارة توقفت أمامي، ثم رصاصة اخرى اصابت الزجاج الخلفي لسيارة اخرى، وتوالت

الرصاصات المطاطية فوق رؤوسنا.

اشتد خوفي.

فكرت بالهرب.

اعتقدت أن من الأجدى أن نفتح جميعنا أبواب السيارات ونتركها ونهرب من المكان، فقد تقع مجزرة دون أن نتمكن من مقاومة الجنود.

لم يتحرك أحد من سيارته.

نظرت إلى ركاب السيارات فلم أر أحدا منهم منفعلا مثلما انفعلت.

لم أفهم ان كنت أنا العاقل وهم المجانين أو أنني جبان وهم شجعان أو أن هذه هي سنة الاحتلال.

منهم من أغلق النوافذ ليتمتع بالمكيف الهوائي وآخرون ظلت نوافذهم مفتوحة.

يبدو ان الموت بالرصاص اهون من الموت اختناقا في السيارات.

هكذا اعتقدت وتذكرت أن شعبنا يقتل بالرصاص الحي ولا يموت اختناقا الا في البحر وفي خزانات المياه، فحاجز قلنديا ليس على شاطيء بحر ولا كلنا من أبطال غسان كنفاني ولا نقطع الحدود بيننا وبيننا تهريبا.

فتحت نوافذ سيارتي وأشعلت سيجارة وعندما رأيت أحد السائقين يقرأ جريدة وركاب السيارة العمومية بجانبي يصغون إلى أغنية جبلية لبنانية ويطربون عليها، أثارتني هذه البلادة، حتى صاحب السيارة التي أصيبت برصاصة لم يحرك ساكنا، ظل خلف المقود يدخن وينتظر إلى أن تفرج ويعبر الحاجز.

واصل الجنديان اطلاق النار.

ظلت أسراب الناس تتشابك وتتداخل.

أطلقت آلاف السيارات الواقفة أو الزاحفة كالسلاحف دخانا وغازات خانقة لا بد أنها وسعت ثقب الأوزون وعجلت في ذوبان ثلوج المتجمد الشمالي.

الناس من حولي كانوا بلداء حتى الموت.

قلت لنفسي: لماذا لا أكون بليدا مثلهم؟

أقنعت نفسي أن البلادة هي سلاح الضعفاء، ولأن رجولتي الشرقية لا تجيز لي الاعتراف بالضعف فقد أقنعت نفسي أن البلادة هي سلاح الأقوياء.

البلادة في حاجز قلنديا تعني ألا تسمح للاحتلال بأن يقتلك خنقا في سيارتك.

اذن بالبلادة تنتصر على الاحتلال.

البلادة تعني ألا تسمح للاحتلال بأن يقتلك بنوبة قلبية، أو انهيار عصبي، أو بانفجار دماغي من شدة الخوف.

اذن البلادة تضمن البقاء والوجود.

أنا بليد اذن أنا موجود.

على حاجز قلنديا تتخربط اتجاهات السير.

في دولة قلنديا ليس هناك اتجاه واتجاه معاكس.

في لحظات تعتقد أن كل شيء هناك معاكس، فلا تعرف من أين تاتيك سيارة من الاتجاه المعاكس وتقف أمامك "البوز على البوز".

في لحظة تمرد على البلادة يقرر سائق أن يعود إلى الخلف.

يرجع ليملأ الحيز الضيق بينك وبينه إلى أن تسمع خبطة ويسمعها هو أيضا، فيتقدم وهو "يكسر" على اليمين ثم يرجع ويتقدم إلى أن يقابلك وجها لوجه فيطلب أن تتحرك إلى اليمين على الحجارة والتراب وأكوام النفايات وبقايا الاطارات المحروقة ليتقدم هو في الاتجاه المعاكس.

نظرت إلى الجنديين فوجدتهما ينظران الينا بعصبية وقد صوب أحدهما البندقية والثاني راقب بامعان كل ما يحدث.

بعد لحظات أطلق رصاصة على السيارة التي استدارت وأصاب جناحها الخلفي.

ذعر السائق وانتفض ثم تجمد هو وسيارته ووجهه.

ذهلت أنا للوهلة الأولى، لكنني عدت إلى بلادتي عندما رأيت الجندي المصوب يحول بندقيته إلى اتجاه الحاجز وزميله يضحك ملء شدقيه.

ظل الجنديان يطلقان النار بكل الاتجاهات.

كانا يلعبان بالنار مثل طفلين صغيرين يرميان الحجارة إلى الوادي أو إلى لا مكان.

شبان المخيّم واصلوا توجيه حركة السير دون جدوى.

رؤوسهم مكشوفة للرصاص ولكنهم لا يأبهون.

كانوا منهمكين في مسؤوليتهم ولا يخافون الموت أو ربما يعتقدون أن الجنديين يلعبان فقط بالنار.

المسافرون في السيارات جلسوا وقد تصبب عرقهم بغزارة وانتظروا كأنهم أمام شارة ضوئية

لا حول لهم ولا قوة الا البلادة التي صارت تعني القدرة الفائقة على الصبر والسلوان أو تفويت الفرصة على الجنديين اللذين يلعبان بالنار وينتظران أحدا يقوم بحركة مشبوهة فيمطرانه بوابل من الرصاص ويمطراننا جميعا.

يبدو أن الحياة في حاجز قلنديا يجب أن تستمر وتسير في مجراها الصحيح والطبيعي.

الجنديان على التلة يواصلان العبث وتمضية الوقت.

هما أيضا مصابان ببلادة حاجز قلنديا فلا يبدو عليهما التوتر ولا الانفعال ولا التأثر.

يبدو عليهما انهما يحبان عملهما ويسعدهما الوقوف على تلة ومشاهدة آلاف السيارات الواقفة والمتداخلة والتي تتحرك قدما أو قدمين كل بضع دقائق.

من التلة تظهر لهما سطوح السيارات التي يتراكم عليها الغبار فيغلب على جميعها لون رملي يجعلها جزء من الأرض كالأشجار القليلة التي يغلف الغبار أوراقها، وبيوت المخيم التي يغلف الغبار جدرانها وحتى

رؤوس الشبان الذين يوجهون حركة السير ورؤوس السائقين والمسافرين في السيارات التي لا تشغل مكيفا هوائيا.

الوجوه هي الوحيدة التي تبدو بلونها الطبيعي.

تلمع من العرق الذي يغسلها.

كل شيء يغطيه الغبار الا الوجوه البليدة ظلت بلونها الطبيعي لأن العرق يغسلها ومناديل الورق تمسحها.

كل ذلك بفضل البلادة المباركة، فلو خرج الناس عن بلادتهم وانفعلوا ونزلوا من سياراتهم لصاروا مشبوهين ولأطلق الجنديان النار على رؤوسهم ولسالت الدماء على وجوههم وامتزجت بالغبار وتشوهت خلقهم.

الناس هناك على حاجز قلنديا آثروا البقاء في السيارات يمسحون العرق بمناديل ورقية أو بأطراف الملابس أو بسبابة تتحرك على جباههم مثل مساحة السيارة.

أنقذتهم البلادة من تشويه خلقهم وأنقذتني معهم، فقد فكرت قبل أن أصاب ببلادة حاجز قلنديا ان أنزل من السيارة وأذهب إلى هذين الجنديين وأسألهما: لماذا تطلقان الرصاص العشوائي يا اولاد الكلب؟

البلادة منعتني لأنني لو فعلت لصرت مشبوها في نظر الجنديين وبلا تردد سيطلقان علي الرصاص لأنهما يفعلان ذلك ببلادة ولا يهمهما عواقبها مثلما يهمني أنا الأهبل الذي يحاول التمرد على بلادته، وقد أنجو لو نزلت من سيارتي رافعا العلم الأبيض، ولكن هل تجيز لي

شهامتي ان أرفع العلم الأبيض امام جندي الاحتلال؟

معاذ الله.

البلادة صارت في حاجز قلنديا نقيض الاستسلام.

هكذا اقنعت نفسي.

شجعني على ذلك الباعة المنتشرون حول الحاجز، فالحركة التجارية في دولة قلنديا البليدة مزدهرة.

مناديل الورق هي الأكثر مبيعا، أو من هنا تبدأ الحياة التجارية.

أطفال صغار يتجولون بين السيارات ويعرضون المناديل للبيع بأسعار شعبية مغرية، وهي تخطف من أيديهم.

آخرون يبيعون المياه المعدنية والشراب البارد والبوظة وحتى القهوة الحلوة، سكر كثير والعصملي، سكر قليل.

تجلس في سيارتك فتأتيك القهوة وكل خدمات الراحة وبأسعار رخيصة.

باعة شعبنا يثيرون الاعتزاز، فهم قنوعون ولا يستغلون الفرص لفرض أسعار باهظة.

لا يتعاملون مع قانون العرض والطلب ولا السوق الحرة ولا النظام العالمي الجديد.

انها قناعة فلسطينية مثيرة للاعتزاز.

المارة الذين يتجاوزون الحاجز ذهابا وايابا، بامكانهم شراء كل ما يحتاجون اليه من السوق المفتوحة، حتى التلفزيونات والثلاجات والملابس وكل ما يتوفر في حوانيت "الديوتي فري" المعطرة والمكيفة في

المطارات الدولية التي أصبحت اليوم بحاجة إلى بلادة تفوق حاجز قلنديا .

يلفت نظرك أن الناس لا يلبسون البدلات الأنيقة ولا الأثواب البيضاء وربطات العنق .

السيدات بلا مكياج ولا دهون على وجوههن وشعورهن ، كي لا يعلق عليها الغبار .

انه تنازل طوعي عن التبرج والمكيجة ببلادة أنثوية ورجالية مثيرة للاعجاب .

أصبح للعابرين يوميا في حاجز قلنديا ملابسهم الخاصة وتسريحة شعورهم الخاصة وأشكالهم الخاصة .

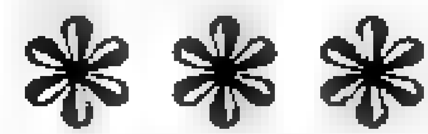
أشهد بالله أنني لو رأيت أحدا منهم في أي مكان قبل أن يغير شكله ، لقلت له : أنت من حاجز قلنديا .

حاجز قلنديا أصبح وطنا ودولة وشعبا وقومية وثقافة وحضارة وهوية .

الاحتلال والبلادة أصبحتا حالتين وطنيتين .

الاحتلال والبلادة ، يخلقان شعبا من لا شيء .

على حاجز قلنديا تقوم الدولة الفلسطينية المستقلة .



نعود إلى حيفا ولا يعود

ليس هناك مكان يمارس الانتظار مثل حيفا

مدينة، كل ما تتقنه هو الانتظار

وأجمل ما فيها أنها تنتظر وأنت أيضا تنتظر

حبيبتي حيفا

أحمد إبن رابعة في حيفا 1982/

إنتظر الباص وصار يثرثر

أكيد انه حرامي ابن حرامي!

ولم أجد جواباً على سؤاله

هل يجوز لرجل مثلي ، أن يركض في الشارع العام وفي يده تتراقص حقيبته الجلدية؟

حقيبتي تبدو وكأنها من بقايا الصليبيين ، قبل ان يكسرهم صلاح الدين ، فتكون عاصرت المماليك وتركيا وبريطانيا وأهملت في عهد هذه الدولة التي لا أعرف إن كانت ستنتهي قبل الحقيبة أو بعدها ، ثم أعيدت إليها كرامتها حين جاء (الخواجة يعقوبي) إلى بلدنا وبحث عن عمال مثلي ، وعثر عليّ (بالصدفة) وها هو يتشبث بي كما يتشبث الطفل بتلابيب أمه .

كفى !

مالي ولهذه الحقيبة البائسة ، فالباص سيصل بعد دقائق وأنا عليّ أن أسرع لأصل إلى المحطة قبل (أن يقطعني) وإلا حكم عليّ بالانتظار ساعة كاملة إلى أن يأتي الباص التالي ويعيدني إلى البيت .

العمارة التي أشتغل فيها ، وعلى الأصح أشيدها ، تقع في شارع (اللنبي) ومحطة الباص تقع في شارع (الخوري) ، ومن يعرف حيفا

يستطيع ان يقدر المسافة التي أقطعها في خلال دقائق، ماشياً على مهلي أو بأقصى سرعة تقوى عليها قدما رجل مثلي بعد يوم عمل في عمارة (يعقوبي) التي ستصبح بعد أشهر مكتباً فخماً لشركة التأمين (أمريكو-يسرا بيطواح).

قد يثير إعجابكم أو دهشتكم، أنني أذكر إسم الشركة، فليس هذا وحسب، إنني أعرف مديرها الكبير وأعرف وكيلها الصغير. الوكيل شاب في الواحدة والعشرين، أنهى دراسته الثانوية ولم يجد عملاً لسنتين كاملتين، إلى أن كلّفوه باستلام وكالة الشركة في بلدنا. وفي أحد الأيام حين كنتُ جالساً في البيت، طرق عليّ الباب ودخل، وإذا به يحمل حقيبة سوداء من صنف (الجيمز بوند) ويقدم لي نفسه على أنه وكيل تأمين لشركة (امريكو-يسرا بيطواح) وقد علّموه (طق الحنك) وسلّموه حقيبة معبأة بالنماذج والأوراق، وكما اعترف لي فيما بعد، علمته فتاة جميلة كيف يعقد ربطة العنق، وكل ذلك خلال أسبوعين ليصبح مؤهلاً أن يقنعني بأن أؤمن على حياتي في شركته.

اكتشفت فيما بعد أن ابن الحرام (نصب علّي) فحاولت أن أستعيد أموالي التي دفعتها مباشرة من المدير الذي يزورنا في العمارة.

ضحك المدير ملء فمه مقهقهاً حين قلت له: دفعت لكم لمدة سنتين، وأريد أن استعيد ما دفعته، لأنني لن أموت قريباً وكذلك فانا بحاجة إلى المبلغ الذي دفعته.

قال لي يومها: هل تريد مصلحتك أو مصلحة الشركة؟

قلت: مصلحتي طبعاً!

قال : لمصلحتك الأفضل أن تستمر في التأمين لأنك إذا توقفت فستخسر أموالك وكذلك ستخسر مكان عملك .

أذهلني جوابه ، وهذا الربط التعسفي بين التأمين على حياتي ومكان عملي .

قال وهو يشعل سيجارة وعلى شفتيه ترتسم ابتسامة ساخرة لمشاهدتي ، كما يبدو ، منذهلاً من إجاباته :

انظر : إذا توقفت عن الدفع وتوقف غيرك فان الشركة ستخسر . صحيح؟

قلت : صحيح وأبوها !

قال : إذا كنا نخسر فكيف سنبني عمارة كهذه؟ صحيح !

قلت : صحيح ومليون صحيح .

قال : إذن ، وأين ستعمل أنت؟

قلت في نفسي : أكيد انه حرامي ابن حرامي ! ولم أجد جواباً على سؤاله ، خصوصاً وانه اخذ يلقي عليّ خطاباً جعلني مثاراً لسخرية العمال الذين تجمعوا حولنا ، وكلما قال صحيح ! كانوا يرددون وكأنهم فرقة موسيقية ، وبصوت واحد : (صحيح ومليون صحيح) ولم أعرف أن كانوا في تلك اللحظات يسخرون مني أو منه أو من كلينا ، فلم يوافق احد منهم على تأمين حياته في الشركة ولا يخافون من (قطع الأرزاق) .

منذ ثلاثين عاماً وأنا أسمع هذه (المعليش)

كأن الحياة كلها (معليش) لا ينتهي

لماذا أشغلكم بهذه التفاصيل وأنا أحمل حقيبتي الجلدية وأهرول (أي لا أركض فقد عدلت عن الركض مهابة من حكي الناس ولكي لا أثير شبهات رجال الأمن المتواجدين في كل زاوية وزاوية في هذه المنطقة)، فبعد اقل من ثلاث دقائق سيصل الباص بالرغم من انني (راكب) دائم وفي كل يوم يتبارك مني السائق اليهودي بكلمة "شالوم"، فلن ينتظرني ولن يفكر بي إذا لم اصعد في هذا اليوم.

ماذا يهم سائق الباص أنني تأخرت في هذا اليوم، وأنني قرفت من مدير العمل ومدير الشركة، وسبب تأخري هو أمر أنزل علّي في اللحظات الأخيرة بأن أنظف ألواح الخشب من المسامير لأنها ستنتقل إلى عمارة أخرى.

لم أتوسل إلى صاحب الأمر بأن يطلق سبيلي، لكنني حاولت أن اشرح له بكل أدب أن تأخري لدقائق سيضطرني إلى الانتظار في المحطة ساعة كاملة.

قال: معليش!

منذ ثلاثين عاماً وأنا أسمع هذه (المعليش).

كأن الحياة كلها (معليش) كبير لا حدود له ولا ينتهي.

عليك أن تؤدي دورك على مسرح كبير إلى أن ينزل الستار أو الكفن على نعشك الذي سيسجى وتذرف عليه الدموع ويأتي هذا الرجل

الأصلع، بكرشه الذي يسبقه إلى مائدة الطعام ويقول لأطفالنا الأيتام (معليش)!

معليش انك تموت للمرة الأخيرة، تماماً (كالمعليش) عندما يتأخر المعاش وعندما يخصم يوم عمل لأنك أخذت إبنك للفحص في مستشفى.

ماذا يعنيه أنني تأخرت؟

هل هناك قيمة للوقت الذي يصرفه رجل مثلي في الخامسة والخمسين جالساً على المقعد الخشبي يتأفف ويزفر ويشتم الساعة التي صنعوا فيها أول باص.

ما هي السرعة المسموح بها في داخل المدينة؟ خمسون كيلومتراً في الساعة؟

لا استطيع إلا أن أهرول ولو ركضت لالتقطني رادار الشرطية السمراء التي تنتظر (أهبل) مثلي يركض في الشارع العام لكي يصل في الوقت المحدد لوصول الباص.

الرابعة إلا دقيقتين، عليّ أن أقطع شارع الأمم، من (البنكيت) إلى (البنكيت).

سيارات عديدة تسير على الشارع ذهاباً وإياباً، ببطء لكن ليس بحذر، فهؤلاء مثلي يريدون العودة إلى البيت، ورغم أنهم لا يخشون ساعة الانتظار إلا أنهم يحاولون أن يسرعوا دون أن يحسبوا أي حساب لرادار الشرطية السمراء.

فقد تأتي عجوز وتثرثر إلى جانبك

أو تأتي صبية وتجلس قريباً منك

الدخول في شارع الخوري، مهمة صعبة ومسؤولية كبيرة، قضية حياة أو موت، فقد تخسر حياتك في لحظات إذا لم تنظر يميناً ثم يساراً، وحين تدرك انك أصبحت ملك الشارع، تقطع شبه مطمئن.

عندما قطعت إلى الطرف الآخر، أدركت أهمية أن اركض لكسب الوقت غير آبه لشعارات "المجلس الشعبي الفلسطيني لمنع حوادث الطرق في فلسطين المحتلة عام 1967" والتي تزيّن سيارات أشقائنا ورسمت بالألوان الفاقعة: (لا تسرع فالموت أسرع) (وعد إلينا سالماً يا أبو علي).

ركضت لأن الباص قد توقف في المحطة وأخذ الركاب يصعدون.

أنا أحسدهم على هذه النعمة، يصعدون ببطء وأنا أهرول وأبطئ بين مسافة وأخرى حين ألهث والتقط نفسي بصعوبة بالغة.

كم تمنيت لو أنني أملك جناحين، أو على قمة رأسي.. فراش.. كفراشات الحوامات المضادة للدبابات فتنقلني من مكان إلى مكان آخر دون أن ألهث أو اشعر أن الشلل قد دبّ في عضلات رجلي المشدودة.

عن بعيد كنت أعد الركاب واحدا تلو الآخر.

شاب يصعد بسرعة، أعرفه، يحضر المبلغ سلفاً، يناوله للسائق ويأخذ التذكرة ويختار مقعده في مؤخرة الباص.

لو أن الجميع مثله لقطعت الأمل في الوصول، فخلفه امرأة عجوز تسير ببطء، وتُخرج النقود من محفظتها ببطء وتتكلم ببطء، يكفي لأن أصل.

كانت عودتي إلى البيت مبكراً كالعادة مشروطة بهذه العجوز.

ليتها تتعثر على الدرجة الأولى وتؤخر الباص نصف دقيقة على الأقل.

شيء غير معقول يحدث لي.

يبدو أنني أصبحت إنساناً رهيباً.

فقدتُ أنانيتي في لحظات هرولة.

صحيح أنني لست مسؤولاً عنها، بل مدير العمل الذي لم يأبه لتوسلي، ولكن كيف أتمنى لامرأة عجوز أن تسقط على مصعد الباص لكي أصل في الوقت؟

قد تموت هذه المسكينة وتفقد حياتها في ثوان لكي اربح أنا ساعة واحدة مع أولادي وعائلتي، بعد أن يفقدها أولادها كل العمر.

لعن الله الشيطان الوسواس الخناس.

حين أصل سأعتذر لهذه العجوز أنني كنت انوي لها الشر، وتمنيت أن تسقط على المصعد ليتأخر الباص فأصل في الوقت المناسب.

المعذرة كل المعذرة أيتها العجوز الطيبة.

قلت ولم تسمعني، نويت أن اعتذر وإنما الأعمال بالنيات.

تصعد العجوز وتفتح محفظتها وتناول السائق النقود وأنا عليّ أن اقطع شارع الوادي. وإذا نجحت فيكفي أن اخبط على مؤخرة الباص - بلا قافية. .

ها هو السائق يغلق الباب، والإشارة الضوئية تشتعل وتخبو، وقبل ان أصل مؤخرته علا هديره. . و . . فان . . فان . . فان . . تحرك وأنا أصرخ: "هالو . . هي . . هالو . . هي . ."

لم يسمعني ابن الكلب.

هل يجوز أنه لا يراني في المرآة الكبيرة وأنا اركض كالكلب خلفه؟

لم يتوقف. .

أردت أن أرميه بحقيبتي الجلدية، أن أحطم زجاجه. . لكنه أخذ يبتعد ولم يبقَ أمامي إلا أن أودعه بنظراتي، وأشتم حتى قيام الساعة. . وأقول لنفسي: حط عن ظهرك يا رجل. . وأجلس على المقعد الخشبي. . فقد تأتي عجوز وتثرثر إلى جانبك، أو تأتي صبية وتجلس قريباً منك، تحاول أن "تتحرش" فيها فقط لمجرد تمضية ساعة من الوقت، تتحدث معها عن الجمال وعن الحب، وإذا شاءت فعن السياسة.

لقد تعلمت الطريقة السهلة مع فتيات حيفا الجميلات.

تنظر إليها، ثم تبعد نظرك.

إذا كانت رقيقة، تنظر ثانية وتسألها:

كم الساعة من فضلك؟

في حالات الانتظار تصبح الساعة هي كل شيء. .

حياتك تتحرك مع العقارب، كلما أسرعت اقتربت ساعة الفرج.

ركض متواصل.

سرعة فائقة من أجل الوصول إلى النهاية، نهاية الانتظار.

الساعة هي الشيء المشترك بينك وبين الذين ينتظرون في المحطة.. حتى وان كنت لا تعرفهم، ولا تستطيع أن تتحدث معهم.. هي تجمعك معهم في وعيك وخارج حدود الوعي.

تسأل الفتاة الجميلة التي تجلس إلى جانبك: كم الساعة، وتبتسم وهي إذا كانت مؤدبة تنظر إلى ساعتها، وتبتسم ثم تقول: الرابعة والربع.

حتى وان كانت الرابعة و14 دقيقة، فتقول الربع.

دقيقة واحدة لا قيمة لها حين تنتظر. وما قيمة الدقيقة في ساعات الانتظار؟

صديقي فايز يقهقه ملء فمه عندما أقول له: وما قيمة الدقيقة في عمر الشعوب؟

صار هذا القول مبتذلا في بلدنا لكثرة ما نردده. إلا فايز يقهقه، فحين يسمعه يقول ساخراً منا: مسكينة الشعوب، وهل أعمارها إلى ما لا نهاية؟ فنقول له: أنها تعبير عن النفس الطويل، فيقهقه مرة أخرى ويقول: وهل الشعوب مسطرة لتقيسوا عليها أنفاسكم، يا أولاد الكلب؟ فنقهقه نحن. احياناً نلجأ إلى الضحك خوفاً من الانفجار.

لا نعرف لماذا نضحك، لكننا نحب أن نضحك كثيراً ويغيظني أن الضحك يأتي حين نتحدث عن المصير وعن الموت وعن القنابل الذرية، كأنها البطولة أن تواجه مصيرك وأنت تضحك.

يبدو لي أننا نعتز حين نذهب إلى الموت ونزعم أن هاماتنا مرفوعة.

أن نسير إلى حبال المشانق ونحن نضحك ومرفوعو الرؤوس.

كأن البطولة أن تشتد الحبل على عنقك وان تضحك.

لماذا أطيل عليكم بهذه الثرثرة كما لو كنت وكيل تأمين الشركة إياها الذي علّموه أن يثرثر ويعقد ربطة العنق؟

مالي ولهذه الفلسفة؟ فقد حكم عليّ أن أمضي ساعة كاملة في انتظار الباص.

قبلت الحكم وهامتي مرفوعة.. قه.. قه.. قه.. فلماذا أعكر صفوكم وأستفز مشاعركم وأثير في نفوسكم الضجر؟

وصلت امرأة تحمل رضيعاً وجلست

ثم وصل باص آخر لا انتظره وصعدت

أريد أن أحكي لكم قصة. أو أن أحدثكم بما جرى لي في ذلك اليوم.

أنا لستُ كاتباً ولا شاعراً. ولا أنا حكواتي. أنا عامل بسيط، في الخامسة والخمسين. استيقظ مبكراً في الخامسة. قبل ان يستيقظ احد من أهل البيت. أحاول ألا أزعج زوجتي. وإذا أحست علي "طحشتني"

ورغبت في مشاركتي تناول القهوة، كان به. وان لم تحسّ فتظل غائصة تحت الغطاء، إلى ان تفتح عينيها، وتفركهما، وتنهض فتجدني جالساً على كرسي القصب وأمامي إبريق القهوة والى جانبه فنجانان؛ واحد لي والثاني لها، وهي تقدّر بي هذه اللفتة الكريمة أنني احسب حسابها بفنجان القهوة حتى وان لم تستيقظ في ذاك الصباح وتجدني احمل الصحيفة الوحيدة التي اقرأها واقرأها بنهم.

كم هو جميل ان تفتح عينيك وتسير مباشرة إلى مدخل الدار، وهناك تجد الصحيفة في انتظارك، تتناولها وتضعها على الطاولة وتعد القهوة وتعود إليها.

إسمحوا لي أن أتوقف هنا.

سأتوقف ولن يتوقف دولاب الحياة. ليس من اجل الدعاية للصحيفة التي اقرأها يومياً، فمن أنا لكي أعطي رأيي بصحيفة عريقة، فأنا لستُ كاتباً ولا شاعراً، أنا عامل بسيط، لكن الدهر يعلّم، وكما قال احدهم: أنا تخرجتُ من جامعة الحياة. لا احمل شهادة. ولا دكتوراه. الشهادة الوحيدة التي احملها هي شهادة الولادة. من أيام الانجليز. لكن الصحيفة التي اقرأها كل صباح علّمتني الكثير الكثير.

قبل شهرين كنتُ اقرأها بعد العودة من العمل. ولكن عندما تغير الموزع، صرت أحبها أكثر، لأنها تصل باكراً.

دائماً كنت اطلب أن يغيروا موزّع الجريدة، لأنه كان متقدماً في السن. إنسان عظيم، علّمه الدهر مثلما يعلمني، ويثير الاحترام.

كان أول من عرفني بهذه الصحيفة. ومنذ ذلك الحين وهو يوزعها دون كلل أو تعب.

قلت له مرة: ألم تتعب يا رجل؟

قال لي: حتى آخر لحظة في حياتي.

قلت: ولكن، ان صحتك لا تساعدك وأنت لم تعد قادراً على المشي والحركة كما لو كنت شاباً.

قال: مع كل احترامي للشباب، ولكنني أخشى ان يتقاعسوا أو أن لا يقوموا بواجبهم، فأنا صاحب تجربة غنية، وأنت تعرف جيل اليوم. إنه لا يدرك المسؤولية كما يدركها جيلنا.

لا أعرف لماذا أحيل على التقاعد، ولا أعرف إلى أي مدى يقوم الموزّع الجديد الشاب بواجبه على أكمل وجه، لكنه أصبح يحضر الصحيفة مع طلوع الفجر وهذا بحد ذاته انجاز عظيم.. (في عمر الشعوب)...

لو سمعني صديقي فايز لانفجر ضاحكاً، ولكنه أمرٌ يبعث على الضحك، لأنني في هذه اللحظات ابتعدت كثيراً عن لحظتي، وانتم ابتعدتم معي بلا شك، ونسينا أو تناسينا أنني اجلس على المقعد الخشبي، في المحطة الواقعة في شارع الخوري بحيفا، وانتظر قدوم الباص ولم يبق لي ان أثرثر كي لا اشعر بقساوة الانتظار والمعاناة من اللاشيء. فلا تؤاخذوني على هذه الثرثرة وعلى هذه التهويمات وهذا الجنون. ولا تعتبوا على إنسان بسيط مثلي لأنه يتدخل احياناً في ما لا

يعنيه ويلقى ما لا يرضيه. هذا مجرد فضول لا مبرّر له سوى حلم يراودني بين الفينة والأخرى وهو ان أجد الناس يصدقون ولو مرة واحدة عندما يسألون كيف الحال ويجيبون دون تفكير: على ما يرام. كل شيء على ما يرام. الحمد لله، الذي لا يحمد على مكروه سواه.

لم يمضِ من الوقت أكثر من ربع ساعة... وصلت عجوز ووصلت صبية سمراء، جلست إلى جانبي ووصل شاب وجلس هو ايضاً، وصل باص، ليس الباص الذي انتظره، صعدت العجوز، وصعد الشاب، وبقيت الفتاة، ثم جاءت فتاة أخرى، وشابان وطفل، جلس بعضهم، ووصل الباص الذي لا انتظره وصعدت الفتاة الأولى والشابان والطفل، ووصلت امرأة تحمل رضيعاً وجلست، ثم وصل باص آخر لا انتظره وصعدت، وسألني الشاب الذي وصل قبل ان يأتي الباص الخامس الذي لا انتظره: كم الساعة من فضلك؟

قلت له: لا احمل ساعة... ولكن تقريباً، الرابعة والنصف.

توقعت ان يصفعني على وجهي، عندما قلت له "تقريباً" وابتسمتُ.

أردت ان أقهقه لأنني تذكرت صديقي فايز. كان سيعلق على كلامي ساخراً بقوله: وما قيمة التقريباً هذه في عمر الشعوب؟ لكنها (مضت على خير) لأن هؤلاء الشباب، كما يقول لي موزع الصحيفة العجوز، لا يعرفون قيمة الوقت لأنهم لا يملكون التجربة، وان جيلهم يختلف عن جيلنا. فقط لأنهم لا يملكون التجربة. تصوروا لو أن أطفالنا يولدون وهم يملكون التجربة كما يملكون غرائزهم، لأصبحوا.. أفضل موزعي صحف. قه.. قه.. قه.. هل هناك ما يدعو إلى الضحك؟

وأما أبو رجاء فيقطب جبينه وتبرز التجاعيد على جبهته لكن ليس على خدّيه المنتفخين

ظلال البنايات العالية، وقمة الكرمل، كانت قد أكملت زحفها على وادي النسناس وشارع الخوري، سيارات عديدة تسير في اتجاه واحد عن نقطة الموت كما يسميها أهل المنطقة العرب، لكثرة حوادث الطرق التي وقعت هناك، ففي المرة الأخيرة قتلت طفلة. حالاً، كتبت عرائض. ألبلدية لم تحرك ساكناً. نظموا مظاهرة. لم تحرك ساكناً. قطعوا الأمل وظلوا ينتظرون إلى ان يفرجها ربهم وفي الانتخابات صوّتوا لرئيس البلدية المهمل حياة أطفالهم لأنه وعدهم بأن تمر سيارات النفايات كل يوم صباحاً في حيّهم. وقد أحضر مرة رئيس الدولة ليشرب القهوة مع الهيل في وادي النسناس.

سألت الشاب الذي جلس إلى جانبي: كم الساعة؟ فقال الخامسة إلا دقيقتين.

قلت انفرجت وإذا الباص يصل المحطة.

كان مكتظاً بالمسافرين، على غير عادة. بينهم كثير من طلاب المدارس.

جلسوا في النصف الأخير وكانوا يثرثرون ويشاغبون دون ان يجرؤ احد على إسكاتهم.

انتظرت ان يقف احدهم لأجلس مكانه. لم يحركوا ساكنا.

بدأت استجمع شيئا مني لأقول لهم: أما وقاحة. لا خجل ولا حيا. لا تقفون لمن هو اكبر منكم سناً ومع هذا تشاغبون؟ ولكنني آثرت الصمت. وقررت ان "أبلعها".

الى جانبي وقف رجل في الأربعينات، نتأ كرشه وكلما اهتز الباص كان يتملكني خوف من انه سينفجر في كل لحظة، ولكن عندما كان يضرب كرشه بخاصرتي كنت اطمئن إلى انه مقاوم للصدمات لصلابته وانه يصمد أمام الهزات والضربات ولا خوف ان ينفجر ويندلق ما في جوفه على ارض الباص والطلاب الذين يشاغبون.

كرش الرجل والبلع يذكرني بجارنا أبي رجاء، الذي يشبه صاحبنا الواقف إلى جانبي بمظهره المنتفخ، ويحب ان يجعل من كرشه موضوعاً للنقاش والممالحة وحتى للفكاهة وسخرية الناس الذين يحبهم.

منظر ابي رجاء يثير الضحك. وما يُضحك أكثر هو حديثه عن كرشه، وأهل بلدنا يحبون مداعبته بهذا الحديث. ولقد تعوّد من يراه ان يوجه إليه السؤال الأول عن كرشه الذي يحمل ألقاباً عديدة. فمنهم من يسميه "الجبل" ومنهم من يسميه "القرعة" وأما هو أبو رجاء فكان يصرّ على تسمية "صمّودي" مع تشديد الميم.

كان أبو رجاء يمتنع عن شرب الكوكا كولا أو أي مشروب يحتوي الصودا أو الغازات ويصفها بأنها بدعة امبريالية، ويشدّد على كلمة امبريالية، ويؤكد بأغلظ الإيمان والنظريات أنها اخترعت للتنفيس، تنفيس كرشه، وكان صاحب فلسفة خاصة يجملها بمعادلة تتردد دائماً على لسانه: الانتفاخ يولد الانفجار. والانفجار لحظة الفرج. اما لماذا

يطلق على كرشه لقب الصمود فهو سؤال يحب دائماً ان يجيب عنه ويشعر برضى وسعادة كلما عرف ان السائل فهم الجواب "على الطاير" ولم يكن بحاجة إلى وقت كثير لمزيد من الشرح، فيقول وهو يعتدل في جلسته ويطوي سبابته لتلتصق بإبهامه وينصب ما تبقى من أصابعه، ويتنحنح وكثيراً ما يضع يده اليسرى على شنبه ويفتله بحركة مصطنعة ويبحلق عينيه فيثير الضحك قبل ان ينبس بكلمة ولما يهدأ الحضور ويصغون للاستماع إلى الإجابة ينطق قائلاً: اسمعوا ايها الخلان، يا أهل المروءة والوجدان، ما معنى الصمود في هذا الزمن الردئ... الصمود هو القدرة على البلع... ان تكون قادراً على الصمود يعني ان تكون قادراً على البلع.. وخذوا الحكمة من كرش أبي رجاء... صدق الله العظيم الذي لا يحمد على مكروه سواه. تعلو قهقهات السامعين، وأما أبو رجاء فيقطب جبينه فتبرز التجاعيد على جبهته لكن ليس على خدّيه المنتفخين، ويواصل خطبته بتأنٍ وروية وجدّية كمن يريد ان يقنع الناس ان السمك يتسلق على الشجر وان الله يقدر ان يخلق انساناً قاعداً واقفاً في نفس الوقت.

توقف الباص في محطة "الهدار"، نزل الرجل ذو الكرش الكبير، شعرت بارتياح، ثم واصل الباص متوجهاً إلى بلدنا.

لحظة الخروج من المدينة هي أسعد لحظات النهار.

تحررت من الساعة وعمارة يعقوبي والشارات الضوئية والصخب والنظرات الحاقدة أو المستعلية ورويدا رويدا صرت أعود إلى نفسي.

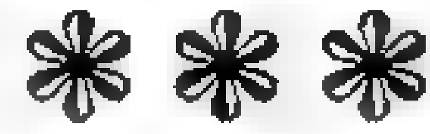
ها أنا كما عرفتموني، عامل بسيط يحب الحياة، يحبها كما هي، لا يطلب منها شيئا. يطلب من نفسه فقط ولا يرحمها.

سيأخذني الباص الذي انتظرته ساعة وأكثر إلى أسرتي .

هي انتظرتني ساعة لنتناول العشاء معا .

أنا تأخرت نصف دقيقة على الباص الأول ، فانتظرت الباص التالي ساعة كاملة ، ومر باص لم أكن أنتظره ومر آخر وآخر .

غدا سأعود إلى هذا المنفى ، إلى هذه المدينة الملعونة .



أحمد إبن رابعة 1983/
انتظر وظيفة شاغرة

أصبحت مهنتي البحث عن عمل

بأبخس ثمن وأزهد أجر، وامي تحضر القهوة

لم أفهم والدتي حين قالت وهي تتحسّر: "احمد هَم على قلبي"، قالتها اكثر من مرة لاختي المتزوجة منذ اربع سنوات "وهمها على قد حالها" ولأبي وزوجة عمي، ويبدو انني فعلا اصبحت همّها الوحيد. في البداية لم اجرؤ على مصارحتها. فقد ظننت ان وجودي في البيت من الصباح وحتى النوم اصبح يضايقها، ولكنني عندما استيقظ على صوتها في الصباح واجد إلى جانب السرير ابريق القهوة والبسكوت وتقول لي: صباح الخير يا يما يا حبيبي، الساعة صارت عشرة ونص"، عندها تتطاير ظنوني خصوصاً وانني احاول الا اثقل عليها، فبعد ان اشرب القهوة واقرأ الجريدة، واغسل وجهي وابدّل ثيابي، اتوجه إلى المطبخ واشمر عن ساعدي وابدأ بغسل الصحون والفناجين التي تراكمت ثم اخلع رؤوس "الغاز" وانظفها إلى ان تلمع كانها جديدة طخ.

في البداية كان يضايق والدتي مجرد وجودي في المطبخ وغسل الصحون، كانت تقول: "عيب يمّا، شاب طويل عريض ومتعلم وبتشتغل في المطبخ؟" ولكنني اقنعتها ان شغل البيت "مش عيب"،

وعليها ان تتخلص من افكارها الرجعية، وفعلاً تخلصت، وصرت اساعدها على مسح البلاط ونشر الغسيل واصبحت ساعدها اليمنى في البيت.

والدتي تجاوزت الخمسين من عمرها، انجبت تسعة اولاد، أنا اصغرهم، على وجهها تتقاطع شقوق من آثار التعب والارهاق والسهر، وتتذمر دائماً من الاوجاع التي تلُمُ بساقيها، وهي سمينة وقد نصحها الطبيب اكثر من مرة بأن تخفف من وزنها لكنها هي والريجيم "مثل الشحمة على النار" ليس لانها تحب ان تأكل بل لأنها لا تستطيع ان تنظم مواعيد الطعام، ويبدو انني اصبحت اخفف عنها اعباء العمل في البيت، بوجودي منذ خمسة اشهر يومياً وانا "بلا شغلة ولا عملة"، مهنتي اصبحت البحث عن عمل. في صباح كل يوم اقلب صفحات الجريدة علني اعثر على مكان عمل، اتصل بصاحبه فيشغلني ولو بأزهد اجر وأبخس ثمن. ولكن يبدو ان هذا ليس هو السبب في انني اصبحت هماً على قلب امي، وانما لأنها تريد ان تزوجني، وقد رفضت بالرغم من العروض المغرية للزواج من ابنة عمي الجميلة والطالبة الجامعية وابنة الجارة "اللي وجهها مثل شقّ اللفت" وابنة خالتي القمحاوية والآدمية والاميرة بنت الامير. وقد رفضت جميع العروض ليس لانني اتكبر بل لانني اريد ان اضمن مستقبلي اولاً.

قلت: احمد. يتكلم. فقال: نكتب لك

قلت: مردخاي حايموفيتش فاعجبته مؤهلاتي

في الآونة الأخيرة لم يعد يهمني من صفحات الجريدة سوى اعلاناتها عن "أماكن شاغرة" و "مطلوب عامل"، و "وظيفة محترمة". اقرأها حرفاً حرفاً. أمس قرأت اعلاناً لشركة تطلب عاملاً يحمل مؤهلاتي، كتبوا: "مستقبلك مضمون في الشركة. تبدأ بألف دولار ثم يتضاعف حسب طموحك". قلت: "يا ولد، طموحك كبير ومؤهلاتك عال العال"، سجلت رقم الهاتف واتصلت بمكتب الشركة في تل ابيب. ردت فتاة بصوت رقيق وادب ونعومة جعلتني اشعر بارتياح وقلت بيني وبين نفسي: مع مثل هذه الموظفة أنا على استعداد ان اشتغل "ببلاش". ولكن "بلا طول سيرة ولقمطة" طلبت المسؤول فجاءني من الطرف الآخر صوت غليظ لرجل متقدم في السن تكلم بنبرة كما لو كان جنرالاً يتحدث إلى احد جنوده. عرضت مؤهلاتي بأدب ورزانة فتغيرت نبرته. قال: هذه هي المواصفات المطلوبة. سألني من اي بلد. قلت: من منطقة حيفا. خشيت ان اقول له انني من قرية قد يجهل اين تقع لأنها بصعوبة تظهر على الخارطة الرسمية. ولا بد ان يبدأ بالتحقيق حول القرية، فلكي اختصر الحديث قلت: منطقة حيفا. ثم سألني ما اسمك. فقلت بأدب ورزانة: احمد. فتغيرت نبرته. وقال لي: سنكتب اليك. شكراً. هل تعتقدون انه سيكتب؟

انا مثلكم اعتقد انه لن يكتب.

لأنني عاطل عن العمل ولديّ الوقت الكافي لأن امسك بسماعة الهاتف واتصل، فقد اتصلت مرة اخرى بهذه الشركة ولكنني غيّرت لهجتي ونبرتي وغيّرت اسمي. وسمعت صوت الفتاة المهذبة ثم جاءني

الصوت الغليظ. واول سؤال وجهه ليّ: ما اسمك؟ قلت، بلغة عبرية اشكنازية ورطنت بحرف الراء وحرف الحاء الذي يصبح خاء: اسمي مردخاي حايموفيتش واسكن في شارع عكيبا بحيفا. سألني عن مؤهلاتي فقلت له ما كنت قلته في المحادثة السابقة، لكن مع بعض التعديلات. قال لي: هذه هي المواصفات التي نطلبها. ويبدو ان مؤهلاتي اثارت حماس المدير غليظ الصوت، فقال: ان شروط العمل معروفة وكما نشرناها في الجريدة. وتستطيع ان تباشر عملك في مطلع الاسبوع القادم. قلت: نسيت ان اضيف إلى مؤهلاتي انني خدمت في الجيش وتخرجت برتبة ضابط. قال: يبدو انك الشخص الذي نبحث عنه. واذا كنت ضابطاً في فرقة مقاتلة فان مستقبلك مضمون عندنا وستربح كثيراً.

قلت: ولكن، لم اعرف اسم شركتكم ونوعية العمل فقد نشرتم رقم الهاتف فقط. هل تستطيع ان تشرح بعض التفاصيل.

قال: نحن شركة تملك شبكة فنادق والوظيفة الشاغرة هي سفرجي في فندق على شاطئ نهريا.

اردت ان اغيّر نبرة صوتي ولهجتي وان اقطع المحادثة، لكنني قلت في نفسي، ما الذي اخسره، فلا ينقصني الوقت لاجراء محادثة من هذا النوع، فقررت ان اواصل الحديث ويبدو انه اعجب بمؤهلاتي واسلوبي اذ حافظت على "اتيكيت" الكلام. قلت له: هل وظيفة سفرجي تحتاج إلى خبرة عسكرية؟ ان كل ما علي ان افعله هو ان اخدم الزبائن في مطعم الفندق!

فوجئ لسماع سؤالي وكانت اجابته غامضة كما لو كان يتحدث عن المفاعل النووي وقضية فعنونو ، فقال : أنت تعرف اين تقع نهريا ومن هم زبائننا ، ليس جميعهم من السياح الامريكان ، ولا تطلب مني المزيد . . تعال غداً إلى المكتب وسنتحدث !

قلت في نفسي ، حان الوقت لأن أكشف اللعبة : "يا حضرة المدير ، (وهنا غيّرت نبرة صوتي ولهجتي) انني لن آتي إلى المكتب وطبعاً إذا جئت فلن تستقبلني ، لانني أنا احمد الذي تحدث معك من قبل ، وانا عربي ولم اخدم في الجيش ولكنني استطيع ان اكون افضل سفرجي في فندقك" .

صمت للحظات ، ثم تكلم المدير وكان صوته اغلظ ونبراته احدّ وتكلم كثيراً ، فهمت بعض ما قال ولم افهم الكثير . . . لكن "عربي قذر" قالها اكثر من مرة . فقطعت المكالمة وعدت إلى المطبخ لأعد الفطور لي ولوالدتي التي كانت شاهدة عيان صامتة على "مقلبي" .

وعدني بأن يبذل جهده من اجلي

سجل اسمي ورقم هويتي ومؤهلاتي

اتخذت لنفسي هواية جديدة ، ففي كل يوم اقرأ اعلانات الصحيفة ، واتصل هاتفياً ، اكثر ما كان يلفت نظري الاعلانات المذيلة بملاحظة ان المطلوب جندي مسرح ، وكنت اقدم نفسي علي انني مسرح من وحدة عسكرية مقاتلة وبرتبة ضابط ، كانوا يقولون لي : قدّم طلباً وارفق

شهادات واكتب عن حياتك. ولكن عندما كنت اقول لهم من اولها: اسمي احمد. كانوا يقولون فوراً: لا مجال للحديث: ابحث عن مكان آخر.

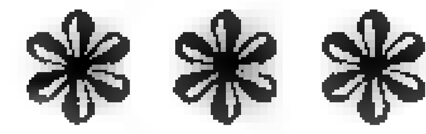
اقترح علي احد الاصدقاء ان اتوجه إلى مكتب العمل. بعد تردد ومشاورة حتى مع والدتي، ذهبت في صباح يوم الاثنين، فالمكتب يستقبل العاطلين امثالي مرتين في الاسبوع، كل اثنين وخميس، من الساعة الثامنة وحتى الواحدة بعد الظهر.

فكرت بالذهاب مبكراً لكي لا اضطر ان انتظر كثيراً، فقد عرفت ان الكثيرين من اهل قريتنا يبحثون عن عمل، والتسجيل في المكتب يستغرق وقتاً طويلاً، ولكنني وجدته مثل بقية المكاتب، غرفة مغلقة وغرفة انتظار فيها مقعدان طويلان، وعليهما يجلس اكثر من عشرة اشخاص، وقد وقف خمسة آخرون، جميعهم كانوا يدخنون، ويتأففون، لينفثوا الدخان من رئاتهم والغضب الذي يتكاثف في الرئتين والمعدات والامعاء وفي كل زاوية مفرغة من تجاويف البطن.

دخلت

على الموظف فرحب بي. اثار اهتمامه انني عاطل عن العمل واعرب عن أسفه على حالتي وعن استعداده لمساعدتي بالرغم من ان الوضع "في السوق" - كما قال لي - صعب جداً واماكن العمل قليلة. ولكنه سيبذل كل جهوده من اجلي. سجل اسمي ورقم هويتي ومؤهلاتي وقال لي: تعال يوم الخميس. وجئت يوم الخميس. وقال لي: تعال يوم الاثنين. وجئت وكلما دخلت مكتبه يسأل عن حالتي ومعنوياتي فاقول

له : زفت ! فيقول بالعبرية : يهيه طوف . اي : بيصير خير ! وبقيت اكثر من شهر اتردد يومياً إلى المكتب واعود خائباً بعد ان يقرأ امامي قائمة باماكن العمل ، إلى ان قررت الاعتماد على نفسي فقررت الخروج من البيت والبحث عن عمل في الشركات والمصانع والمطاعم والفنادق وحتى في محطات البنزين ، ولكنني عدتُ خائباً بعد اسبوعين من البحث المضني والتفتيش الذي كلفني كثيراً من الجهد والنفقات . عدتُ إلى البيت وواصلت النوم حتى الساعة العاشرة والنصف صباحاً حين تلكشني والدتي فاشرب القهوة وآكل البسكوت وأدخن واقرأ الصحيفة واستمع إلى الاذاعات وازور اصدقائي ويزورونني واشاهد افلام التلفزيون واثرثر طوال النهار وحتى منتصف الليل إلى ان اغمض عينّي واطرّز احلاماً ، بمستقبل وبيت وعمل .



أحمد إبن رابعة 1984/

انتظر ساعي البريد

في طفولتي احببت ساعي البريد

عندما كبرت صرت أنا والحكومة مثل ابريق الزيت

منذ طفولتي احببت ساعي البريد، لانني انتظرت منه المفاجئات السارة. خصوصاً عندما كنت في الثانية عشرة وقد احببت درس الانشاء وكتابة الرسائل وارسلت اسمي وعنواني وهوايتي إلى ركن التعارف في برنامج الطلاب الاذاعي وبعد اسبوع بدأت اتسلم الرسائل وارد عليها، ويومها تعلمت كيف استعمل البريد واطوي الرسالة واضعها في مغلف واشتري طابعاً وألصقه على الزاوية اليمنى وأضعه في الصندوق. تماماً كما تعلمنا في المدرسة عن البريد وصورة الغزال. ويومها عرفت لاول مرة ان هناك قرية اسمها البعنة وأخرى باقة الغربية وام الفحم.. كنت انتظر ساعي البريد بفارغ الصبر، وكان يصل الينا مرة أو مرتين في الاسبوع ليسلمني رسالة من احد الاصدقاء، وعندما كنت التقيه في الطريق اسأله إذا وصلت رسالة. فيقول. لا. إلى ان ضاق ذرعاً فصار كلما رآني وقبل ان اسأله يعاجلني بالجواب فيقول: "لم تصل رسائل اليوم". وكنت اصاب بخيبة أمل.

ولكن، عندما كبرت وصرت أشتغل وصار اسمي وعنواني ورقم هويتي مدرجين في ملفات الحكومة، اصبحت اكره ساعي البريد. لا اكرهه شخصياً، فهو انسان طيب وكادح يقيس شوارع البلد مرة في

اليوم على الأقل ولا يكل ولا يتعب ولا تغادر الابتسامة محياه، ولكنني اصبحت اكره حضوره إلى بيتي في ساعات الصباح حيث يطرق على الباب، فافتح، فيناولني رسالة أو اثنتين، ليست كالتي كنت اتسلمها من اصدقاء الطفولة ولكنها "رسائل من اصدقاء الكبر والهم، رسائل الحكومة المطبوعة على ورق صقيل ومطوية في مغلف باللون البني وعليه شعار الدولة واسمي: احمد بن علي بن حسين عبد القادر ورقم هويتي. وفي كل مرة افتح الرسالة واذا بها من مكتب ضريبة، مرة ضريبة الدخل ومرة الارنونة ومرة المس عيرخ موساف ومرة التأمن القومي ومرة المجلس المحلي حتى انني كنت مديناً لاحد الاصدقاء بمبلغ زهيد نسيته في غمرة هذه الهموم وهو خجل ان يطالبني به وجهاً لوجه فأرسل الي رسالة حملها وهو يكتب اليّ ليسامحني بالمبلغ ان كنت افكر الا ادفعه له مربوطاً بجدول الغلاء، واذا ربطته كما تربط الحكومة مبالغها فانني ساضطر إلى ان اشتغل شهرين كاملين لكي ادفع له هذا الدين القديم جداً والذي غاب عني.

على كل حال، مع الصديق دبّرت حالي لكن مع الحكومة، فالقصة مثل حكاية ابريق الزيت.

انتصرت على الحكومة. وانتظرت بفارغ الصبر ان ينتهي ذلك اليوم لأسافر

كانت المفاجأة في يوم ماطر وبارد والريح "تقص المسمار"، خفت من مغادرة البيت لئلا تصفعني "لفحة هوا" فجلست خلف موقد الحطب، شربت وأكلت ودخنت كثيراً. فتحت الباب، وبعد ان ناولني الرسالة

الحكومية باللون البني امسكت بذراعه وانا اصر على ان يدخل ليشرب القهوة ويستريح ويريح اهل الحارة من رسائل الشؤم التي ترسلها الحكومة ليدفعوا الضرائب. جلسنا وبدأنا ندردش وانا اشكو همومي وهو يشكو همومه ووضعت الرسالة جانباً دون ان افتحها، فقد كنت اتصوّر ماذا يمكن ان تكون: دفع ضريبة لا اكثر ولا اقل. وما يثير حب الاستطلاع هو قيمة المبلغ الذي يجب ان ادفعه واذا كان انذاراً اخيراً قبل الحجز أو بلاغاً بالحجز. بعد ان غادر ساعي البريد فتحت الرسالة وهنا كانت المفاجأة الكبرى. لقد بعثت لي الحكومة تبلغني انني في العام الماضي دفعت ضريبة اكثر من المطلوب. وعندما دققت الحكومة حساباتها سجل الكمبيوتر لصالحي انني افضلت عليها واغدقت العطاء وستعيد اليّ المبلغ مربوطاً بالاندكس مع فوائد لا حصر لها ولا عد.

لم يكن يهمني المبلغ الذي سيدفع لي، ولم تكن قيمته مصدر سروري وفرحي فالحكومة لم تسجل قيمة المبلغ بل اكتفت بالاشعار وطلبت ان اتوجه إلى مكاتب الضريبة لاستلامه. ما اثار غبطتي كان شعوري انني انتصرت على الحكومة وانها مدينة لي وانني لاول مرة اتوجه إلى مكاتب الضريبة لا لكي ادفع بل لكي اتسلم مبلغاً وقدره. شعرت بالدفء ودبت الحرارة والحرقة في انحاء جسمي وانتظرت بفارغ الصبر ان ينتهي ذلك اليوم لأسافر إلى حيفا في صباح اليوم التالي واطرق ابواب المكاتب وانا احمل الرسالة واقول للموظفين: لي حق عند الحكومة وجئت لانتزعه. وقررت بيني وبين نفسي ان أصرّ على كلمة: "انتزعه". لأن الحكومة بنت حرام ولا تستطيع ان تحصّل منها شيئاً بسهولة.

بالرغم من انه كان يوماً ماطراً وبارداً الا انني شعرت بالدفء وسمحت لنفسي بأن اترك موقد الحطب لأخرج من البيت حاملاً الرسالة كي أخبر اصدقائي انني من اليوم وصاعداً صرت احب ساعي البريد وانتظره بفارغ الصبر وان الحكومة مدينة لي وهذا امرٌ غريب عجيب قلّما يحدث في قريتنا التي تنغل فيها سيارات الحجز و"التحصيل دار" الحكومية .

حشرتُ انفي فضايقها . حَشَرت

جسدها الثقيل فلم تضايق احداً

في الساعة الثامنة صباحاً كنت امام مكتب الضريبة . عند المدخل جلس حارس يفتش الحقائب . كنت أحمل حقيبة صغيرة . فتحها وحشر يده بها وصار "يعسعسها" ولما لم يجد ما يثير الشكوك سمح لي بالدخول فدخلت . كان اول موظف التقيه بعد الحارس ، رجلاً في الخمسينات يجر عربة وعليها فناجين الشاي والقهوة والكعك ، يدخل من غرفة إلى غرفة ، ويواصل مسيرته ، وكم تمنيت ان يكون هو الموظف الذي سأقابله حيث شعرت بجفاف في حلقي وتمنيت كأساً من الشاي أو فنجاناً من القهوة . لكن ما في اليد ولا حيلة . واصلت سيري إلى الموظف الثاني الاكثر أهمية وهو الجالس خلف طاولة الاستعلامات . سحبت الرسالة من حقيبتي وقدمتها له وقلت : جئت لانتزع حقي ! وبعد ان قرأها نظر الي وقال : ماذا يعني انتزع؟ هل تظن ان الدولة ستسرق اموالك ! هل هكذا تعبر عن اخلاصك للدولة !

قلت له : لم اقصد الاساءة . ولكن هذا حقي ! واعتذر إذا كان تعبيري قاسياً . أنت تعرف ان الحكومة تحب ان تأخذ ولا تعطي بسهولة .

يبدو انني جرحت مشاعر الموظف وكان اعقل مني فلم يواصل النقاش وناولني ورقة كتب عليها رقم 22 وقال لي اذهب إلى غرفة 402 . في الطابق الرابع . قلت في نفسي : لماذا كثرة الكلام والثرثرة . المهم ان آخذ المبلغ وحساباتي مع الحكومة اصفيها فيما بعد .

انتظرت ثلاث ساعات ولكنني حافظت على هدوئي. فقد أخذت "ساندويش وصحيفتين"

بحثت عن مقعد فلم اجد . وقفت قرب الشباك الذي يطل على المدينة القديمة وصرت اتأمل المطر النازل على سطوح البيوت ، وبين الفينة والاخرى التفت إلى الجالسين لعل العدد ينقص ولكن من كان يدخل لم يخرج الا بعد نصف ساعة أو اكثر . بحثت في حقيبتي عن صحيفة أو كتاب أو ورقة اتسلى بها فلم اجد سوى الرسالة وبطاقة الهوية وبعض الاوراق المتراكمة في حقيبتي ، فكرت بأن اخرج إلى الشارع لاشتري صحيفة واشرب شيئاً ، ولكنني عدلت خوفا من ان اخسر "دوري" . المرأة السمينة التي ضايقها حشر انفي وجدت لها مكاناً قعدت عليه وصارت تغزل الصوف وبين الفينة والاخرى تنظر اليّ نظرة ازدراء ، كأنها تريد ان تقول شيئاً ، أو تعيد قولها : "ما شأنك؟ هل أنت سائق مصعد؟" وكنت ابعد نظري عنها واتظاهر بالتنقيب في حقيبتي عن ورقة هامة . وشعرت بارتياح عندما صارت تثرثر مع امرأة جلست إلى جانبها وتشكوها همومها وتتحدث عن ابنتها التي انهت الجندية وهي عاطلة عن العمل . .

تنام في النهار وتسهر الليل في ديسكوتيك . . وتحب المطالعة والرحلات . . نظرت إلى ساعتي . كانت عقاربها تشير إلى التاسعة والربع . . بعد قليل خرجت الموظفة من الغرفة ، ودخلت إلى المرحاض وعادت بعد دقائق ، سألتها المرأة السمينة : "ماذا يحدث هنا : اننا ننتظر اكثر من ساعة . لماذا لا تعينون ثلاثة موظفين . هل سنقضي النهار هنا؟" . رغم انني كرهتها في البداية الا انني صرت احترمها لأنها الوحيدة التي تجرأت على الاحتجاج ، بالرغم من ان الموظفة انسلت إلى غرفتها دون ان ترد أو تلتفت .

مضت الساعة الثانية والثالثة وكانت عقارب ساعتي تشير إلى الحادية عشرة والنصف عندما دخلت . اردت ان احتج على هذه البيروقراطية لكنني آثرت ان انهي معاملاتي لأذهب إلى البنك قبل الظهر . ناولتها الرسالة فطلبت مني ان اعبئ نموذجاً وأوقع عليه . وفعلت ذلك بسرعة وهي ضغطت على ازرار الحاسبة الالكترونية التي اجرت الحساب النهائي فكان مبلغاً لا يصدق . ضعفي راتبي الشهري . تصورت انها ستكتب لي الحوالة ولكنها قالت لي : اذهب إلى ادارة الحسابات والصندوق مع الرسالة والنموذج . قلت : في اية غرفة؟ قالت : في البناية الثانية في شارع يافا الطابق الخامس غرفة **519** . ولم يكن امامي الا ان اهرول إلى العمارة الثانية التي تبعد اكثر من نصف كيلو متر . كنت اخشى ان انتظر هناك ايضاً بالدور ، ولكنني وصلت الغرفة ولم اجد احداً ، فطرقت الباب ، ولم يفتح ، ومرة اخرى ، ومرة ثالثة ، ففتحت نافذة صغيرة اطلت منها فتاة شقراء وقالت لي : الساعة الثانية عشرة

والربع وساعات الاستقبال من الثامنة حتى الثانية عشرة فقط. تعال غداً. لم تجدِ كل توسلاتي فقد اغلقت النافذة وعدت خائباً لكنني فرح بالمبلغ الذي سأنتزعه من الحكومة في اليوم التالي والذي بدأ في الثامنة مع حارس آخر وموظف آخر يجر عربة الشاي والقهوة والرقم من موظف الاستعلامات والانتظار ثلاث ساعات واكثر. لكنني حافظت على هدوء اعصابي فقد احضرت معي "ساندويش" وصحيفتين وجلست بهدوء ولم تكن امرأة سمينة تعكر صفو يومي.

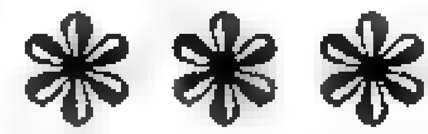
ناولت الموظفة النموذج والرسالة، فطلبت مني بطاقة الهوية. ناولتها. ففتحتها. ثم غابت. لم استطع ان احقق عبر النافذة إلى اين انصرفت لكنها عادت بعد ثلاث أو اربع دقائق. وقالت: هل اسمك احمد بن علي بن حسين عبد القادر؟ قلت: نعم. قالت: وما هو رقم هويتك؟ "كرجته كرجاً". فقالت: "انا متأسفة. هل في قريتكم شخص آخر يحمل هذا الاسم". قلت بعد لحظة تفكير: "نعم! انه من الحمولة. وحمولة عبد القادر تعد ثلثي البلد. قالت: "يبدو ان الرسالة لابن عمك. فهذا ليس رقم هويتك! انتظر لحظة".

انتظرت وعادت بعد دقائق وهي تحمل اوراقاً سحبتها من كمبيوتر الحكومة. وقالت: "هذه ورقة ابن عمك ورقم هويته والمبلغ الذي يستحقه. وهذه ورقتك ورقم هويتك يا استاذ عليك ان تدفع للضريبة مبلغ 932 شيكل، ضريبة مستحقة من العام الماضي. اوصل الرسالة إلى ابن عمك واقترح عليك ان تدفع المبلغ حالاً لأن الفوائد عليها كبيرة.

قلت لهـا : هل تظنين انني سـاعي بريد لدى الحكومـة . خـذوها وابعثوها .

قالت : ولكن هذا لا يعفيك من دفع الضريبة .

عدت إلى موقد الحطب ، لم اخبر ابن عمي عن الرسالة ، وصرت اكره ساعي البريد من جديد ، وكم تمنيت ان تعود ايام الطفولة .



أحمد إبن رابعة 1985/

صديقه اليهودي

انتظر الحمار وخاب أمله

قلت له: "شالوم" فقال: هل أنا ..

صديقك وزارني في غرفتي

اتصل بي قبل اسبوع . . قال : ربما انك لا تذكرني ، ولكنني تذكرتك عندما قرأت احد مقالاتك في جريدة المدينة . . ان قلمك رشيق وكتابتك جذابة .

قلت له : شكرا ولا بد ان اذكرك عندما تقول اسمك .

كان على الطرف الآخر من خط الهاتف يتحدث اليّ بالعبرية . . شعرت ببعض الحرج خوفا من خيانة الذاكرة ولكنني تجرأت على مصارحته ، حتى بعد ان ذكر اسمه ، بأنني-لا مؤاخذة- لا اذكره . . مع ان الاسم ليس غريبا عني .

قال : ساحاول تذكيرك على الطريقة السقراطية .

قلت : يبدو اننا تعارفنا في القدس . . فقد بدأت اتذكر الصوت .

قال : بدأت تسعفك الذاكرة . . هل تذكر غرفة 206 في بناية رقم 3 في الجامعة . .

قلت : اذكرها تماما . . وانت درست العلوم السياسية والجغرافيا .

كان ذلك في عام الهزيمة ، في صيف تلك الهزيمة . وصلت من القرية إلى المدينة شابا في الثامنة عشرة ، لا اعرف احدا سوى مسؤول المساكن الذي سلّمني مفتاح الغرفة وقال لي : إذا واجهتك اية مشكلة تعال اليّ ، وان عاملة النظافة تأتي ايام الاثنين ، فلا تترك امتعتك على الارض وحافظ على نظافة المطبخ . . وكان المسكن مؤلفا من اربعة طوابق . . وكل طابق من **15** غرفة يوصل بينها "مردوان" ولكل طابق مطبخ مشترك ، وغرفة حمامات ومراحيض ، وكلها مشتركة وعند مدخل البناية قوارة كبيرة من الاسبست فيها نبتة كبيرة و"قراعيم" سجائر ، وانا تصورت ان الناس في المدينة كالناس في قريتي ، تلقي التحية على من تعرفه ومن لا تعرفه فيرد عليك بأحسن منها ، وفي اليوم الاول حين كنت اخطو على الدرج الصاعد إلى الطابق الثالث التقيته وكان نازلا فقلت : شالوم .

توقف ونظر إلى مندهشا وسألني : من اين تعرفني ؟

قلت : لا اعرفك من قبل وهل تضايقك كلمة "شالوم" ، أنا لم اشتمك .

قال : أنت عربي ؟

وضحك من سذاجتي / سذاجتنا نحن العرب حين قلت له ان العادة في بلدنا ان نقول مرحبا لكل من نلتقيه في طريقنا . . وهو عليه الرد على التحية . .

قال: أنا لست صديقك ولا حاجة لأن تقول لي شالوم..

هكذا ابتدأت دراستي في الجامعة.. ولكن العلاقة معه تطورت فيما بعد. كنا نلتقي في المطبخ في امسيات الجمعة حيث نعد الطعام.. وبعد هذا دعوته إلى غرفتي ودعاني إلى غرفته واصبحنا اصدقاء.

نحن زبائن "بير كاردان" و "فبرجيه"

والباريسية لا تصدقهم على السرير المخملي

ذكرني بكل ما كان يحدث عندما كنا في الجامعة، في المطبخ وفي الغرف وفي باحة كلية العلوم الاجتماعية، وذكرته انه كان يكره العرب، وقال لي: لقد تغيرت، أنا اليوم لا اكرهكم ولكنني لا اعشقكم.

طالت المحادثة، فقد كان يتكلم من القدس، اشفقت على جيبه من حساب التليفون فاقترحت ان يختصر.

قال: أنا لا ادفع ثمن المكالمة. انها على حساب المصلحة.

- أية مصلحة؟

- اعمل مخرجا للسينما في مؤسسة اوروبية وقد طلب مني ان اعد فيلما عن العرب!.

لم افهم كيف تحّول صديقي الذي ولد في كفار سابا، وكان ضابطا في فرقة "جولاني" التي احتلت جنين عام **1967**، وكان يكرهنا، كيف تحول "من عدو إلى صديق" ومن الجغرافيا إلى الاخراج السينمائي، وحين طلب مساعدتي ترددت خشية ان اساعد في اخراج فيلم يشوّه

صورة العرب بين الاجانب وشعوب العالم. ولكنني وافقت بعد ان اكدّ لي بأنه لن يظهرهم متوحشين ومتخلفين بل العكس، انه سيعد فيلما ايجابيا عنهم، يريد ان يظهر جمال القرية العربية.

عندما التقينا بعد اسبوع، ومعه طاقم التصوير، عند مدخل بيتي قلت له: لقد تغيّرت شكلا ومضمونا. فاين ذهبت بكرشك الكبير واطرافك المنتفخة، تبدو اليوم كأنك عارض أزياء، نحيف وممشوق، هل هذه هي ضرورات السينما؟

فاجأه انني سمنت وكبر كرشي واتسعت رقعة صلعتي، ودبّ الشيب بما تبقى من شعيرات على رأسي وتجعد وجهي. لكن اعجب كثيرا ببيتي الواقع على تلة مرتفعة ويطل على واد عميق يمتد بين الجبال، وكان في كلامه ما ينم عن شعور بالحسد.

"لم يعد احد يصدّقنا حين نصّور العرب كانهم متوحشون" - قال صديقي المخرج عندما بدأ الحديث عن "المصلحة".

- وهل سيصدقكم عندما تصورونهم غير متوحشين.

- انهم يملأون اوروبا بسيارات الكاديلاك وموضات بيير كاردان، وعطور فبرجية، والفتاة الباريسية التي غازلها الامير كاكوشي على فراش مخملي ويشعل سيجارتها بورقة الدولار، هل ستصدق افلام البي. بي. سي. إذا صورتهم يغتصبون النساء..؟.

لم يكن في كلامه ما يدعو إلى الضحك بل كان فاتحة لنقاش طويل...

فهم صديقي انه تجاوز اللياقة الاوروبية ولم يصور المخبز المجهز بآلات ألمانية

كان يوما قائظا من ايام "آب – اللهاب"، تناولوا القهوة وخرجنا من البيت لتصوير الفيلم – وقد اعجب صديقي بقريتنا التي تطوّرت كثيراً، بالفيلات الحديثة، وبالسوق السياحية، وعندما هبت زوبعة صيفية وتطاير الغبار عن الشارع الترابي، الذي كنا نسير عليه في طريقنا إلى مركز القرية، استدار المصوّر إلى الخلف بكاميراه الرابضة على كتفه، فاعتقدت انه يصوّر الطريق الترابي بلقطة "بان لونغ شوت" من اليمين إلى اليسار، ليظهر للرأي العام الاوروبي ان قريتنا محرومة من الشوارع المعبّدة، فربما يثير عطف العالم علينا ويجد متبرعاً يعبّد لنا الطريق، لكن فرحي سرعان ما تبدد حين ايقنت انه خشي ان تتسخ عدسة الكاميرة فتحايل على الزوبعة.. وواصلنا سيرنا إلى أن مررنا بالقرب من بيت جارتنا ام سعيد، التي كانت جالسة على حصيرة من القش، امام الخباز المصنوع من صاج دائري مفلطح على موقد من الحجارة والطين ومنه تنبعث السنة النيران، وكانت تسحب قطعة العجين من الطبق الكبير وتضعها على "المرقّة" الخشبية وترقها باصابعها الخشنة الغليظة لتأخذ شكلها الدائري ثم تتناولها وتلوحها إلى ان تصبح رقيقة كورقة الكرتون ثم تضعها على "الكارة" القماشية المدورة وتلقحها على الصاج المعدني. مسحت العرق المتصبب على وجهها المدوّر بخرقة وضعتها إلى جانبها، ثم تناولت قطعة العجين ولوّحتها ومسحت العرق وواصلت عملها وصديقي المخرج ينظر اليها مندهشا، وعندما امر المصور بأن يشغل

الكاميرا. قلت له: اليس من الواجب ان نسألها؟ قال: أخاف ان ترفض. قلت: هذا حقها، أليست هكذا اللياقة الاوروبية؟

يبدو ان جارتنا ام سعيد سمعت هرجنا، فالتفتت قبل ان اقول لها: يعطيك العافية يا جارتنا. ولما رأت المصوّر قالت:

- شو بيعمل هذا؟ مصوّر؟ قل له ينصرف احسن ما اكسّر له آلته، شو احنا في جنينة حيوانات؟

فهم صديقي انه تجاوز اللياقة وامر طاقمه بأن يجمع بضاعته وهو يقول: "خسارة"! "انه مشهد يحبه الاوروبيون". وعندما وصلنا إلى المخبز الحديث المجّهز باحدث الافران الالمانية والذي اقيم في بلدنا قبل عشر سنوات ونيف، برأسمال محلي وبدون دعم قلت له:

لماذا لا تصّور هذا المخبز، انه يوزع الخبز العربي على جميع الكيبوتسات وارقى المطاعم والفنادق في حيفا.

استوعب صديقي غمزي الخبيث ورد هو بخبث ايضا: هذا مألوف في اوروبا!

وواصلنا تجوالنا في شوارع القرية.

أقنعته ان الحمير انقرضت في قريتنا
فطوى السيناريو ووضعه في حقيبته

كان كلما صورّ مشهداً، يسحب من حقيبته ورقة مطبوعة ويشطب بقلمه سطرا ويعيد الكرّة. صورّ الاطفال يلعبون في الحارة والنساء

بلباسهن التقليدي والاماكن المقدسة ولفت انتباهه سيارة مرسيدس فاخرة يسوقها رجل يضع الكوفيه والعقال على رأسه كأنه أمير من الامراء. فاقترب منه وطلب ان يبتسم فابتسم رغما عنه وهو الذي لا يضحك وجهه للرغيف السخن. قلت له ماذا تشطب؟ قال: هذا هو السيناريو. وقد صوّرت جميع المشاهد لكن بقي مشهد هام. اشطب عنوان المشهد الذي اصوّره. هل ترى ماذا بقي؟ وضحك صديقي المخرج، ولم افهم لماذا الاّ بعد ان قرأت عنوان المشهد: "أحمد على الحمار". فضحكت. وظل يقهقه ولما ادرك انني تضايقت توقف عن الضحك وقال: احمد على الحمار. هكذا طلبوا مني وبدونه لا استطيع ان انهي مهمتي.

- لقد انقرضت الحمير في قريتنا.

- غريب. بحثت في كل زاوية وزاوية ولم ار حمارا واحدا.

- استبدلنا الحمير بالتكنولوجيا الغربية.

- دعنا من الهزل. الا يمكن العثور على حمار واحد على الاقل؟

اقنعته بأن الحمير في قريتنا قد انقرضت حقا، واردت ان تنتهي الجولة فورا وان يحملوا بضاعتهم ويتركوا القرية، وحاولت بشتى الطرق أن أحول دون عودتهم إلى بيتي، ليس لأنهم صاروا يضايقونني ولكنني خشيت، إن عادوا إلى البيت، ان يشاهدوا حمار جارتنا ام سعيد المربوط تحت التينة، فيلبي حمارها رغبات المشاهد الاوروبي.

قال: نعود إلى البيت. لنستريح قليلا ثم نغادر. هل توافق؟

قلت: اهلاً وسهلاً.

وعدنا إلى البيت وكان قلبي يخفق خوفا من فضيحة يسببها لي حمار ام سعيد.

وما ان جلسنا في انتظار القهوة واذا بالحمار ينهق. فانتفض المخرج والطاقم. وهب من مكانه. واذا به في ساحة الدار:

- ها هو الحمار. انظروا. هناك..

وأمر المصوّر ومهندس الصوت ان يحملا آلاتهما وان يتبعاه، وراح الثلاثة يركضون في اتجاه الحمار المربوط تحت التينة وعندما اقتربوا منه جفل ثم نهق واذا بأم سعيد تخرج من بيتها فتراهم يضايقونه بحركاتهم المشبوهة:

- يا جارنا، ظب جماعتك.. احسن ما اكسّر آلاتهم.

قالت لي ام سعيد وكان الغضب يطفح في وجهها المدّور كالبدر.

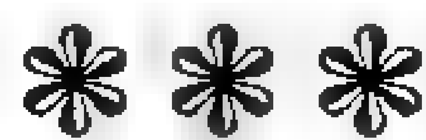
- بدهم يصوّروا الحمار.

قلت لها وحاولت ان اهدئ من اضطرابها.

- وليش يصوروه. اي هو جاي من باريس؟ يلعن ابوهم على ابو اللي خلفهم. عاملين منا مسخرة للعالم.

وعرف صديقي مزاج ام سعيد الناري فطوى السيناريو ووضعه في حقيبته دون ان يشطب عنوان المشهد الأخير!

هكذا ألحقت بهم أم السعيد هزيمة نكراء تضاهي هزيمتنا في ذلك العام الذي قلت فيه شالوم لرجل لا أعرفه، فلم يرد على التحية بأحسن منها.



أحمد إبن رابعة 1986/

انتظر قاضي المحكمة

الشرطية روتي بن مردخاي "تتحركش"

وانا فكرت كيف انتقم "بالمليحة أو العاطلة"

يخطر ببالي هذه الايام ويلح عليّ كثيراً ان اكتب رسائل إلى حركات النساء ولجان الدفاع عن المرأة وعضوات الكنيست والوزيرة شوشانا الموزلينو وكل امرأة متحررة، اشكوهن امري وسوء حظي مع شرطيات حيفا اللواتي يسَودن سمعة النساء ويُثرن في نفسي شوفينية رجولية لا يكبح جماحها سوى تجربتي مع زوجتي وعلاقاتي الطيبة بالزميلات في العمل واهتمامي اليومي بقضايا العاملات المظلومات في المصانع بصفتي عضواً في مجلس عمال بلدنا، وانا المدافع الوحيد عن حقوقهن.

ولكن يبدو انني اضعف امام الجنس اللطيف وتنهار عزيمتي. فبعد ان تذهب ساعة الغضب و"فوَران الدم" واعود إلى رشدي، اقول: يا ولد، حط عن ظهرك! في نهاية الأمر هذه شرطية مأمورة وتنفذ مهماتها، وتريد ان تنفذها على اكمل وجه يُرضي الضابط الذي القى عليها المهمة. فألقي بقلمي وامزق الورقة التي بدأت اكتب عليها: "حضرة وزير الشرطة، وحضرة قائد شرطة المنطقة، وحضرة الرأي العام.. تحية وبعد.. أنا المواطن احمد.." وهنا اتوقف فأمزق.. وألعن الساعة.. والحكومة.. واحياناً الجنس اللطيف.. وبيني وبين نفسي.. اقول: ما عدا زوجتي وابنتي وامي.. واخواتي.. واستثني من الشتيمة كل النساء

الطيبات . . لكي تصب في النهاية على رأس هذه الشرطية . . وربما في مكان آخر من جسدها . . لأنها سجّلت لي مخالفة سير . . هكذا اعتباطاً . . واستضعافاً لي أنا المواطن البسيط . . احمد بن رابعة بنت عبد القادر .

واقول الصراحة ، ان معرفتي بشرطيات حيفا سطحية جداً ولا تتجاوز مخالفتين أو ثلاثاً ، لو انها لم تكلفني الكثير من الوقت واكثر من مئة وخمسين شاقلاً جديداً لكنت خرجت رابحاً واقنعت نفسي ان الشرطية "روتي بن مردخاي" ، الشقراء ، أو التي صبغت شعرها ، بقدها الفارع وعينيها الزرقاوين ، والتي تسكن في كريات موتسكين : هي التي تتحركش بي في كل مرة ، لعلها تريد مني ما هو أهم من مجرد تسجيل مخالفة سير ، وما يمكن ان يشبع غليل مواطن عربي مثلي حساباته مع الشرطة طويلة جداً ، ويفكر كيف ينتقم منها بالمليحة أو بالعاطلة .

لا بد انكم تعرفونها : كما ذكرت ، تبدو شقراء . طويلة . رفيعة . على وجهها بثور لم تخفها المساحيق . تستعمل القلم باليد اليسرى . على كتفها رتبة شاويش ، تجلس دائماً إلى جانب شرطية برتبة أقل . . سمراء . . سمينة . . نوعاً ما . . انها قبيحة ولكن إلى جانب زميلتها تبدو ملكة جمال . . السيارة التي وضعتها مديرية الشرطة تحت تصرفها من نوع "فورد سييره" . . عليها منارتان . . وزاعقة . . ورقمها م **40354** . هل تعرفونها ؟

لم اعرف كيف ارد على سؤالها ولكنني استجمعت قواي وشجاعتي. ونطقت

يبدو لي وانا اسوق سيارتي انني ملك الشارع، لأنني سائق مؤدب، واسير حسب كل قوانين السير، فلا اذكر مرة ان سرعتي تجاوزت ما يسمح به على الطريق المفتوحة أو في داخل المدينة. عندما اجلس خلف المقود وقبل ان احشر المفتاح "بالسويتش"، اربط حزام الأمان وافحص الفرامل وانظر في المرآة ثم اتحرك.. تماماً كما هو مسجّل في الكتب والتعليمات.. واتوقف عند شارة المرور: قف! وامنح غيري حق السير، واشعل الشارة الضوئية كلما انحرفت إلى اليمين أو اليسار، (المقصود انحراف سيارتي طبعاً).. وهكذا فعلت في ذلك اليوم.. فقد كنت في طريقي إلى مكتبي.. في يوم عادي، توقفت في شارع كوبارسكي استعدادا للانعطاف يساراً إلى شارع زيمنهوف، حيث يقع مكتبي اشعلت الاشارة الضوئية وانتظرت عبور السيارات، القادمة من الجهة المقابلة، نظرت في المرآة.. كانت سيارة الشرطة خلفي.. لم أهتم أو هكذا تظاهرت، ولكنني تأكدت ان الاشارة الضوئية تشتعل وتخبو وانني لا اعرقل حركة السير، ولما سمحت لي ظروف الطريق بأن اتقدم، فعلت، بكل هدوء، وحسب كل أنظمة السير، كل شيء كان عادياً وطبيعياً، ولكن بعد لحظات سمعت زعيق سيارة الشرطة، لم اكترث في البداية فانا لست هارباً ولست لصاً ولم ارتكب اية جريمة أو مخالفة سير. واصلت السير، إلى ان نظرت في المرآة فكانت سيارة الشرطة خلفي وهي بالاضافة إلى زعيقها المرعب كانت تشعل اضواءها إشارة لي بأن اتوقف. فهمت الاشارة، وتوقفت على جانب الطريق. فتوقفت

السيارة إلى جانبي في منتصف الطريق. فتحت الشرطية السمراء نافذتها وقالت:

- كيف تتجه إلى اليسارة بدون غماز..

لم أعرف كيف أرد على سؤالها.. فقد فاجأتني.. ولكنني استجمعت قواي وقلت:

- لقد اشعلت الغماز.. أنا متأكد من ذلك..

فقالت الشرطية التي تبدو شقراء: هل تكذبنا؟

قلت يا ولد، راحت عليك.. اردت ان اواصل دفاعي عن نفسي ولكنها عاجلتني بقولها: أعطني الرخص!

عندما تقول لك شرطية "أعطني الرخص" اعلم ان القضية قد انتهت، فستأخذها منك وتسجّل في دفاترها وتعطيك نسخة وتأمرك بأن تتوجه إلى البنك وتدفع! بدون نقاش وبدون "كثرة حكي". ناولتها الرخص: فامسكت بجهاز اللاسلكي وقالت: من عصفور رقم **12** كدكود رقم **1**.. عصفور **12** إلى كدكود **1**.. احمد.. **548362**.. سوبارو.. رمادي.. حوّل.. حوّل..

كتبت إلى وزير البوليس وضابط المنطقة

واقنعت نفسي ان المحكمة عادلة

كما في الافلام البوليسية، فتحت الباب ونزلت بسرعة، ثم نزلت زميلتها، وصارت تنظر إلى سيارتي، تأكدت ان رقمها هو المسجل في

الرخصة، ثم عادت إلى مقعدها، وفتحت دفاترها، وسجلت كل التفاصيل.

لم اسكت. هي تسجّل وانا اقول لها: انني لم اخالف! لقد اشعلت! ولكنها لم تُعِر كلامي اي اهتمام. قلت لها: انني سأقدم شكوى. قالت بكل برودة: إفعل ما تشاء! وقل ما تريد في المحكمة! نحن دولة ديمقراطية ومحاكمنا عادلة.. هناك تستطيع ان تقول كل شيء. فشعرت باطمئنان أو هكذا اقنعت نفسي ان لا جدوى من النقاش معها، فقد سجّلت المخالفة، وناولتني نسخة، ولم تكترث لدفاعي عن نفسي مثلما لم تكترث لعرقلة حركة السير فقد اصطف طابور من السيارات خلف سيارتها، ولم يجرؤ احد على ان يزمر أو يطلب منها ان تفتح الطريق، فربما انهم يعرفونها مثلي ويعرفون حق المعرفة ان التورط معها هو معركة خاسرة لا محالة، والأفضل تحاشيها فهي لا ترحم ولا تترك سائقاً يفلت منها بدون مخالفة.

بالرغم من حقدي عليها وغضبي واستسلامي لها الا ان كلامها عن الديمقراطية وعدالة المحكمة أعاد اليّ ثقتي بنفسي وهدأ من ثورتي وغضبي. أخذت المخالفة وكنت رفضت التوقيع عليها، وقلت: سوف أريها! سأرسل شكوى إلى وزير البوليس. وسأدافع عن حقي في المحكمة وتحركت سيارتها. واختفت بعد لحظات. وانا جمعت اوراقي وذهبت إلى مكتبي، وأمسكت بقلمي ونذرت على نفسي ان ارسل شكاوى إلى جميع الجهات.. فهذه ليست المرة الاولى التي "تتلبسني" فيها شرطية معقدة يبدو انها تكره الرجال.. أو ربما تكرهني لان اسمي

احمد . . أو انها على حساب امثالي تريد ان تترقى وتبيض وجهها امام ضباطها الآمرين .

كتبت إلى وزير الشرطة . . والى المسؤول عن شكاوى المواطنين . . والى ضابط المنطقة . . والى المستشار القضائي . . اردت ان امارس كل حقوقي كمواطن . . ان استفيد من الديمقراطية . . فنحن لا نعيش في دولة تحكمها الشرطة . . بل كما قالت : في دولة ديمقراطية . هكذا اقنعت نفسي عندما بدأت بكتابة الرسائل ولكنني عندما انتهيت اقنعت نفسي بالعدول . . فلماذا لا اقول كل هذا الكلام في المحكمة . لأنتظر المحكة !

هل تعترف؟ لا ! تلعثمت وكان عليّ

ان اختار. ادفع أو اسحبوه إلى السجن!

محكمة السير تقع في شارع "هحالوتس" . وصلت في الثامنة صباحاً ، كنت مرهقاً ولكنني استجمعت قواي وشجاعتي وكل ثقتي بنفسي ، ففي هذا اليوم سأضع حداً لتصرفات هذه الشرطية الوقحة . سوف اقنع المحكمة بأنها تتسلبط على المواطنين المخلصين من امثالي ، وتسجّل ضدهم مخالفات لم يرتكبوها . إذا طلب من القاضي ان اقسم يميناً بأن اقول الحق كل الحق ولا شيء غير الحق ، فسأقسم بكل الكتب السماوية ، وكل الأنبياء . . سيصدقني ولا شك . . فانا لا اقول الا الحق . . ولا بد ان العشرات غيري وقعوا ضحية "سلبطتها" .

كانت قاعة الانتظار في بناية المحكمة تغص بالعشرات ممن استدعوا للمحاكمة . . توجهت إلى سكرتارية المحكمة . . وقدمت لهم المخالفة . قالت الموظفة : ماذا تفضل؟ ان تمثل امام المحكمة ام تدفع المخالفة بدون محكمة . . قلت : لدي ما اقوله للمحكمة . .

قالت : اذن انتظر . .

انتظرت ساعة ونصف . . صار حماسي يفتر شيئاً فشيئاً . . كان عدد المنتظرين يتضاءل . . يدخلون إلى القاعة . . يخرجون . . لم أرَ ابتسامة على وجه منهم . . لم ينتصر احد في المحكمة . . يتوجهون إلى السكرتيرة . . ثم يخرجون . . والغضب في عيونهم .

فكرت : لماذا أنا ساذج؟ هل سأصلح العالم في هذه الساعة . ما جدوى الكلام في المحكمة؟ بدأت افقد ثقتي بنفسي ، إلى ان فقدتها تماماً . توجهت إلى السكرتيرة وقلت : اريد ان ادفع المخالفة . ظننت ان بامكاني ان اناولها مبلغ خمسين شاقلاً ، كما هو مسجل ، وانصرف إلى عملي ، ولكنها قالت : الدفع في مكتب المحكمة شارع شمرياهو ليفين . . اذهب وادفع هناك . . ذهبت . . كان هناك أكثر من عشرين مخالفاً ينتظرون . . استجمعت ثقتي بنفسي وشجاعتي : وقلت : سأعود إلى المحكمة . فأنا مواطن ولي الحق قبل ان ادفع بأن اقول كلمتي . على الأقل سأمارس حقي في التعبير عن رأيي !

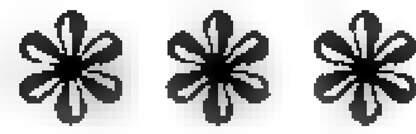
انتظرت ساعة . دخلت قاعة المحكمة بعد أن قرأ البواب اسمي . ومثلت امام القاضي . شعرت ببعض الارتباك لكنني اعدت إلى نفسي

شجاعتي وهدوئي. وبعد ان قرأ القاضي لائحة الاتهام. سألني: هل تعترف؟

قلت : لا.

كنت اتصور انني بهذه الكلمة القصيرة اصدرت الحكم. أنا بريء والشرطية "متسلبطة" وتستحق البهدلة. ولكن عندما سألني القاضي: كيف اثبت براءتي؟ تلعثمت. واقسمت له اغلظ الايمان. وعندما سألها: كيف تؤكدين مخالفته. طلبت استدعاء الشرطية السمراء. قال القاضي: هل اصدقك واكذّب شرطيتين قامتا باداء واجبهما من اجل الحفاظ على حياتك! كان عليّ ان اختار. دفع مئة شاقل أو السجن لمدة شهر!

عدالة! وهل اختار السجن؟



أحمد إبن رابعة 1987/

انتظر وانتفض

الضحك بلا سبب من قلة الأدب.

ويأمرنا ان ننصرف إلى العمل لأن البلد في اعناقنا

دائما أتساءل: لماذا يأمرونني بأن ابدأ عملي في الساعة السابعة صباحاً وانهيه في الرابعة، بينما لا يصل احد منهم قبل الثامنة وفي الثالثة بعد الظهر تصبح بناية المجلس المحلي كأنها مقبرة ولا احد غيري يتحرك ويتنقل بين الغرف، اجمع فناجين الشاي والقهوة والصحون الملطخة وانظفها قبل ان اعود إلى البيت.

اليوم، على غير عادة، وصل الرئيس في السابعة والنصف، كنت اعد القهوة في الزاوية الصغيرة والضيقة الواقعة في مدخل البناية الضخمة. قال لي:

- صباح الخير يا احمد.

- صباح النور يا حضرة الرئيس.

كان يبتسم، على غير عادة، وقد اختفت الملامح الجدية "الناشفة" عن وجهه واستبدلها باشراقة رفعت معنوياتي فشعرت بغبطة لم اشعر بها من قبل حين استفتح بحضرة الرئيس لان يومه يبدأ معي عادة بملاحظة: لماذا تأخرت؟ ولماذا تضيع الوقت مع الموظفين! ولماذا رفضت ان تقدم القهوة

لمدير قسم المياه؟ والى غير ذلك من الملاحظات التافهة التي تعكّر صفو يومي وتثير اعصابي وتطير "ضبان" عقلي.

قلت: الرئيس اليوم مزهزه. لكنني لم اجرؤ على الاستفسار عن سر فرحه كما افعل مع الموظفين حيث اسأل المتزوجين منهم: كيف قضيت ليلتك. اجب بنعم أو لا.

وصاروا يحبون اسئلتي وهذا الاستفتاح. فعندما يرونني يسألونني: كيف قضيت ليلتك؟ وهكذا نبدأ اليوم وننهيه بجو من المرح والمزاح الذي لولاه لما صمدت يوماً واحداً في عملي.

قال لي الرئيس: احضر فنجان قهوة وسأرقيك اليوم بدرجة!

فرحت واحضرت للرئيس خمسة فناجين. ضحك. وهذه اول مرة اشاهده وهو يضحك. فسألني: لماذا خمسة فناجين يا عبيط!

قلت وضحكت: استحق خمس درجات. كل فنجان بدرجة.

وكالعادة قطب جبينه، فرئيس مجلسنا عدو لدود للضحك والمرح. ويقول لنا: الضحك بلا سبب من قلة الادب. وعندما نضحك لاسباب وجيهة تجعل الكراسي احياناً تضحك، ينفي هذه الاسباب ويظل قاطباً جبينه ويأمرنا بأن ننصرف إلى العمل وان نكون جديين لأن مصير القرية معلق في اعناقنا ولا يجوز ان نستهتر بمستقبل هذا البلد الذي يستحق التضحية والتفاني من اجل مستقبله النيّر ومصير الاجيال الصاعدة والواعدة التي ستحتل المراكز القيادية خلفاً له بعد ان يتقاعد حين يصبح في الخامسة والسبعين من عمره اي بعد عشر سنوات وبهذا يكون قد قعد

على رئاسة المجلس خمساً وثلاثين سنة امضاها في التضحية من اجل مجتمعه وقريته ويريد ان يحضر وريثاً له ليواصل المسيرة وتعبيد الطرق واقامة المدارس واصلاح ذات البين والنضال الدؤوب من اجل الحرية والسلام العادل والمساواة بين ابناء البشر والدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس الشريف، وكان الله في عون العبد ما دام العبد في عون اخيه.

هكذا كان يلخص لنا حضرة الرئيس نظرياته حين يعلن: اليوم اجتماع هام يجب ان يحضره جميع الموظفين من البواب (اي انا) وحتى القائم باعمال الرئيس، فنجتمع في القاعة الكبرى وهو "يفقعنا" خطاباً من قاع الدست عن انجازاته وتضحياته ويأمرنا بالاّ نضيع الوقت في "الحكي الفارغ" و "القهقهة" و "اللقمطة" لاننا يجب ان نكون صورة مصغرة ومشرفة لمجتمعنا ومثالاً يحتذى به. والحقيقة اننا بعد ساعة ونصف من الخطابات الرنانة ينصرف كل منا إلى غرفته وينزوي بعد ان يغلق الباب ويقهقه إلى ان يفرغ من بطنه كل ما اتخمه به سيادة الرئيس. واما المسكين بيننا فهو سكرتير المجلس، الذي يحرم من الضحك لان غرفته مجاورة لغرفة الرئيس فهو يبلعها إلى ان يصل البيت فيسهلها حتى تدمع عيناه.

احمل السطل واغسل بلدنا

ويسجله في بند التشريفات

ريّسنا، أو عمدة بلدنا، كما اتفقنا على تسميته، في الخامسة والستين من عمره، انيق المظهر، لا اذكر انني شاهدته يوماً دون بدلة وربطة عنق، غزا الشيب شعره الذي يحلقه مرة كل اسبوعين ويمسده حتى يبدو كأنه ممثل سينما ويرفض ان يضع النظارات على عينيه ليرى القاصي والداني لونهما الازرق الفاتح، وهو يحاول ان يظهر مثل بول نيومان لكن بلا ابتسامة ولا مكياج وبوجه عابس.

لم يجرؤ احد منا ان يسأله لماذا لم يتزوج، ولكنني سمعت مدير قسم المعارف يقول: ان العمدة قد تزوج الوظيفة ولا يعرف امرأة غيرها. ومن يسمع الرئيس وهو يخاطب الناس، لا يملك الا ان يصدق هذا الكلام. فحين يخطب في الجماهير، يفتتح بقوله: يا اولادي ويا بناتي. وعندما يتوجه إلى احد يقول له: يا ابني ويا بنتي وإن كانت "عجوز ختيارة" يقول لها: يا اختي! فان كل بنات شعبنا إما انهن بناته أو اخواته. فهل يمكن ان يتزوج من ابنته أو اخته! لم يكن هذا هو تفسير رئيس قسم المعارف بل تفسيري انا، وقد نقله السكرتير، العرص ابن العرص، إلى الرئيس فاستدعاني ومثلت امامه ووبخني وهددني بأن يطردني إذا حملت سيرته على لساني ومنذ ذلك الحين صار يناديني: القطروز. وين راح القطروز. جيب القهوة يا قطروز، ابعثوا القطروز على الدكانة، امسح الطاولة يا قطروز، وانا رضيت بهذا اللقب خوفاً على لقمة اولادي وقناعة انني اشرف منه لأنني احب ان اضحك وهو لا يضحك وجهه للرغيف السخن. وكنت اغيظه عندما اقول له: يا حضرة الرئيس هل تطلب خدمة من القطروز. فيقطب جبينه ويقطر وجهه سماً ويقول:

انصرف! وكنت اعرف انني اغظته وحتى لو اراد ان يطلب مني شيئاً فكان يتنازل لكي يحافظ على هيبته امام قطروز مثلي.

في اكثر الاحيان كان يأمرني بواسطة السكرتير، لانه كما يقول، لا يريد ان يشاهد وجهي البارد، حتى عندما يريدني ان اغسل سيارة "الفولفو" التي اشتراها على حساب المجلس، كان يطلب من السكرتير، فيناديني هذا ويترقرق امامي ويقول لي: الرئيس اليوم رايح في مهمة من اجل البلد، والسيارة مقلعطة، والاجانب ما بيعرفوا بلدنا، إذا شافوا سيارة الرئيس موسخة بدهم يقولوا إذا كان سيارته مقلعطة كيف بلده. روح اغسل السيارة علشان سمعة بلدنا.

وكنت احمل السطل وشريطة واغسل بلدنا. . وآخذ اجرتي عشرة شواقل من السكرتير. . وفي اليوم التالي احضر له سند وصل من السوبرماركت على انها تشريفات.

لم يجرؤ احد على الدخول إلى غرفته
وانا كان واجبي ان ابيض وجهه

انا احمد القطروز. رضيت بهذه الوظيفة لأن كل ابواب الدنيا اغلقت في وجهي، ليس لأنني بلا حظ ولا شهادة وانما لأنني مخلوق صريح. لا اعرف الدبلوماسية ولا تمشيط اللحى. اقول للأعور، اعور في عينه. واحب ان اكون مرحاً. بعض الناس يعتقد انني اهبل، وقد سمعت احد المقربين من الرئيس يقول: خسارة عليه، شاب مثل الحبق. لكن براغيه مفكفكة، وقد قالها بعد ان ضبطته يسرق رزمة اوراق من مخزن المجلس، والله العليم، شو بيلطش كل ما راح وإجا.

في البداية كلما "وقعت عيني" على "لطشة" أو "شي غير مقبول" من احد الموظفين الكبار، كنت ألفت نظر الرئيس، كان مبسوطاً مني. وفي احد الايام نهرني وقال: أنت فسّاد. قلت: بس هاي اموال حرام. قال: اترك المسألة عليّ. ومن يومها اللطش قايم قاعد على المخفي والمكشوف. وانا قررت ابلعها ومن كثر البلع صار عندي مرض الضحك. يا ولد لا تبلع ولا تحصر في قلبك. اضحك عليها تنجلي خصوصاً وانني توقفت عن التدخين بسبب التهاب الرئتين الذي اصابني من حالة الطقس ويمكن من حالة بلدنا.

كان الرئيس يحب الانزواء في غرفته، خلف الطاولة الخشبية المنجورة من البلوط الاحمر، وعلى مقعد هزاز، إلى جانبه مسجل وثلاثة اجهزة تليفون، وجهاز "اينتركوم" للمكالمات الداخلية، وعلى الطاولة صحف الصباح، العربية والعبرية وصحيفة الجيروزاليم بوست التي لا يقرأها، ومنفضة من الكراميكا وعلبة سجائر "كينت" وولاعة ذهبية ويدخن سيجارة مع كل فنجان قهوة فقط. على الحائط الخشبي صورتا رئيس الدولة ورئيس الحكومة، في احد الايام سمعته يقول: دولة اسرائيل اكبر عنصرية.

سألناه: ليش يا حضرة الرئيس؟

قال: لو كنت يهودياً لكانت صورتي معلقة على الحيط. أنا اشطر من عشرة مثل هذا القطروز. وكان يقصد رئيس الحكومة اسحق شمير.

كان يقضي الساعات في غرفته، بين الحين والآخر يطلب من

السكرتير ان يحضر له القهوة أو الشاي أو ساندويش، فيناديني السكرتير وفي الحال اضع ما يطلبه على طاولته، لم يكن احد من بلدنا يجرؤ على الدخول إلى غرفته الاّ باذن خاص ومعاملة خاصة. وكان عليّ أنا ان ابيض سمعته فاستقبل الناس ببشاشة ومرح واقول لهم: اشعروا كأنكم في بيوتكم. الرئيس مشغول أو راح يقابل الوزير. وارشدهم إلى غرف المسؤولين ليحلوا مشاكلهم. منهم من كان يخرج راضياً ومنهم من كان يشتم الساعة اللي خلق فيها في هذه البلد، ابو هيك بلد على هيك رئيس. . وكنت اهدئ من غضبهم. وعندما يقولون: أنت اشرف واحد في هالمجلس! كنت اقول: استغفر الله. كل الناس خير وبركة فيتضاعف اعجابهم بي وبدماثه اخلاقي وحسن معاملتي. ولا اخفي عنكم ان اكثر من واحد همس في اذني: لماذا لا ترشح نفسك في الانتخابات القادمة! الرئيس مش اشطر منك. ولا تعلّم اكثر منك. بيكفي انك بتضحك وهو وجهه ناشف.

الحقيقة استكبرتها على نفسي.

ضحك هو على غير عادة

وارتبط لساني. وعدت قاطباً جبيني

اقنعت نفسي تماماً انني لا اصلح لأن اكون رئيساً للمجلس. فأكثر ما اخشاه هو ان افقد مرحي وروح النكتة وسخريتي إذا جلست على المقعد الهزاز خلف طاولة البلوط، وكنت اعتبر توجه الناس المساكين اليّ لأن ارشح نفسي مجرّد مجاملة ورد جميل على اهتمامي بهم ورعاية شؤونهم عندما يأتون ويرفض الرئيس استقبالهم أو مجرد الحديث معهم. ولكن يبدو ان الناس تحكيها بجدية وانا ارد عليها باستخفاف،

فانتشرت اشاعة انني اعد العدة، واحضر نفسي لخوض المعركة. وعندما كان يسألني احدهم عن حقيقة ما سمع كنت اقول: هل شكلي هو شكل رئيس بلد. واضحك ويثير دهشتهم انني استخف بنفسي هذا الاستخفاف. ولم اعرف ان هناك من يطبخ الطبخة من وراء ظهري. إلى ان كان يوم وصل فيه الريس في الساعة السابعة والنصف وكان مبتسماً على غير عادة، وقال لي: احضر فنجان القهوة! واحضرت له خمسة فناجين. كنت ساذجاً ولم افهم سر بشاشته وضحكته عندما قلت: استحق خمس درجات. اخطأت انني لم استغفر الله من هذا الصباح. فقد بدأه الرئيس بابتسامة لكنه انهى النهار باستدعائي إلى مكتبه، على غير عادة. مثلت بين يديه، كان خليفة من الخلفاء العباسيين، وانتظرت ان ينطق بعد دقائق من الصمت والنظر اليّ بغضب حين يقطب جبينه وباستخفاف حين تنفرج اساريره.

- كل هيبتي ووقاري ورصانتي وأصلي وفصلي مش عاجب الناس.. قطروز مثلك راح يعجبهم؟

لم اكن اتصّور ان حضرة الرئيس برصانته ورزانته ياخذ الاشاعات بهذا الجد، ولكنه كان متوتراً لدرجة اثارت الرعب في نفسي، فقد صار يصرخ ويعربد كأنني قتلت اخاً له أو ارتكبت جريمة. وحاولت ان انفي هذه الاشاعات لكنه لم يسمح لي بأن اتفوه ولو بكلمة واحدة. وقال لي: أنا رئيس هالبلد من خمس وثلاثين سنة ولم اسرق قرشاً واحداً. اما أنت خلقة بواب.. عايش عالسرقة من اموال الناس.

كدت اسقط على الأرض. اخذ الدم يغلي في شراييني فصرخت: أنا سرقت؟ قال: أنت حرامي.

- أنا حرامي؟!

وضع على طاولته الوصولات التي كنت احضرها كلما غسلت سيارة الفولفو. وصرخ في وجهي: هل كنت حقاً تشتري تشريفات عندما تحضر هذه الوصولات؟

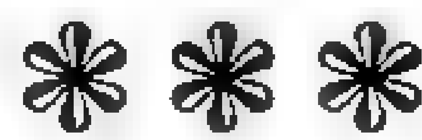
قلت: كلا. كان يطلبها السكرتير مقابل اجرتي عن غسل سيارتك.

قال: إذا طلب منك السكرتير ترمي حالك في البحر، بترمي حالك في البحر؟

قطب الرئيس جبينه كعاته. ضغط على زر "الانتركوم" فدخل السكرتير. بقيت واقفاً وكان الشرر يتطاير من عيني، نظر اليّ السكرتير ثم الرئيس، شعرت ان لساني انعقد. تناول السكرتير الاوراق، وضحك، ضحك الرئيس ثم انفجر الاثنان وكانت القهقهات تهدهد في ارجاء الغرفة. لم اسمع مثل هذا الضحك منذ سنين طويلة.

قال لي: انصرف. فانصرفت!

وكان المرّة الاولى والوحيدة التي اعود فيها إلى البيت رابطاً لساني بينما يضحك الجميع على حالي. أو هكذا تصورت.



أحمد ابن رابعة 1988/

إنتظر الوهم وفقد الحلم

تناول النقود فتضاعف حماسي

أعاد "الكمالة" فانفجرت وتحدثنا عن الجمعية

كانت لحظة طفر لم اشهد مثلها من قبل. كنت اتصور ان كل شيء ينهار امام ناظري، وان هزة ارضية تحرك الجبال والصخور. العمارات الشاهقة تتراقص. والسماء تمطر سائلاً يشبه البترول الاسود، وانا لا احمل مظلة، وقرف الدنيا يتساقط عليّ، وحدي، والناس من حولي يرقصون ويغنون وينظرون اليّ كأنني مخلوق عجيب، أو كأن رقعة قميصي قد انفرطت وظهر شيء من لحمي. رأيتهم يضحكون احياناً لكنهم يشفقون، كأنهم يقولون: شحاذ مسكين هبطت على رأسه كل مصائب الدنيا.

قلت: يا ولد. الدنيا يسر وعسر. كن شجاعاً وتحمّل.

تحّملت كل شيء. لكن ان تصل بي الحالة إلى درجة انني لم استطع في ذلك اليوم شراء خمسة ارغفة من الخبز وكيسين من الحليب، فهذا وضع لا يحتمل. لقد هربت في ذلك اليوم. قلت لزوجتي المسكينة: "دبّري حالك". وخرجت من البيت. احمل في جيبي شاقلاً ونصف أجرة الطريق إلى حيفا ومشيت في الشارع مثل السكران. لم أقل لأحد، كعادتي، صباح الخير. طأطأت رأسي. ومشيت إلى المحطة. وركبت.

كنت الراكب الأول في سيارة التاكسي. شعرت بالارتياح لأنني لن احرج من صديق يجلس إلى جانبي، وتدفعني الحمّية لادفع عنه، خصوصاً إذا كان سبقني إلى هذا الفضل ودفع عني في سفرة سابقة. كان السائق خلف المقود وينتظر ان يكتمل العدد. انتهزت الفرصة وبدأت أخرج "الفراطة" من جيبي لاناوله بسرعة قبل ان يأتي أحد. ولكن قبل ان اكمل هذه العملية فتح السائق الباب وخرج، وبقيت وحدي والنقود في يدي. تطاير شعوري بالارتياح وحل محله شعور بالحرج ودعاء من الأعماق الاّ يركب احد من اصدقائي. وصلت امرأتان. دخلتا. "صباح الخير! صباح النور. الحمد لله". بقي اربعة ركاب. دخل رجل، صديق ولكنني لست مديناً له. "كيف الحال؟" بقي ثلاثة ركاب. "لو ان السائق يجلس في مكانه لأناوله الأجرة قبل أن يأتي صديق كان دفع عني في سفرة سابقة"، لكنه كان يثرثر مع زملائه خارج السيارة وكلما وصل راكب القى نظرة ثم واصل الثرثرة.

يوم نحس منذ فتحت عيني وحتى تلك اللحظة. وصل صديق عزيز ومعه زوجته ووالدته. ثلاثة، امتلأت السيارة. واحتل حضرة جناب السائق مقعده خلف المقود. "صباح الخير! صباح النور" سلّمت على الصديق بحرارة. وعلى زوجته وامه. "خير ان شاء الله". تحركت السيارة.

فتحت حقيبتي وتظاهرت بالبحث عن النقود. وصرت اخشخش "بالفراطة". فمد هو يده وضغط على يدي لوقف عملية البحث البائسة وسحب بيده الأخرى ورقة الخمسين شاقل وقدمها للسائق وقال: "اربعة

إلى حيفا". لأ يا زلمة. أنت مفضل!". قلت لكن ليس بكثير من الحماس، ولما مدّ السائق يده وتناول النقود تضاعف حماسي: "والله ما بيصير! خلّيها علينا! ولا اعرف كيف "انعمى قلبي" ساعتها وقلت: "يمكن ما معه كمالة الخمسين. معي فراطة!" وصدّق السائق وقال: "بيكون أحسن!" وشعرت كأن سطلاً من الماء المثلج قد انسكب عليّ. ولما حاول ان يعيد ورقة الخمسين، رفض الصديق العزيز. وأصّر على ان يدفع وهو يقسم أغلظ الايمان بحياة اولاده والأنبياء وبالله. "أصرف من محطة البنزين". امر هو السائق وانا لم أشعر بالارتياح الكلي الاّ بعد ان شاهدت بأم عيني، سائق التاكسي يعيد له الكمالة. فانفرجت. وواصلت الحديث مع الصديق عن شؤون مجتمعنا. في ذلك اليوم، قررت لأول مرة في حياتي ان اشتري ورقة يانصيب!

اشبعتها "حكي" ونمت ونمنا
وكأن خلاصنا يأتي غداً أو بعد غد

ليس سراً انني طويل القامة، منتفخ الكرش، تخفي همومي الابتسامة الساخرة المرتسمة على محياي، لكن تفضحني الصلعة اللماعة وبياض الشيب الذي يغزو قفا رأسي وطرفي شواربي. واما المهنة فهي النضال المثابر والعنيد من اجل انقاذ الفقراء وقد ورثت الفقر عن والدي، رحمه الله، ومنه ايضاً ورثت عضويتي في الحركة.

حين احترفت النضال، بتضحيات لا تعرف الحدود وبمعاش لا يكفي الاّ لشراء قوت الاولاد، حينها تزوجت "رسمية"، وهي فقيرة من بيت

فقراء، لم تتعلم لكنها ذكية مثلما انني لم اتعلم ولكن الجميع يجمعون على انني "انتلجنت". قلت لها قبل ان نقّرر يوم الخطوبة: "انا عامل، فقير ابن فقير، ويقترحون عليّ العمل في حركة الدفاع عن الفقراء بمعاش زهيد، لا املك شيئاً سوى ايماني بعدالة قضية الفقراء. وصحة جيدة. ونفس طويل للعمل. فان كنت تطمحين بمال أو بملك فليكن نصيبك عند غيري".

"الله يسهّل عليكِ يا رسمية!"

كانت انسانة طيبة وبسيطة وبنت حلال.

لم تكن ابنة فقير، بل كانت ابنة الفقر بنفسه. تحب البساطة والتواضع، قنوعة، لم ترفع صوتها يوماً واحداً ولم تيأس حتى في الأيام الحالكة عندما لم نجد القوت لسد الرمق. عشنا سوية أكثر من ربع قرن. في غرفة ضيقة مع خمسة اولاد. وكنا سعداء، في سنوات عديدة كانت تخرج إلى العمل. تنظف البيوت. وتعود سعيدة. لم تكن نشيطة في الحركة ولكن عندما كنت اقول لها: ستنظم الحركة مظاهرة، كانت تترك كل شيء، وترفض الا ان تكون على رأس المتظاهرين، تحمل شعاراً، صار يعرف فيما بعد: "شعار رسمية" لأنها كانت تصر على حمله في كل مظاهرة واجتماع وهو اكبر شعار رفعناه.

عندما كان الناس يقولون لها: "كيف ستحررون الفقراء وانتم افقر الناس. كانت تسخر منهم. وترد الصاع صاعين. ثم تنهي النقاش بجملة جادة تقتبسها عني خصوصاً ما كنت اردده دائماً: "نحن كالشمعة

نحترق من أجل الآخرين". وفي احدى المرات عندما قال لها أخي الميسور الحال: "أي طز". جاءت اليّ تذرف دموعها وتشهق من هذه الاهانة. وقد قالتها مرة واحدة: "لماذا نضحك على انفسنا. ألسنا فقراء لتنصرنا حركتك؟. شوف شغل ثاني واربح مصاري. الشطارة تكون غني وتنصر الفقير. مش افقر واحد وتنصره بطق الحنك".

يومها ادركت ان الامور وصلت معها إلى حد لم يعد يطاق. فجنّدت كل ما املك من "انتلجنسيا" وبدأت اشرح لها.

"الله يسهّل عليك يا رسمية".

كانت طيبة وبسيطة وفي تلك الليلة اشبعتها حكي ونامت على يقين بأن الثورة آتية لا محالة. وان لم يكن خلاصنا غداً، فبعد غد.

ولم اكن اتصور يومها ان رقم ورقة اليانصيب بقيمة المئة الف دولار سيكون يوماً ما من نصيبي!

صار اسبوعنا ينتهي مساء الخميس ويبدأ صباح يوم الجمعة. وانتظرنا

لم يفهم الناس حتى اليوم كيف صمدنا في عش زوجي، يكاد يكون من القش ولكنه كان دافئاً، لقد حملتني وتحمّلت البؤس والشظف لانها احبتني واحببتها، دائماً كانت تقول: أنا معك حتى القبر! ودائماً كنت اقول لها: انني لا اوفّر لكِ المال واسباب الحياة المريحة ولكن اخلاصي وحبي لك لا يقدران بثمن! وكانت المسكينة تفرح لهذا الكلام حتى في اللحظات القاسية عندما تعود من البقالة وتقول ان الدكنجي قد "لطّش"

عليها بكلامه لأن الدين تراكم ولم يكتمل الشهر بعد. والاسعار ترتفع بين عشية وضحاها.

عندما كانت تسألني: إلى متى سنبقى في هذا الحال؟ كنت اقول لها: نحن بألف خير! هل تعرفين كيف يعيش غيرنا؟ وكانت تبتسم وتقول: اعرف، شوف جيراننا، شوف اخوي، شوف اخوك.. كلهم.. عندهم.. وتسرد قائمة طويلة.. وانا اسكت إلى ان تنتهي وبهدوئي الذي يصل إلى درجة البرودة كنت اسحب لها الجريدة وأقرأ بصوت مؤثر عن عشرات الألوف الذين يموتون جوعاً في افريقيا.. كنت اجمع الصحف التي تنشر عن الجائعين، وقد هزتها صورة مجموعة من الاطفال الاثيوبيين، الهياكل العظمية، وقالت: مساكين! هاي مصايب الدنيا. فأسارع إلى القول: هل نحن فقراء؟ هذا هو الفقر! وكانت المسكينة تسكت.

عندما سمعت عن الرئيس الامريكي قوله: ان ثلاثين مليون امريكي ينامون جائعين، قالت: يا رب تستر. وصارت تكره امريكا. ولا تسمح لأي من اولادنا ان يذهب إلى فراشه قبل ان يتناول شيئاً من الطعام. حتى ولو "كسرة خبز مع فنجان شاي". لئلا ينام جائعاً.

جئت اليها في نهاية يوم النحس اياه واخبرتها انني اشتريت ورقة يانصيب. ناولتها الورقة والمعاش التعيس الذي استلمته. صارت تضحك. "الغرقان بيتعلق في حبال الهوا" قالت لي وواصلت الضحك. واتهمتني بالجنون. اولاً لأنني اوافق على العمل لقاء هذا المعاش وثانياً لأنني بعد هذه السنوات من النضال ضد الفقر أومن بالحظ والنصيب.

اقنعتها اننا ان لم نربح شيئاً فلن نخسر سوى شاقل واحد. ولكننا سنعيش اسبوعاً مع شعور أننا نحمل مئة الف دولار. وهذا يكفي! وسكتت وانتظرنا اسبوعاً. ولم نربح. وفي الاسبوع الثاني قلت لها معي ورقة يانصيب وانتظرت. ولم نربح. وهكذا كل اسبوع اقول معي ورقة. ونجلس امام شاشة التلفزيون مساء الخميس. وننتظر النتائج. ولم نربح. لكننا لم نيأس. في مساء كل خميس كان يموت أمل. ويولد من جديد في صبيحة يوم الجمعة. صار الاسبوع في حياتنا ينتهي يوم الخميس ويبدأ يوم الجمعة. انتظرنا مفاجأة.. ان نتخلص من بؤسنا غداً أو بعد غد.. تماماً كما كنت اعدها حين اشبعها كلاماً.. ونذهب إلى الفراش.

صارت رسمية عارضة ازياء. وانا

امير خليجي، حوله الجواري والغواني

حدث ذلك في ليلة ماطرة. كان زخ المطر يضرب الشبابيك وقد تجمعنا كالعادة حول الشاشة الصغيرة. ننتظر سماع النتائج. وقعت علينا النتيجة وقع الصاعقة. ذهلنا. لم نصدق. ثم تعانقنا. قبلتهم جميعاً، رسمية والاولاد، وصرنا نرقص، كأن مطراً اسود بلون البترول يتساقط على العالم ونحن نستحم بشمس دافئة. لم ننم في تلك الليلة. خفت عليهم ان يصابوا بمس من الجنون، وعلى نفسي، حاولت ان اجند كل "الانتلجنسية" وان اتذكر ما كنت اقوله خلال خمس وعشرين سنة. تطايرت الكلمات والذكريات والنظريات وبقيت حاملاً الورقة انظر إلى ارقامها، اخاف عليها كما تخاف ام على رضيعها من زوبعة عاصفة أو

حريق يلتهم الاخضر واليابس. تحوّل البيت الحقير إلى فيلا، وتغير الأثاث والخزائن وخلعت رسمية الفساتين العتيقة وصارت تسير امامي كأنها عارضة ازياء. "سأتنازل عن معاشي للحركة. واعمل متطوعاً" قرار رقم (1). وافقت العائلة ورفضت القرار رقم (2) ان نتبرع بعشرة آلاف دولار. ان نشتري سيارة. ان نسافر إلى الخارج. رحلة عائلية نعوّض كل ما فقدناه خلال ربع قرن. في ليلة كاملة تحولنا إلى برلمان. صوّت على قرار واشطب قراراً آخر. مع طلوع الفجر كان صوت رسمية يهدهد في ارجاء الغرفة. وكان صوتي يهز اركانها. لأول مرة يعلو هذا الصراخ في البيت.

صارت تتصرف كأنها سيدة عظيمة الشأن وصرت أتصرف كأنني امير خليجي ومن حولي الجواري والغواني. ووجدت لحالتنا الفتوى في قاموس الفقراء: بعد عمر من الكبت والحرمان يحق للفقير ان ينعم إذا لم يسرق ولم يأكل المال الحرام. كل ما تقوله هي غير صحيح وكل ما اقوله أنا هو الصواب بنفسه. ففي جيبي ورقة المئة الف دولار.

قالت: إذا لم نتوقف عن هذه المعاملة. سأترك البيت.

قلت: هل تظنين ان الدولارات ستحوّل حياتنا إلى جحيم؟

انتشر الخبر. وفي اليوم التالي كانت الدار تغص بالناس. يقبلون الاولاد. ويعانقونني. مبروك! واقتراحات: كيف نصرف ونتصرف. كأن كل واحد منهم يحمل الورقة ويقرر كيف يجب ان نلبس وكيف نأكل وأي بيت نشتري وأي سيارة، واي برنامج توفير. انهم يحبوننا. قبل ان نسافر إلى تل ابيب لاستلام الشيك.

كانت رسمية تختفي بين الناس. وتعود اليّ. كنت مرهقاً وكانت مرهقة. انقطعت عن الحركة. لا أعرف كيف قلت لرسمية: أنت طالقة. طالقة. طالقة. سمعني الناس.

وقال الشيخ: لقد قلتها ثلاث مرات اذن هي طالقة.

وصار الناس يقسمون الارزاق: نصف المبلغ لها والنصف الثاني لي. ومعي ثلاثة اولاد ومعها الصغيران. وهكذا الدار وهكذا الاثاث.

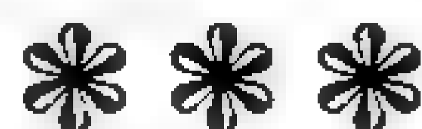
عندها شعرت انني تورطت. وان القضية لم تعد تحتمل السخرية والمزاح. فان تدخل الشيخ والناس والمجتمع يعني انني متورط حتى قمة الرأس. وعلي ان اكشف ورقة اللعبة. دعوتهم لاجتماع، كل الذين اصبحوا فجأة يحبون اولادنا ويغارون على مستقبلنا، قلت لهم:

- راحت عليكم. هذه الورقة اشتريتها قبل شهرين. والرقم الرابح هذا الأسبوع صحيح انه الرقم المسجل عليها، ولكنه رقم السحب الأخير.

قال لي الشيخ: يعني، لم تربح مئة ألف دولار؟!

قلت للشيخ: اذهب إلى رسمية وقل لها اننا ربحنا اكثر من ذلك!

لست ادري لماذا كانوا كمن ينزل عليهم مطر اسود بلون البترول وانا كمن يستحم بشمس دافئة. فبعد ثلاثة ايام امضيتها في الجحيم عدت إلى حالتي التي لم يعد فيها سراً أنني غير مطلق. منتفخ الكرش وتفضحني الصلعة اللماعة وبياض الشيب الذي يغزو طرفي شواربي. والمهنة: مناضل مثابر وعنيد ومحترف في حركة انصار الفقير.



أحمد إبن رابعة 1989/

انتظر محمدا فوصل فريدي

اصبحت جوالاً وانا لا اجيد "اتيكيت"

التعامل. واقسم انني ما اسأت إلى احد

كلفتني صحيفة بأن اكون محرراً متجولاً لشؤون الثقافة. وقد لا يعني هذا اي شيء بالنسبة لكم. مثلما انه لا يعني الكثير بالنسبة لي، حتى كتابة هذه السطور، فهي وظيفة لا تكلف الجريدة شيئاً ولا تضاف على الوظائف المقلصة، بطبيعة الحال، وانما هي مهمة القيت عليّ وقبلتها شاكراً. والحالة هكذا فانني سأحاول تنفيذها بما يقدرني الله على فعله وبما يمنحني من قدرة على الحركة والتجوال وان يكن بدون سيارة خاصة ومع بداية "ديسكوس" كما تبين في صور الاشعة، فأتنقل من مهرجان إلى مهرجان ومن مسرحية إلى فيلم ومن محاضرة إلى ندوة ومن صالون ادبي إلى ملتقى ومن كتاب إلى مجلة ومن شاعر إلى كاتب وموسيقي وإلى رسام وأغنية والى لحن. وسأمضي ايامي وليالي ما "بين" وما "بين" اكتب انطباعات ومشاهدات واخباراً وانا اقسم اغلظ الايمان انني ما رغبت يوماً في ان اكون ناقداً لا في الادب ولا في المسرح، ليس لانني لا اطيق ان يشتمني احد - ففي هذه البلاد تسمع الشتائم اينما ذهبت، وصارت الشتيمة العربية تستعمل في جلسات الحكومة

والكنيست وتتفنن بها الصحف العبرية والقضية ليست ماذا تريد ان يكون رد الفعل، بل ما هو الفعل. ولا اريد ان اكون ناقداً لأنني، بمنتهى البساطة، لا اعرف اصول النقد. ومن جهة اخرى لا أجيدُ "اتيكيت" التعامل اللطيف مع من نطالب بأن نتعامل معهم بلطف. ولذا اقول منذ البداية، ان ما سأفعله في تجوالي الثقافي لن يعدو كونه مجرّد انطباعات، ان أسأت فأطلب العفو مسبقاً، وانتم تعلمون كيف ان العفو في هذه البلاد مباح ومستباح - وكم من قاتل عفا عنه، حاكم أو وزير أو رئيس، وكم من مجرم يحق له ان يتجول في هذه البلاد اكثر مني أنا الذي يقسم اغلظ الايمان انني ما اسأت لاحد ولن اسيء ما قدرني الله على ضبط النفس والرزانة، وانا الذي كلفت ان اكون جوالاً، ويحق لي ما لا يحق لغيري، فأشكر صحيفتنا التي منحتني هذه الثقة وارجو ان اكون عند حسن الظن.

لحس اصابعه ثم "كرع" ما تبقى من علبة الشراب. فانتفضت. واستيقظ. وشتم

تساءلت قبل ايام، ما هي العلاقة بين الثقافة والطعام. ووجهت السؤال إلى العديد من الاصدقاء، وقال احدهم: الثقافة بالنسبة للانسان هي كالطعام. وقال آخر: الانسان لا يستطيع ان يعيش بدون طعام وكذلك لا يستطيع ان يعيش بدون ثقافة. وقال آخر: الطعام غذاء الجسد والثقافة غذاء الروح. وسمعت اجابات عديدة وكلهم اتفقوا على ان لا حياة بدون طعام وكذلك لا حياة بدون ثقافة. شيء جميل. وهل تستهلك الثقافة مثلما يستهلك الطعام؟!

أسافر كثيراً من حيفا إلى تل أبيب، ومن تل أبيب إلى حيفا، وعادة في سيارات التاكسي التي تتسع لسبعة ركاب. وفي المرة الاخيرة تأخرنا اكثر من سبع دقائق في المحطة لأن راكبين وضعا حقائبهما في السيارة وطلبا من السائق الانتظار بضع ثوان. . وانصرفنا، واذا بهما يقطعان الطريق ويتجهان إلى كشك الشوارمة. وحمل كل منهما رغيفاً وعلبة من الشراب، وجلسا في السيارة. وهدر محركها، وشتم السائق. وانطلقنا إلى تل ابيب والاثنان "ينتشان" من رغيفي الشوارمة اللذين تنبعث منهما رائحة "الزفرة". وقد علقت الطحينة على شوارب احدهما فمسحها بيده ثم لحس يده ثم مسحها ببنطاله ثم جرع من علبة الشراب والتهم ما تبقى من الرغيف "وجعلك" الورقة الملطخة بالدهن وانزل الزجاج والقى بالورقة ثم كرع ما تبقى من علبة الشراب ثم انزل الزجاج وألقى بها على جانب الطريق ومسح شاربه باصابعه ولحس الدهن الذي علق عليها، ومسح اصابعه ببنطاله واتكأ على الباب بعد ان فحص الامّان واغمض عينيه وصار يكبو وقبل ان نصل إلى محطة توليد الكهرباء القائمة على اراضي عرب المفجر ضرب رأسه بالزجاج فاستيقظ واذا برائحة مجاري الخضيرة، التي تصب في البحر، تلفحه وتعبئ خيشومه في طريقها إلى رئتيه، فتأفف وشتم وعندما تجاوزنا هذه المحنة اتكأ مرة أخرى على الباب وعاد يكبو. واما زميله، الذي جلس في الوسط بيننا، فلم يجد ما يتكئ عليه سوى كتفي. وعندما كان يضايقني كنت انتفض فيستيقظ شبه مذعور ثم يعيد الكرّة. واما أنا فقد حاولت ان اكون مثقفاً كما يليق بجوال مثلي. اردت ان اخرج من حقيبتي كتاباً كلفت بمطالعته والكتابة عنه. نظرت حولي واذا بالركاب نائمون ما عدا

امرأة عجوز كانت تقشر حبة من التفاح وتمضغ حزوزها باسنانها المخلعة، وعندما فتحت الحقيبة لأخرج الكتاب، عثرت فيها على كيس من ملبس النعناع، بقي في الحقيبة، فاخذت حبة وصرت أمضغ مثل بقية الركاب، لئلا اظهر شاذاً في هذا المنظر الذي ألفتُهُ في اثناء سفري بالتاكسي من حيفا إلى تل ابيب ومن تل ابيب إلى حيفا، بعد ان عُينت محرراً متجولاً لشؤون الثقافة.

أثرت شكوك الشرطية. فسألتني وقهقهت كالعاهرة. وحمدته لأنني خرجت منتصراً

في هذه السفرة لم اعرف كيف بلغت السذاجة باصدقائي، وبي طبعاً، إلى درجة اننا اعتقدنا بأن الثقافة والطعام صنوان لا يفترقان، في بلاد لا يحس اهلها بشبع من طعام ولا بجوع لثقافة، اللهم الا تلك التي تأتينا من وراء المحيطات وعلى حاملات الطائرات وفي صناديق "الفشك" تحمل الينا اخبار مصارعي أمريكا من عائلة فون ايريخ، حتى اننا صرنا نعرف ابناءها - كيري وكيفن وديفيد المرحوم الذي قطفته يد المنون في ريعان الشباب وعنفوان المصارعة - ونحب "سان شاين" ونعشق كلابها ونكره العربي اسكندر الأكبر المتعطش للدم ونتمنى لو ان الاسود "آيس مان" يفعلها ثانية فيمسح حذاءه بكوفية الاكبر القذرة، ونلعن الساعة التي يمسك فيها المذيع الامريكي الميكروفون وباسلوبه الدراماتيكي ويأمرنا بأن ننتظره في الاسبوع القادم وفي مثل هذا الوقت، كأنه فرض صلاة اسبوعية نؤدي فيه طقوس الحقد والعشق، نحقد على اللئيم اللا امريكي ونحب الطيب الامريكي المهذب القوي، تماماً كرئيس

جمهوريته. نصدقه لانه يكذب ونعجب به لانه دموي ونحبه لانه يحقد، ونشتهيه ليشبع غرائزنا مثلما اشتهيت بعد تلك السفرة رغيفاً من الشوارمة، عندما وصلت السيارة إلى المحطة المركزية في تل ابيب، ونزلنا واذا بي اضيع في جلبة اصوات الباعة الذين يدللون على "الكعك بسمسم" وعلى الفلافل. وتختلط رائحة اللحمة المشوية والزفر والبطاطا المقلية بالروائح النتنة المنبعثة من مراحيض الرجال التي تتوسط الاكشاك ودخان الباصات الاسود يعبئ الرئتين ويملأ قنوات التنفس المتشعبة وكلها تختلط بصوت ام كلثوم من حوانيت الكاسيتات ويأتي صوت حاييم موشي، ليضع حداً لهذا التسلط العربي على المحطة المركزية في قلب تل ابيب مستعيناً بـ"ليندة" العربية ليقضي معها سهرة "كيف" حتى وان "واخذ تلبها، وواخد ختبها وواخد أجبها بالسن دا" ولكنها تمنحه عشقها فتضع حداً لجميع العنصريين الذين اصبحوا يتصورون ان محطة تل ابيب المركزية اصبحت كمحطة نابلس المركزية، ان بقي في هذه المدينة الفلسطينية محطة وفيها باصات وبائعو فلافل واطفال يبيعون الجريدة. وبعد ان تناولت ما يسكت عصافير المعدة، قلت: لأتجول في هذه المحطة الصاخبة بحثاً عن ثقافة انقلها إلى قرائنا الاعزاء في الوطن الحبيب وخارج الوطن. ولما كنت أتسكع، أتوقف هنا وأحدق بهناك.. اثارت حركاتي، كما يبدو، شكوك شرطية من الدفاع المدني. فاستوقفتني. وسألتني: من أنت وماذا تفعل!

قلت لها اسمي الكامل وعنواني ورقم هويتي وانني اعمل في جريدة يومية. ولكن عندما سألتني وأجبتها بأنني محرر ثقافي متجول، أخذت تقهقه كعاهرة تسخر من لا رجولة زبون مرتبك. وتجمع حولي الناس

ولم تكتف بنت الكلب بهذه البهدلة بل قدمتني للجمهور كمن يقدم ممثلاً بارعاً: "انظروا، عربي ومثقف ومتجول". ولكنني، حمدت الله الذي لا يحمد على مكروه سواه لانها لم تأخذني إلى المخفر للتحقيق عن اصلي وفصلي. وهكذا خرجت منتصراً.

قال: هل تجد نادلاً يتطوع مثلك. وضحك
وعدت باقتراح أولي بعد الشطحة الثانية

ما كنت اكشف لكم سر هذه الرحلة من حيفا إلى تل ابيب لولا ان الحّ علي السؤال عن الثقافة والمطاعم. قبل ايام لفت انتباهي ان التلفزيون الاسرائيلي كرّس اكثر من نصف ساعة في برنامجه الادبي الوحيد الذي يعرض ايام الاحد عن "أدب المأكولات" وكان بطل هذه الحلقة الكاتب والصحفي المعروف يوسف لبيد الذي تولى في عهد حكم الليكود البائد إلى غير رجعة ادارة الاذاعة والتلفزيون. وهو صحفي في جريدة "معريف" لمع باسلوبه الساخر وبعنصريته البغيضة، ولكنه "طبايخي" لامع ايضاً يشهد على ذلك ليس فقط كرشه المندلق وانما كتابه الاخير عن المأكولات الهنغارية. ولمن لا يعرف فان البروفيسور مناحيم بيري، استاذ الادب العبري الكبير، يحرر زاوية في مجلة اسبوعية عن اشهى المأكولات وان عاموس كينان، الكاتب والصحفي المعروف، عمل محرراً متجولاً لشؤون المطاعم. ولا اعرف ان كان حتى اليوم يمارس هذه المهمة، فانا لا اقرأ "يديعوت احرونوت" التي يكتب على صفحاتها. وقد ذكر، باعتزاز، في معرض الكتاب العبري الأخير، ان

أكثر الكتب رواجاً هي كتب الطبيخ وابرزها كتاب جديد عن المأكولات الصينية.

قلت في نفسي بعد ان تحررت من اجواء المحطة المركزية وركبت باص رقم 5 متوجهاً إلى شارع ديزنكوف، قلت: الثقافة والطعام صنوان لا يفترقان. فلأذهب إلى مطاعم ديزنكوف الفخمة علني التقي المثقفين واتناول شيئاً اهدئ به اضطرابات معدتي.

دخلت إلى مطعم ينغل فيه الكُتّاب والفنانون من تل أبيب. وجلست واخرجت الكتاب اياه الذي افتديته بحبة من ملبس النعناع. وبدأت أقلّب صفحاته إلى ان انتصب إلى جانبي شاب في مقتبل العمر، شرقي السحنة، عربي العينين، اوروبي اللباس، وقال بالعبرية: بماذا اخدم سيدي؟ قلت: بماذا تنصحني؟ قال: لا اعرف ذوق سيدي. قلت: كيف اشرح لك. قال انتظر: سيخدمك معلمي. وجاء معلمه ذارعاً فارعاً بشوشاً مرحباً بي. وقال: أنا شمعون. صاحب المطعم. والنادل محمد، من الخليل. ولكنني اناديه فريدي. لأسباب أمنية خوفاً عليه وعلى المصلحة من العنصريين، جماعة كهانا.

قلت: يبدو انك معلم دمقراطي. ولا تكره العرب.

قال: طبعاً، ان فريدي افضل من عشرين يهودي. انه على كيفك، لقد احضرته إلى هنا عندما كان في الثانية عشرة. قبل ست سنوات. وها هو صار يتكلم اللغة العبرية احسن مني. انه ذكي وشغيل على كيفك.

لم يفسح لي المجال لأطلب منه ما اشتهي من طعام فواصل حديثه عن فريدي، وقال انه علمه قراءة الصحف. وانه يقرأ كل اسبوع كتاباً على الأقل. وانه اصبح مثقفاً اكثر منه. ويذهب إلى السينما واحياناً إلى المسرح.

ماذا يحب سيدي ان يأكل؟ لدينا شيشلك، كباب، ستيك فيليه، سمك سلطان ابراهيم.

- ليكن ستيك فيليه.

- هل سيدي يكتب زاوية عن المطاعم..

- قلت: لا. عن الثقافة!

- قال: شيء ممتاز. الثقافة اهم من الطعام. لانها تشبع الروح. أنا لم اتعلم في الجامعة ولكن الحياة تثقف. ماذا يعني انك تكتب عن الثقافة؟

- قلت: مثلاً عن الكتب التي تصدر والمهرجانات والندوات..

- قال: أمن أجل هذا يدفعون لك راتباً؟

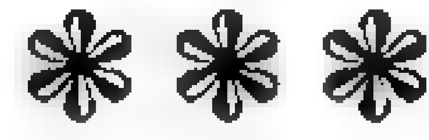
- قلت: انني متطوع. بدون مقابل.

- قال: هل تجد نادلاً يتطوع مثلك. وصار يقهقه.

- قلت: أنا لا اكتب عن المطاعم وهذا هو الفرق بين الثقافة والطعام. نحن نريد ان نغير الانسان. هذه رسالة في الحياة.

وضحك المعلم شمعون ونادى بصوته الجهوري: فريدي! تعال لهون! وعندما وصل فريدي/ محمد، وانتصب كالصنم إلى جانبنا قال

له : "دير بالك على الاستاذ. واعتذر وعاد إلى كرسيه المخملي الهزاز واشعل سيجارة "مارلبورو" وانا انتظرت كثيراً إلى ان وضع محمد/ فريدي على طاولتي صحناً وعليه شقفة "ستيك" وقليل من السلطة والبطاطا المقلية وبعد ان دفعت الثمن، الذي لا احسد عليه، حملت اقتراحاً عرضه عليّ المعلم شمعون ان تستحدث الجريدة وظيفة محرر متجول لشؤون المطاعم.. واكون أنا الجوال.



أحمد إبن رابعة 1990 /

ينتظر في البيت

لم أقل هذا سرا، بل قلته علانية، وسأقبل القرار وانفذه مثلما قبلت كل القرارات

ذلك اليوم كان يوما أسود .

دعاني رئيس الحركة من أجل الدفاع عن الفقراء إلى مكتبه .

قال لي إن عملي في الحركة لم يعد مجديا وأنني لم أفلح في تحرير فقير واحد من فقره .

لم أفهم في البداية ماذا يريد مني ، فأنا لم آخذ على عاتقي مسؤولية تحرير أي فقير في البلد ، ولو أخذت على عاتقي مثل هذه المهمة لحررت نفسي أولا من الفقر الذي أنزله عليّ عملي في الحركة ، ثم قال إن الحركة تعاني من صعوبات مالية وهي تستغني عن خدماتي اللامجدية .

في تلك اللحظة لم أفكر إلا بكلمة واحدة تعلمتها من نضالي المثابر والعنيد ضد كل شيء وهي : "معليش" .

معليش أن الرئيس أشعل سيجارة وتناول جرعة من فنجان القهوة ونظر اليّ مترقبا ردي على مفاجأته اللئيمة ، وأنا تملكني وجوم لم أعرفه من قبل ، إلى أن باغته بكلمة : معليش !

ابتسم وحرك رأسه مستهترا برديّ وكانه تصور أنني سأبكي أمامه وأستجدي وأعده بأن أحرر فقراء العالم، كما كان يعدنا هو، ونحن نعد الناس، وأنا أعد رسمية و"زغب الحواصل لا ماء ولا شجر".

"أنت تطرفش في الحكي ولسانك طويل"

قال لي بعد لحظة صمت طويلة، وحاولت أن أتذكر ما قلته ولكنه لم يترك لي مجالا للعودة إلى نفسي، فقال: هل أنت القائل إن القيادة مصابة بالعفن؟ وأنها ابتعدت عن هموم الفقراء وانشغلت بالسفر إلى خارج البلاد؟ وأنه إذا أردت أن تكلم الرئيس فالأسهل أن تتصل به إلى المكسيك أو الكونغو برازافيل من أن تتصل بمكتبه في حيفا؟ ألست أنت القائل مثل هذا الكلام المهين؟

استجمعت ما بقي عندي من معنوية وجرأة وأشعلت سيجارة وتناولت جرعة من فنجان القهوة وقلت: نعم أنا القائل!

أذهله هذا الاعتراف فاعتدل في جلسته وقطب جبينه وقال: هذه خيانة.

لم يكن مجديا أن أدخل معه في جدل حول الخيانة ولا حول الفقر ولا معنى التحرير، فكل شيء قد انتهى، واذا كان كل ما فعلته غير مجد فهل يجدي نقاش عقيم في لحظة حسم لمسألة واضحة: أن تكون أو أن لا تكون في حركة تحرير الفقراء؟

لم أقل هذا سرا، بل قلته علانية، وسأقبل القرار وانفذه مثلما قبلت كل القرارات المجدية وغير المجدية وسأبقى أناضل من أجل تحرير الفقراء، ليس من الفقر فقط بل من الذين يتاجرون بفقرهم.

ختم حديثه معي قائلا بنبرة جادة: إنتظر في البيت وسنتصل بك حين نحتاج إليك!

غادرت مكتبه.

لم يمد يده ليصافحني ولم أمد يدي.

غادرت حيفا ذاهبا إلى منفى اختاره لي الرئيس: ألبيت!

أقنعت نفسي أن العودة إلى البيت هي أجمل عودة يعرفها الانسان حتى وإن كان منفيا من مدينة الحياة والصخب والمعارك وحتى الثرثرة.

هكذا كانت تفعل كلما عدت إلى البيت

وحملت لها بشرى سارة عن نصر جديد

أحمد إبن رابعة، واحد من الناس الذين يمشون في شارع يافا في طريقه إلى ساحة الحناطير، في طريقه إلى محطة الباص، في طريقه إلى البيت، في طريقه إلى حضن رسمية.

في الشارع كثير من الفقراء وكثير من الأغنياء. كل منهم يستسلم لقدره ولا يتمرد عليه.

لم يعد العالم مقسوما إلى قسمين: إلى شريرين وخيرين، إلى فقراء وأغنياء، إلى ظالمين ومظلومين.

ألعالم صار أفرادا، مجرد أفراد. كل فرد قانع بما هو فيه، إلا أحمد إبن رابعة يحلم بتحرير العالم.

ماذا سأقول لرسمية عندما أصل إلى البيت وأزف لها الخبر؟

سأقول لها: لقد انتصرنا وانتهت الثورة. لقد حققنا أحلامنا. السلام يسود العالم، ولا فقر بعد اليوم ولا فقراء.

ستقول لي: ألله يعطيك العافية.

ستقبلني وتعانقني لأنني أبشرها بالنصر.

هكذا كانت تفعل كلما عدت إلى البيت وحملت لها بشرى سارة عن نصر جديد.

تعودت على بشائر الانتصارات العظيمة.

ما أجمل أن تشعر بالنصر حتى وإن ترجمت الهزيمة إلى نصر مبين.

ليس المهم ما تفعله بل المهم ما تشعر به.

سأقول لها: أنا مرتاح الضمير، فقد بذلت كل ما بوسعي.

سأقف أمامها وسألقي عليها خطاب النصر.

سأقول لها إن الحركة من أجل تحرير الفقراء لم تعد بحاجة لواحد مثلي، لأنه لم يعد هناك فقراء. العالم يتفكك، ما كان ليس ما سيكون، كل شيء تغير، لا شيء يبقى على ما هو إلا هو، ألست امرأة مؤمنة يا رسمية؟

ستصفق رسمية. دائما كانت هي الجمهور الذي ألقيت عليه خطاباتي الرنانة قبل أن ألقيها على الناس.

دائما كانت تصفق دهشة وانفعالا من قدرتي الكلامية حتى على الاقناع بأن الأبيض أسود والأسود أبيض، لو أردت ذلك. ولكنها ما

كانت تنتقدني إلا لأنني كنت أرى كل شيء إما أسود وإما أبيض، ولا لون بين الاثنين.

في الباص من حيفا إلى البيت سأستعد تماما لخطاب النصر. لدي الوقت الكافي لكي أستعد.

الساعة ما زالت الثانية ولا بد أنه يجلس على قارعة الطريق ويبيع الخبز

عندما غادرت مكتب الرئيس لم أفكر إلا بالبيت والعودة إليه.

هكذا أمرني الرئيس: إنتظر في البيت!

إنتظر؟ وما العيب في الإنتظار في البيت؟

سأنتظر مع رسمية والأولاد.

سيتوفر الوقت الكافي لأكون معهم في ساعات الصباح وساعات المساء وعندما يعودون من المدرسة وسنأكل مع بعض ونزور الأقارب مع بعض ونلعب مع بعض، أليس البيت وطنا؟

أنا عائد إلى وطني، بأمر من الرئيس. كان يجب أن أشكره على قراره بأن أعادني إلى بيتي، إلى وطني، فكم من فقير يحلم بأن يعود إلى بيته/ وطنه؟

بعد أن ابتعدت عشرات الأمتار عن مكتبه خطر ببالي أن أعود إليه لأشكره على قراره الوطني جدا، فربما أنه يعاني من تأنيب ضمير لأنه اتخذ قرارا بتنحيتي، وقطع رزقي. لماذا لا أحرره من تأنيب الضمير بأن

أشكره على خطوته هذه وأقنعه بأنه يسبب لي سعادة لا توصف ولا تقدر؟

عدلت عندما سرت في وادي النسناس وصرت ألتقي أصدقائي وكان علي أن أتظاهر أمامهم بأن هذا اليوم هو يوم عادي وكل شيء على ما يرام، يجب أن ألتقيهم بحماس وألقي عليهم التحية وأسأل كلا منهم: كيف الحال؟ ويجيب: على كيف كيفك!

توقفت عند صديقي الخضرجي الذي كان يستقبلني في كل يوم بأن يناولني خيارة ويضحك ويقول: إضحك، إضحك، الحياة مثل الخيارة... يوم عسل ويوم بصل. أردت أن أودعه ولكنه باغتني بما عكر مزاجه في ذلك اليوم وهو أن البلدية أصدرت أمرا بأن يزيح "البسطة" من الشارع، فعكرت خبريته صفو مزاجي، وتابعت إلى شارع يافا.

قلت: لن يبقى لي من حيفا إلا عباس الفران. الساعة ما زالت الثانية ولا بد أنه يجلس على قارعة الطريق ويبيع الخبز. سأشتري منه رغيفا فيكون غدائي مع قطعة من الجبنة الصفراء وأثرثر معه، فتكون آخر ثرثرة في حيفا قبل أن أعود إلى بيتي/ وطني.

وهكذا كانت ملابسي العتيقة وسجائري الرخيصة وما فعلت شيئا إلا بقرار

نادرا ما أجد مقعدا أماميا في الباص.

دائما يصل إلى المحطة مكتظا بالركاب فأتوجه مرغما إلى المقاعد الخلفية أو أقف إلى أن ينزل ركاب ضاحية المدينة. ولكن ذلك اليوم لم

يكن عاديا، فقد كان في الباص أربعة مسافرين فقط توزعوا على مقاعده الخلفية والأمامية.

لأول مرة أرتبك في الباص إذ أحترت في اختيار المقعد.

أمر غير طبيعي أن تختار مقعدا في الباص، دائما تجبرعلى احتلال مقعد لا تحبه، إلى جانب شخص لا تعرفه أو لا تحبه، ولكن في هذه المرة كل شيء خاضع لقراري، أنا أحمد إبن رابعة، كيف أتصرف بهذه الحرية وهذه الفرصة لاختيار المقعد الذي يريحني؟

لاحظ السائق ارتباكي فسألني: هل توجد مشكلة؟

قلت له: مشكلة عويصة جدا.

هدأ قليلا من السرعة وأدار رأسه إلى الوراء، فالتقت نظراتي الحائرة بنظراته المستهجنة وقال: هل في الباص ما يقلقك؟

أدركت قلقه ودهشته فابتسمت وقلت: تقلقني هذه المساحة من الحرية.

سأل بدهشة: نعم؟ ألحرية؟

قلت: نعم، علي لأول مرة أن أختار المقعد في الباص بحرية تامة، فلا يزاحمني أحد ولا يجبرني أحد على اختيار مقعد أجلس عليه، وهذا مربك. أنا لم أتعود على هذه الحالة.

قال: خفت أن يكون في الباص غرض مشبوه أو أن أحدا ثقيأ فيه، أما إذا كانت الحرية مشكلتك فتغلب عليها لوحدك.

جلست على مقعد أمامي لأودع أحياء حيفا بالقاء النظرة الأخيرة عليها، فمن يعرف متى أعود إليها بعد أن انتهى عملي اللامجدي في النضال من أجل الفقراء ولم يبق فقراء في المدينة. شعرت بحزن غلب على رغبتي في الاحساس بسعادة أنني لأول مرة أتمتع بهذه المساحة من الحرية في اتخاذ القرار بنفسي، فلا أذكر أنني اخترت إلا بعد أن عدت إلى مؤسسات الحركة. ها هي حقيبتي الجلدية التي عاصرت تركيا والانجليز تستلقي على فخذي ولم أتنازل عنها لأن الرئيس قال لي: أصبحت هذه الحقيبة جزء منك ومنا، إنها رمز من رموز الحركة في وجدان الناس، وهكذا كانت ملابسي العتيقة وسجائري الرخيصة وما فعلت شيئا إلا بقرار، وما واجهت مشكلة إلا وبحثت لها عن مرجعية، والآن علي أن اختار بنفسي المقعد الذي اجلس عليه في الباص الذي يأخذني إلى منفاي.

انتقلت إلى مقعد خلفي.

كان مثيرا للرعب هذا الفراغ في باص لم أعرفه إلا مزدحما بالركاب.

صعدت إمرأة عجوز. جلست على المقعد الأمامي دون أي تردد. كانت تبدو سعيدة وهي تتبادل الحديث مع السائق.

نزل أحد الركاب الأربعة ولم يبدل الثلاثة الباقون مقاعدهم ولم تظهر عليهم علامات القلق أو الإرتباك.

قمت وانتقلت إلى مقعد وسط الباص بعد أن غادرنا حدود حيفا، فلم يبق لي ما أودعه.

إذن سأكرس ما تبقى من الوقت للتفكير العميق بخطاب ألقيه على رسمية التي تنتظرني في البيت.

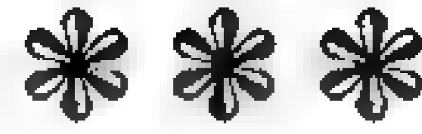
سألقي خطابا عن الحياة بلا مرجعية.

سأقول لها: بعد اليوم لن نسأل أحدا ولن نقدم تقريرا لأحد ولن يحاسبنا أحد ولن آتي إلى حيفا.

أنا عائد إليك، إلى حضنك الدافيء.

أنا عائد إلى البيت.

إلى وطني.



أحمد ابن رابعة 2008/

عائد إلى حيفا

بقي كما كان يحب السمك واللحمة المشوية ويدخن بمعدل علبة واحدة

قال الراوي الذي يتابع سيرة أحمد إبن رابعة : عاتبني أحمد ابن رابعة بشدة لأنني أهملته عشرين عاما وأكثر ونسيته أو تناسيته على طريقة أن العبد قام بواجبه فما على العبد إلا الإنصراف ، وذكرني بتلك الأيام حين كنت آتي إليه كلما دق الكوز في الجرة وكلما عملت معي الحكومة ، كعادتها ، عملة بنت كلب تطيّر ضبان عقلي ، فأذهب معه إلى خمارة البلد ، لا لأشرب بل لأشتم الحكومة والدولة ورئيس المجلس وجارنا الحرامي وعقلي الذي تعطل عن التفكير أو صار يخلط شعبان برمضان .

سألني أحمد ابن رابعة : لماذا غبت عشرين عاما؟ هل تيسرت معك الأمور؟ هل صارت حياتك بلا هموم؟ هل الحكومة راضية عنك ، أم انك لم تعد مشاغبا كما عرفتك في شبابك؟ هل تغير كل شيء لتعيش حياتك بلا خمارة أم انك صرت تأخذ الأمور بجدية فائقة وأنت قابع في برجك مثل الذين يريدون تحرير العالم وهم جالسون على الكنبات المخملية في صالونات بيوتهم أو فنادق الخمس نجوم ويذهبون إلى مظاهرات الغلابة بسيارات المرسيدس؟

قل لي: هل تملك سيارة مرسيدس؟

أنا ما زلت أمشي على قدمي وأتنقل بالباص والقطار ولولا خوفي من مخالفات السير وعيون الحساد لتنقلت على حمار. أستطيع أن أحصن أقدامه بصاجات الماغنيزيوم.. وأسقيه الماء بالانجيكشن، وأركب على أذنيه ستيريو، فيرتفع سعره كما ارتفع سعر الحمير في غزة وانخفض سعر البني آدم. أعجبني حديث شيخك أبي صلاح عن أيام زمان حين قال: شوف، زمان كان الفقير الوطني اللي مثل حكايتنا يركب على الحمار ليتنقل من محل لمحل والغني يركب المرسيدس، اليوم صار الوطني يركب المرسيدس والفقير اللي مثل حكايتنا صار هو الحمار.

ضحك أحمد ابن رابعة وعلل الضحك بأنه لا لشيء إلا لأننا نضحك على أنفسنا إذ نعتقد بأننا سعداء ولكن السعادة بعيدة عنا بعد الأرض عن السماء، وسارع إلى القول: ستقول عني إنني ما زلت متخلفا كما تركتني قبل عشرين عاما، أليس كذلك؟ أنا متخلف ولكنني سعيد ومتفائل.

قال لي أحمد ابن رابعة إنه لم يتغير في عشرين عاما. بقي كما كان يحب السمك واللحمة المشوية والفلفل الأخضر والبصل ويدخن بمعدل علبة واحدة كل يوم ولا يشرب سوى النبيذ الأحمر ويقرأ الصحيفة اليومية كل صباح ويصغي إلى نشرة أخبار واحدة بعد أن يستيقظ من النوم والى نشرة واحدة قبل أن يذهب إلى النوم ويعمل ليعيش، لا يعيش ليعمل ولا يزال يشتم الحكومة بمعدل خمس مرات في النهار فرضا كفاية.

قال لي عن حيفا إنها مدينة عاهرة وعنصرية ولا تتقن إلا الكذب والنفاق

التقيت أحمد ابن رابعة في شارع الملوك بحيفا (صار يسمى بعد احتلال ال 48 شارع الاستقلال) في يوم كانوني بارد وجاف. عرفته من النظرة الأولى، فهو لم يتغير، ظل شعره أسود وظل رفيعا وممشوقا ويرتدي القميص الأزرق الغامق وبنطلون الجينس الكاشح وهو لم يعرفني أو ربما تظاهر بأنه نسيني واعتقدت أن في هذا التنكر تعبيرا عن استياء ربما لأنني أهملته عشرين عاما وربما أصابه شيء من استعلاء أو خجل وقد يكون أصاب ذاكرته خلل ما أو أن ما تغير في شكلي في عشرين عاما أفقده كل قدرة على الربط بين الشاب الوسيم النشيط الخفيف الحركة وبين ما أبدو عليه اليوم وكأنني بلغت الثمانين بصلعتي الجرداء والشيب الذي غزا شعري وكرشي الناتيء وظهري المحدودب وحركتي الثقيلة ومشيتي البطيئة.

قال لي عن حيفا إنها مدينة عاهرة وعنصرية ولا تتقن إلا الكذب والنفاق وقد تركها هو عشرين عاما لأنه عاف نفاقها وعنجهيتها ولما عاد إليها وجدها أكثر عهرا واعتذر مني عن هذا الهجوم الأرعن على مدينة نتغزل بها وكأنها صبية في عنفوانها الشبابي والجنسي ولكنها في الحقيقة عجوز شمطاء تنبعث منها رائحة السنين البالية، والصحيح أن احمد ابن رابعة كان دائما يكفر بما يشاع عن هذه المدينة من كلام جميل ويقودنا في الحديث حالا وسريعا إلى وادي الصليب الذي ظل يتآكل بعوامل السنين والإهمال وجرافات البلدية إلى أن أصبح مكانا حقيرا، ثم يأخذنا إلى

وادي النسناس الذي يسميه وادي المصائب وفرجة الأجانب لأن فيها من يتفنن في تحويل البؤس العربي إلى تحفة فنية والبلدية تنظم حفلات الرقص في "عيد الأعياد" على أشلاء مدينة كانت أحيت حفلة لأم كلثوم وأخرى لفريد الأطرش ولم تعرف في ماضيها طرفشة الحكي عن طوائف وملل وديانة هنا وأخرى هناك إلا في عهد هذا الاحتلال وهذه البلديات العنصريات ومؤسسات تمج على التعايش كما يمج رواد مقاهي الواد على أراجيلهم.

سنبحث عن مدينتنا التي فقدناها قبل ستين عاما وعثرنا على أشلائها ثم فقدتنا

في البداية لم أفهم هذا الحقد على هذه المدينة وعلى العاملين فيها ليلا ونهارا من أجل تعايش وهمي مع من كانت له الأرض والبيوت والسيادة، وفقدها بين ليلة وضحاها ليتحول إلى عبد مأمور ينتظر فتاتا يوميا يوزعه عليه حاكم يستكثر عليه أسماء الشوارع ويافطات الساحات وعقدات البيوت الحجرية التي شيّدناها قبل أن يأتي الغزاة، وهذا الكلام لأحمد ابن رابعة الذي أذهلني غضبه على ما آلت إليه حالنا نحن في هذه البلاد التي لا تتوقف نكبتها منذ ستين عاما.

قال لي: تعال وسنفتح خمارتنا من جديد، فما جدوى السكوت والهروب والانزواء؟

ترددت في البداية واعتبرت ما يقوله أحمد ابن رابعة ضربا من الهذيان والحنين إلى ماض ذهب ولن يعود، ولكنني عندما أدركت

حماسه الشديد وغضبه وثورته قلت لنفسي وله: يا ولد، ماذا ستأخذ من هذه الدنيا الفانية؟ وماذا ستترك لها؟ لعل في استعادة الماضي ما يفرج كرب هذا الزمن الملعون. وذهبنا. اتفقنا منذ البداية على أن نتعرف من جديد على مدينتنا. ماذا يعني أن نتعرف؟ يعني أن نبدأ من مكان ونعود إليه في نهاية المطاف ويعني أن نتوقف هنا وهناك وأن نبحث عن عمارات كانت قبل عشرين عاما واختفت، وأن نبحث عن أناس كنا نلتقيهم كل يوم ورحلوا. سنبحث عن مدينتنا التي فقدناها قبل ستين عاما وعثرنا على أشلائها ثم فقدناها قبل عشرين عاما أو هي فقدتنا لأننا كرهنا نفاقها.

قل لي: هل عباس الفران لا يزال حيا؟

سألني أحمد ابن رابعة باهتمام كبير، وقلت له: لا أعرف، فأنا مثلك غبت عشرين عاما. أنا أيضا اشتقت إليه، انه رجل طيب وآمل أن يكون على قيد الحياة وما رأيك في أن نبدأ جولتنا من الفرن؟

قال: إذا كان الفرن على قيد الحياة. أنا مدين لعباس الفران بعشرين رغيفا. لا أعرف كم أصبحت قيمتهم اليوم. أحمل معي ما يكفي من النقود لأسدد الدين.

كم هو جميل وطيب صديقنا أحمد ابن رابعة. مخلص وصادق إلى حدود السذاجة ولا يعرف البوليتيكا ولا اللف والدوران، ولهذا السبب كرهه المنافقون وأولاد الحرام والشين بيت وأذناب الحكومة.

سنبدأ من هناك حتى وإن رحل وغاب

عن حيفا التي علمته الشتائم وحب الناس

فاجأت أصدقائي عندما أخبرتهم أن احمد ابن رابعة عائد إلى حيفا.

قال لي أحدهم والدموع تغرق عينيه: هل ما زال على قيد الحياة؟ اعتقدت أنه مات من زمان عندما قرر مغادرة المدينة. كنت أعتقد أنه مثل سمك البحر يموت إذا خرج من الماء وأحمد يموت إذا خرج من حيفا. هل حقا ما زال يتنفس ويأكل ويتكلم ويمشي؟

قلت: إنه لم يتغير. سترونه هنا في شوارع المدينة.

وقال صديق آخر: ومن سيضمن لأحمد لقمة العيش؟ انه يرفض أن يأكل من خبز السلطان ولا يتسول ولا ياكل إلا من عرق جبينه. كان فقيرا في زمن الخير فكيف يكون في زمن القحط؟

قلت: هل أحمد ابن رابعة هو الفقير الوحيد في هذه الدنيا الفانية ليشغلك أمره؟ لقد أمضى حياته مدافعا عن الفقراء ولهذا السبب ظل فقيرا مثلهم، ولما كنا نحن ندافع عنهم لم يكن يهمنا إلا همهم وحياتهم وآلامهم، فلماذا تخلينا عنهم؟ ولماذا تخليتم أنتم؟ هل صار الفقر عيبا في هذا الزمن؟ ألم يبق فقراء إلا احمد ابن رابعة؟

سنشرب نخب الفقراء والمظلومين الغلابة.

سنشرب لنحكي ونشتم ونضحك ونعزف الموسيقى ونغنّي.

هل عباس الفران ما زال على قيد الحياة؟

سنبدأ من هناك حتى وان رحل وغاب عن حيفا التي علمته الشتائم وحب الناس .

أحن إلى حيفا .

إلى بحرها .

إلى صخبها .

إلى نزقها .

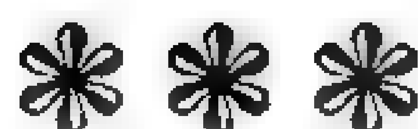
إلى نفاقها .

إلى سذاجتها والى حبها لذاتها ولنا .

أنا عائد إلى حيفا مع أحمد ابن رابعة .

انتظرونا !

انتظرونا !



أحمد أبن رابعة

في حديقة البلدية

قبّلتُ جبينه وقدته إلى حديقة البلدية التي

كانت قبل عشرين عاما منطقة عربية محررة

حدث أحمد إبن رابعة الراوي الذي يتابع سيرته :

قلت له : أنا احمد ابن رابعة ، هل تذكرني؟

حدق بي عبر نظارتيه السميكتين ، وفغر فمه وتنفس عميقا ، ثم أزاح نظره وطأطا رأسه وبعد لحظات رفعه مرة أخرى وقال بصوت خافت : لا ، لا .

صدمني فالح النمر بمنظره المثير للشفقة وبارتجاف يديه وبجسده النحيل ، ولم أكن أتصور بأنني سأراه في هذا المنظر بعد عشرين عاما ، وهو الذي كان القلب النابض في وادي النسناس حتى عندما بلغ الخامسة والستين وتقاعد عن العمل في شركة "تنوفا" لمنتوجات الحليب والأجبان على كافة أشكالها ، وتفرغ في الصباح للعب الشيش بيش وبعد الظهر انشغل بما كان يسميه "النضال من أجل القضية" .

فكرت في ما بعد بحاله وحالنا : هل بقيت له قضية يدافع عنها ويناضل من أجلها؟

لو كان فالح النمر على حاله كما عرفته لسألته هذا السؤال ولكنه لا شك عاجز عن تحمل أي سؤال قد يثير غضبه. نظرت إليه مليا وأنا أشد على يده بيمناي وأتحسس منكبه بيسراي، فابتسم ثم صرخ: أحمد؟ أين كنت يا أحمد؟

ضممته إلى صدري وقبلت جبينه وقدته إلى مقعد خشبي عند مدخل حديقة البلدية. هذه الحديقة كانت قبل عشرين عاما منطقة عربية محررة، فلا تجد فيها إلا ختيارية حيفا العرب يجلسون من ساعات الصباح حتى المساء في أيام حيفا الصيفية الرطبة ويستحضرون ما اختزن في الذاكرة وكلهم يتحدثون بأصوات عالية بسبب ضعف السمع فكانت اللغة العربية لغة المكان، ولأن اللغة العربية في الحديقة كانت صاحبة السيادة فلم يأت إليها الختيارية اليهود فجلسوا في حديقة أخرى وهناك كانت لغة الايديش صاحبة السيادة، أما اللغة العبرية فكانت لغة الشارع الذي يفصل بين الحديقتين.

كنت أنا وفالح النمر، في ذلك النهار، وحيدين في الحديقة ممن يتكلمون اللغة العربية وأما اللغة السائدة فكانت الروسية. الختيارية من اليهود الروس، رجالا ونساء، ملأوا مقاعد الحديقة. في زاوية قريبة من المدخل جلس عجوز يبدو في الثمانينات من عمره وعزف على الكمان على مسامع المارة الذين ألقوا بعض الأغورات في صحن كبير وضعه بين قدميه. رائحة الفودكا كانت تنبعث من كل جهة، وكانوا يثرثرون كثيرا ويضحكون كثيرا وبينهم من كان يبكي.

لم أسأله من هو عارف ولماذا يحكي هذه القصة

وسررت لأنه بدأ يحدث عن أيام زمان

سألت فالح النمر إذا كان لا يزال يلعب الشيش بيش.

ابتسم وقال: لا.

ومد يده اليمنى التي كانت ترتجف، ربما ليقول لي إنه لا يستطيع أن يلعب بهذه اليد التي لا تتوقف عن الارتجاف وبعدها نظر إلى الحديقة واختفت البسمة عن محياه ويبدو أنه أراد أن يقول: لم يبق أحد من أصدقائه القدامى على قيد الحياة.

فرحت كثيرا للقائه بعد عشرين عاما، ليس فقط لأنني أحببته وأعجبت بشجاعته ومثابرته على "خدمة القضية"، بل لأنه يحمل كل التفاصيل عن حيفا، وأحببت هذا اللقاء بعد طول غياب لأنني بحثت عمن يحدثني عن حيفا في السنوات العشرين لغيابي عنها.

هل تعرف شيئا عن عباس الفران؟

سألته وكنت واثقا بأنه سيعطيني الجواب إن كان الرجل على قيد الحياة أو فارقها.

نظر إليّ وسأل: مين؟

- عباس الفران! قلت ورفعت صوتي وقلت الاسم مرة أخرى.

لم يقل شيئا.

نظر إليّ مليا ولم ينبس بكلمة، ثم أدار وجهه ملقيا نظرة فاحصة على الحديقة، ولما أعاد نظره إليّ سألني بصوته الواهن: أنت مين؟

قلت : أنا أحمد. أحمد ابن رابعة.

هز رأسه وقال : آه . . آه. ثم سكت وظل يحدق بي وبعدها ابتسم وقال :

- كنا نلعب في حي المحطة ، بين البحر وسكة القطار ، "عارف كان ولد شقي ، يحب يلعب عالسكة ، اجا الترين مسرع وطلع عليه".

لم أسأله من هو عارف ولماذا يحكي هذه القصة ، وسررت لأنه بدأ يحدث عن أيام زمان ، ثم سكت ونظر إلى العمارة الكبيرة التي تبدو كالصاروخ المعد للإطلاق أو كسفينة تقف على رأسها ، وحرك رأسه وتمتم بكلمات لم أفهم منها شيئا.

- متى بنوا هذه العمارة البشعة على أنقاض سوق الشوام وجامع الجريني؟

سألته وانتظرت منه جوابا ، لكنه لم يقل شيئا. كان يبدو أنه سمع سؤالي ولكنه بدا مترددا وصار يتأتئ وازداد ارتجاف يديه ثم عض على شفته السفلى في محاولة لوقف ارتجاف حنكه الأسفل ولم يجب على سؤالي.

وساد صمت قطعه عازف الكمان الروسي

الذي واصل العزف بعد تناول رغيف من الخبز

نمر الفالح لا يتذكر.

هذا الرجل المناضل العنيد ، الذي كان يملك ذاكرة خرافية ، ويعرف كل تفاصيل المدينة ويسرد أحداثها كأنه يقرأها عن كتب التاريخ. انه لا

يذكرها في سنواتها العشرين الأخيرة، وعاد بعد لحظات ليحدثني عن زميله عارف الطفل الذي دهسه القطار في حي المحطة.

تحول فرحي بلقائه إلى حزن عميق عليه وعلى حالنا، فمعالم المدينة تختفي وتحل محلها هذه العمارات الزجاجية المثيرة للرعب والتي تشيد على أماكن كانت مرتع لقاءاتنا الغرامية حتى قبل عشرين عاما على أطلال حمام الباشا وما بقي من وادي الصليب.

هل أشتم البلدية والحكومة في حضرة هذا العجوز الذي أمضى حياته مناضلا "من أجل القضية"؟

سكتُ معه وصرتُ أنظر إلى الميناء الذي ترتفع منه عشرات الأبراج وأعمدة الرافعات وترسو فيه بواخر وسفن لا تعد ولا تحصى، وقلت لنفسي: لا جدوى من استجوابه والأفضل أن أريحه من هذا العناء. يبدو أنه فقد ذاكرته القريبة وتعود إليه ذاكرته الطفولية التي كبتها حوالي ثمانين عاما.

توقفت تماما عن توجيه الأسئلة وانتظرت إلى أن يبدأ هو بموضوع يشغله فأواصل من حيث يبدأ، لكنه لم يتكلم وساد صمت قطعه عازف الكمان الروسي الذي واصل العزف بعد تناول رغيف من الخبز بلا شيء، والتهمه بشهية ثم شرب من قنينة زجاجية ربما كانت مملوءة بالماء أو الفودكا. بعد دقائق طويلة من الصمت نظر نمر الفالح إلى ساعته ثم همّ بالوقوف على قدميه وكأنه على موعد، ولما أدرت وجهي إلى مدخل الحديقة رأيت شابة تقترب منا وهي تنظر إلينا بقلق. ابتسم لها عندما اقتربت. شعرت بشيء من الحرج خشية أن أكون ضايقته بوجودي معه

وبكسر وحدته، ولما وصلت الفتاة قالت لي باستهجان: شالوم! مي أتا؟ أي: من أنت؟

قلت لها بالعربية: أحمد ابن رابعة، صديق الختيار من خمسين عاما.

هز هو رأسه تصديقا لكلامي وضحك وهو يقول: صحيح. ص.. ح.. يح.

ومد يده لها لتقوده.

- من أنتِ؟

- أنا كرميلا، حفيدته. أنا أحضره إلى هنا كل يوم في الثامنة صباحا وأعيده إلى البيت في الثانية عشرة.

- غبت عن المدينة عشرين عاما وعدت اليوم وسررت لأنني التقيت جدك، كان صديقا حميما ومناضلا كبيرا.

- شو يعني مناضل؟ جدي يعاني من مرض الألصهايمر ولا يذكر شيئا ولا يعرف كيف يعود إلى البيت وفي أحيان يسألني من أنا.

- كم عمرك؟

- ولدت عندما غبت عن المدينة ولا أعرف جدي إلا فاقدا الذاكرة، لم أسمع منه شيئا عن حياته.

- ماذا تعملين؟

في شركة الهواتف النقالة، طول اليوم أرد على مكالمات باللغة العبرية.. لقد نسيت اللغة العربية.

ينسون ماضيهم وينساهم حاضرهم ؟

هل هذه هي طريقهم الأخيرة نحو حياة أخرى

كان نمر الفالح يصغي إلى حوارنا دون أن ينبس بكلمة. كان كطفل صغير يمسك بيد أمه وينتظر أن تقول له "إمشِ، إمشِ"، ومشى معها. لم أعرف كيف أسلك، هل أرافقهما أم أبقى في الحَديقة؟ شدتني رغبة قوية لمعرفة مكان سكناه وكيف يقضي أوقاته بعد الظهر ومن هم أصدقاؤه، لكن حفيدته لم توجه لي الدعوة، لم تقل تفضل ولو من باب المسايرة والمجاملة لرجل مثلي أكبر من والدها وصديق لجدها. أمسكتْ بيده وتحركتْ دون أي استئذان، فكيف أتطفل عليهما؟ قررت البقاء في الحديقة علني ألتقي شيخا آخر، فقد قررت في ذلك اليوم أن أقوم بجولة في المدينة لأرى ماذا تبدل من معالمها، وها أنا ألتقي أصدقاء تغيروا كثيرا.

هل كل أبناء جيله فقدوا الذاكرة؟

هل ما زال أحد منهم يلعب الشيش بيش ويحدث عن أيام زمان؟

هل سأجدهم في الحدائق العامة، أم في بيوت المسنين، أم أنهم غادروا إلى المقابر؟

قررت البقاء في الحديقة.

ماذا تعرف هذه الحفيدة عن جدها؟

لماذا يصر على القدوم يوميا إلى هذه الحديقة رغم أنه فقد ذاكرته وأصدقاءه؟

ماذا يعمل بعد الظهر وكيف يقضي وقته؟

كيف ينهي المناضلون حياتهم؟

هل ينسون ماضيهم وينساهم حاضرهم ؟

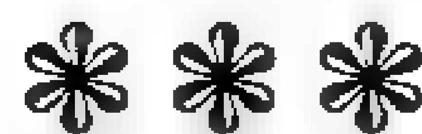
هل هذه هي محطتهم الأخيرة نحو حياة أخرى بلا كلام ولا حراك؟

هل عباس الفران ما زال على قيد الحياة؟

سوف أبحث عنه في المدينة إن بقي فيها وفي كل مكان إذا قالوا لي إنه غادرها مثلي قبل عشرين

عاما أو أقل.

اختفى الشيخ وحفيدته. خفت من أسئلتي الكثيرة التي تلاحقت الواحدة منها تلو الأخرى. "هذه محطتنا قبل الأخيرة"، قلت لنفسي، "هنا يكتشف الانسان حقيقته قبل أن يغادر. ألإنسان مخلوق صغير وتافه وحقير عندما يعود إلى حقيقته". جلست على المقعد الخشبي أصغي إلى أنغام العجوز الروسي الذي كان يعزف على الكمان. لم تأت صبية لتأخذه من هناك. فجأة توقف عن العزف وجمع أشياءه المنثورة على الأرض ووضع الكمان في صندوقه الخاص وذهب وبعد لحظات اختفى هو أيضا، وبقيت في الحديقة أنظر إلى الميناء أراقب باخرة كبيرة تختفي هي أيضا في عرض البحر، كانت تبدو ضخمة وشيئا فشيئا صارت تصغر إلى أن بدت نقطة سوداء في بحر أزرق.



أحمد إبن رابعة

مع صديقه الخضرجي

نظر إليّ بازدراء وقال لي ابن الكلب:

"وانت شو دخلك؟ عامل حالك بوليس سير؟"

في البداية لم أفهم سر ازدحام السيارات والجلطات المرورية في شوارع حيفا، فأينما تذهب وعند كل منعطف تصطدم بطوابير السيارات التي تنتظر دقائق طويلة إلى أن تتحرك، ورغم أنني لا أقطع شوارع المدينة بسيارة ولا باص- كما تعودت خمسين عاما- إلا أن هذه الاختناقات تثير أعصاب من ليس له أعصاب. تمشي مترين وتتوقف. كلهم يزمرون دون توقف. من بعيد رأيت سيارة "بي ام" قادمة بسرعة في نزلة شارع الجبل، وكانت تزكزك (يعني تتعرج شمال يمين، زيك زاك) وهي تتجاوز السيارات أمامها. قفز قلبي خوفا من أن يكون سائقها قد خربط في المشروب وكان يبدو شابا في مقتبل العمر، شعره "معنقر مثل شوك النيص" ومن مسجله تنطلق موسيقى صاخبة بأعلى "فوليوم". اقتربت السيارة مني وفجأة توقفت بجانبي في وسط الشارع ونادى الشاب على البائع في الحانوت المحاذي ليناوله علبة مارلبورو. اقتربت منه وقلت له باحتجاج: ما هذه السواقة والوقفة في وسط الطريق؟ أنظر كيف تعطل السير! نظر اليّ بازدراء وقال لي ابن الكلب: "وانت شو

دخلك؟ عامل حالك بوليس سير؟" أردت أن أوجه له لكمة على وجهه ولكنني قلت: "يا ولد كف الشر! هذا جيل ما بتقدر تحكي معه".

سقى الله على أيامك يا أحمد ابن رابعة!

عندما كان يمشي في وادي النسناس قبل عشرين عاما كان يستغرق معه مدة ساعة ليقطع مائتي متر، يسلم على من يلتقيه ويحيي صاحب حانوت ويلوح سائقو السيارات له بأيديهم تحية واحتراما، واليوم يمشي في الشارع ولا يعرفه أحد، ويتطاول عليه شاب "ابن امبارح" والكل ينظر اليه كأنه سائح من بلاد الغرب أو من كوكب آخر. ماذا يحدث في هذه المدينة الملعونة؟

وكم من مرة وصل موظفو بلدية "التعايش"

وطردوه وصادروا كل املاكه: الطاولة والكرسي

أصابتني حالة من الكدر والإكتئاب وقررت في تلك اللحظة أن أهرب من المدينة، لكنني عدلت عندما رأيت من بعيد تيسير الفياض قادما نحوي، يحمل حقيبة سوداء ويرتدي بدلة رمادية وربطة عنق حمراء. لم أعرفه عن بعيد ولكن عندما اقترب مني نظر إليّ ونظرت إليه مليا وصحت: تيسير! تيسير!

وصاح هو: أحمد! أحمد!

تعانقنا طويلا والتقى على خدينا الحليقين الناعمين عطره الفواح مع عطر "البروت" الذي استعمله منذ حلقت ذقني لأول مرة وصار معروفا باسمي: افترشيف احمد ابن رابعة

سألني تيسير: أين اختفيت يا أزعر؟

قلت: في بلاد الله الواسعة.

قال: أنت لم تتغير ولم تتبدل، كل شيء في العالم انقلب إلا أنت، هل توقف الزمن في حياتك؟ ضايقني هذا الهجوم الأرعن ولكنني تجاهلته كي لا أجد نفسي في موقع دفاع أمام رجل كان معروفا في الواد بصوته الجهوري حين يصيح:

التفاحة مثل الخد

أحمر يا طبوق الورد

فليحيا حزب التفاح

قلت له: ما هذه الشياكة، ماذا فعلت بحالك، هل أصبحت محاميا؟

قال: صرت بروفيسور.

صدمني جوابه الذي قاله بثقة عالية في النفس وباعتزاز كبير' فكيف وصل إلى هذه المكانة وقد عرفته قبل عشرين عاما شبه أمي يكاد "لا يفك الحرف". لم أتمكن من إخفاء دهشتي لسماع هذا الخبر، فقلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بروفيسور سنكه طق؟

أعرف تيسير الخضرجي منذ كان طفلا يأتي إلى السوق مع والده الفلاح الذي كان يجلس عند ملتقى شارع مار يوحنا وشارع حداد ليبيع البصل الأخضر والفجل وضمم النعناع والبقدونس. لم يذهب إلى مدرسة في حياته، ولما بلغ الخامسة عشرة توفي والده وظل هو يبيع الخضار، لكن على طاولة وكرسي، وكم من مرة وصل موظفو بلدية "التعايش" وطردوه من هناك وصادروا كل املاكه؛ الطاولة والكرسي،

ولما يئس منهم أو تعب من الملاحقة استأجر غرفة صغيرة مرخّصة وصار يبيع خضاره ويدفع الضرائب للبلدية، يومها اتفقنا مجموعة من الأصدقاء أن نشتري منه حاجتنا من الخضار تضامنا معه، وكنا زبائنه الدائمين، ولم ينس هذا الموقف فذكّرني به عندما صرنا نستعيد الذكريات بعد أن لبيت دعوته لزيارة. . . "المعهد".

"أي معهد؟" سألته بقليل من الدهشة وكثير من الإعجاب.

"بعد قليل سترى" قال وتوقف عن الكلام تاركا لي حيرتي واستغرابي كأنه فيلسوف كبير يطرح مسألة في المنطق ويترك سامعيه يتخبطون في البحث عن الجواب. كانت أنظار أصحاب الحوانيت والمارة في أزقة الواد تنظر إلينا بشيء من الخشوع ولا ينطق أحد بكلمة وكان تيسير قاطبا وجهه بعكس ما عرفته فيه من بشاشة وانبساط ولم يتكلم مع أحد، بل اكتفى بتحريك رأسه تحية لمن يحييه برفع يده. في البداية شعرت بحرج وخجل خوفا من الظهور بالتكبر والاستعلاء على الناس، وليس هذا من شيمي، ولكنني استدركت وأقنعت نفسي بأنه شرف كبير أن تسير إلى جانب بروفيسور ينتمي إلى معهد، ولم أطق هذا السكوت فسألته: لماذا لا تصبّح على الناس؟

نظر الي وقال بنبرة قاطعة: إثقل! هنا يجب أن تحافظ على هيبتك! عليّ أن أتصرف مثل بروفيسور!

- ولكن البروفيسور لا يتكبر على الناس. قلت له بنبرة أبوية.

ضحك وانفرجت أساريره وقال: يبدو أنك لا تعرف البلد!

ولم يخلصني من حالة الإرتباك سوى

السيجارة التي أشعلها بولاعة ذهبية

واصلنا سيرنا ولما اقتربنا من بناية كبيرة أبطأ السير وقال لي وهو يشير بيده إلى البناية: هذا هو المعهد، إنه معهدي الخاص، أقمته بعرق جبيني!

لم أفهم في تلك اللحظة ان كنت في حلم أو في اليقظة، كيف لبائع خضار أن يملك معهدا كهذا في عشرين عاما؟ ولكنني بعد لحظة توقفت عن المشي ووجمت لبرهة صغيرة ثم لم أستطع أن أتمالك نفسي فانطلقت بضحكة لم تصدر عني منذ عشرين عاما وذلك عندما وقع نظري على اليافطة الكبيرة المعلقة فوق مدخل البناية: "المعهد العالي للخضراوات"، ووضعت يدي على بطني وصرت أقهقه دون توقف فاقدا السيطرة وغير آبه بتعليماته بأن "أثقل" حفاظا على هيبتي وهيبته هو التي انهارت عندما نظر اليّ وصار يقهقه معي.

شو هذا المعهد يا عرص؟ قلت له وأنا أواصل القهقهة.

لم يستطع الرد على سؤالي، فقد ظل يقهقه وشدني في ذراعي إلى المدخل فضاعت قهقهاتنا وسط الهرج والمرج في قاعة كبيرة مليئة بالبسطات التي تراكمت عليها كل أنواع الخضار والفاكهة المرتبة كأنها في رسومات لوحة من عهد النهضة وانبعثت منها رائحة البرتقال وعطر النعناع وبلا سابق إنذار تبدلت أسارير تيسير وانفرج وجهه وصار يحيي الزبائن ويسلم على هذا وذاك وهم يردون: صباح الخير بروفيسور، اهلا بالبروفيسور، كيف حال البروفيسور، ثم زلفنا إلى غرفة المكتب وقد علق على بابها يافطة كتب عليها بثلاث لغات: مكتب بروفيسور تيسير الفياض.

لم أفـهـم مـا يحـدث لي ومـا تراه عـيناي، ولـم يخلصني من حـالة الإرتباك التي أصابتني سوى السيجارة التي قدمها لي وأشعلها بولاعة ذهبية وقال: هل تذكر موظف البلدية الذي كان يأتي كل يوم ليسجل لي مخالفة وفي اليوم التالي يحضر عمال البلدية ليصادروا ما كنت أبيع وأملك؟

قلت له: طبعا طبعا، أذكره، يسرائيل أشكنازي الوقح.

قـال: كـان يتلقى الرشـاوى من التـجـار، وأنا رفـضت أن أدفع له وشكوته للبلدية، فراقبوه وضبطوه يرتشي، وفصلوه من العمل.

وما علاقته بالمعهد؟

ابن الحرام دفع ألفين دولار لجامعة بريطانية فتحت لها فرعا في حيفا وأخذ شهادة دكتوراه، وجاء إلى هنا وفتح محلا لبيع الخضار نكاية بي وأسماه "أشكنازي دكتور الخضار"

- وماذا استفاد من الاسم؟

"يا حبيبي الناس كلها هجمت عليه، صارت تشتري الخضرة من عند دكتور. إللي بيشتري بندورة من دكتور زي اللي بيشتريها من تيسير اللي ما بيعرف يقرا ويكتب؟ النسوان صارت تشوف حالها: وين رايحة؟ لعند الدكتور! ووين جاي؟ من عند الدكتور، سلة طالعة وسلة نازلة. والله نزل عندي البيع للصفر. قلت يا ولد ما إلك غير تعمل بروفيسور، هذا اليهودي مش أشطر مني، وسّعت المحل وسميته المعهد وعلقت شهادة بروفيسور... بعد شهرين سكّر البسطة وراح بلا رجعة"

- من أي جامعة اشتريت اللقب؟

- من جامعة الحياة.

ضحك تيسير ملء فمه، بعد أن سرد لي حكايته بكل جدية، وقال:

"شايف النتيجة؟ شايف كيف عملت من البسطة جامعة؟ الحياة صارت، كبر البيدر ولا شماتة العدا، لازم تمشي مع العصر، مع الحداثة وما بعد الحداثة، اليوم إذا ما كنت حامل شهادة عالية ما بتقدر تاكل خبز. اطلع فوق على الكرمل وشوف! واحد روسي فاتح محل سماه: أكاديميا لغسيل السيارات، وكل النهار حامل برميج الميّ وبيغسل سيارات المحامية والدكاترة وبيشغل خمس ست عمال... ابن عمي في المنطقة الصناعية يسمي نفسه "فيلسوف البناشر"، بتعرف شو يعني تصلح بنشر سيارتك عند مفكر فيلسوف؟ حياتنا صارت راقية يا ابن عمي وانت بعدك مع بنطلون الجينس وقميصك الأزرق؟ قل لي وين غبت عشرين سنة، نزلت في شي كهف وطالع تتشمّس؟

نهض عن مقعده الجلدي وخلع الجاكيت

ودخل إلى غرفة أخرى وعاد

لم أدرك حقا أن الزمن توقف عندي قبل عشرين عاما لأنه وبخني بكلامه هذا، بل أدركت أن الزمن توقف عندما صرت أحقق معه حول شهادته المزعومة فتبين لي أنني أجهل مما عرفت نفسي.

سألته: ولكن البروفيسور يا ابن عمي يدعم أقواله بالمصادر ويتمتع بثقافة عالية، فما هي ثقافتك؟ واعتقدت أنني اكيل له الصاع صاعين

بهذا السؤال الذي يحتوي على توبيخ مبطن، ولا أخفي عنكم أنني صرت أفكر بكل كلمة أتفوه بها أمامه، خوفا من أن يزيد معيار البهدلة والتوبيخ. ضحك وقال: أنا أعرف مصدر كل حبة تفاح وكل خيارة وجزرة، من أين وصلت وفي أي أرض زرعت ومن أي صنف. عندي هنا كل خيارة لها أصل وكل عرق بقدونس أعرفه أبا عن جد، ومن يعرف أكثر مني في هذه المدينة عن تاريخ الخضار والفاكهة وفوائدها؟

قال كلماته بجدية بالغة وثقة في النفس، فقلت لنفسي: سأثقل له العيار في الأسئلة بين الجد والمزاح، وبادرت إلى السؤال الأكاديمي الصعب: هل تستطيع أن تلقي محاضرة حول سيرورة النمو والنشوء في عالم الفجل؟ أو عن إرهاصات الهوية عند التوت الأرضي وعلاقتها الجندرية بالكزبرة؟

أدرك كما يبدو أنني أحاول امتحانه فقطب جبينه ورد على السؤال بمقدمة نظرية وسؤال كما يليق بأكاديمي عبقري: أنت ما زلت تستعمل مصطلحات بالية وتنشغل بمواضيع انتهت قبل عشرين عاما، اليوم نحن في معهدنا نبحث في مركبات هوية البروكولي والتعددية التوالفية في فصائل الكيوي، فكيف تسألني عن الفجل والتوت؟

حاول صديقي جاهدا أن يقنعني بأنه منذ تعلم "البوليتكلي كوركت" صار يتعامل بتمييز تفاضلي أو مصحح مع جميع أصناف الخضار، لأن الناس ابتعدت عن الخبيزة والشومر وتبعت الجرجير المزيف، وهو يريد أن يعيد لهذه النباتات مكانتها.

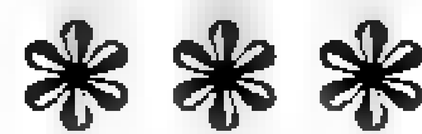
إنخرست تماما. حدقت به وحدق بي. لم أدرك الحالة التي وصلنا

اليها. هل هي هزلية إلى حدود العبث أم جادة إلى حدود الموت. لم ينقذني سوى عاملة وقفت على مدخل الغرفة وقالت له: بروفيسور تيسير، وصلت سيارة الحسبة.

نهض عن مقعده الجلدي وخلع الجاكيت وربطة العنق ودخل إلى غرفة أخرى، وبعد لحظات عاد وهو يرتدي ثيابا زرقاء (أوفرهول) وقال لي: تعال معي! خرجنا من باب داخلي إلى ساحة كبيرة توقفت فيها سيارة شحن محملة بصناديق الخضار وتناول من سائقها رزمة أوراق، وكلما أنزلت رافعة السيارة صندوقا دقق في الأوراق وأدخل الصندوق إلى مخزن في الساحة الخلفية، نظر الي وقال: أنت تسألني عن المصادروالمراجع؟ هنا تجد السيرة الذاتية لكل حبة بندورة وخيارة. إلى معهدنا لا يصل إلا من له أصل.

لم أفهم في تلك اللحظة من الذي يخاطبني: تيسير الخضرجي أم تيسير البروفيسور. يبدو حقا أنني لم أتغير في عشرين عاما، وهو أيضا لم يتغير، فقد بقي فيه تيسير الخضرجي الذي كان يتحدى البلدية واليوم صار يتحدى العصر، وما العيب في أن يكون الخضرجي أيضا بروفيسور؟

هربت من معهده الذي تبدو عمارته أرقى وأنظف من أي جامعة في البلد وغبت في أزقة وادي النسناس وأنا أجلد ذاتي: لماذا لم أنتسب إلى جامعة الحياة؟



أحمد إبن رابعة
ينتظر عباس الفران

غابت الفتاة الروسية ولم تخف
دهشتها من هذا الزبون الغريب

هنا جلس عباس الفران.

في شارع يافا. عند ملتقى شارع البنوك.

جلس على كرسي خشبي وأمامه طبق خشبي وعليه أرغفة الخبز.

كان يرفض أن نسميه بائع الخبز، بل عباس الفران وهو لم يكن يملك فرنا ولم يعمل في فرن، بل كان يشتري أرغفته من فرن في وادي النسناس ويحملها على الطبق إلى شارع يافا عند ملتقى شارع البنوك.

ذهبت في يوم قائظ دون أي أمل بأن أجده هناك، فعندما تركته كان في السبعين من عمره واليوم سيكون في التسعينات. لا أعتقد أنه ما زال على قيد الحياة، فان لم يمت موتا طبيعيا لا بد من أنه "فقع" ومات من الهم.

ما الذي أصاب شارع يافا الذي كان يغص بالحركة والناس والسيارات؟ يبدو أنه أصبح شارعا يحتضر بعد أن ازدهر شارع بن

غوريون الذي يقطعه بالمقاهي والمطاعم العربية التي تقدم وجبات أوروبية والاسبرسو والسلطة اليونانية بالجبنة البلغارية والكيتشوف مع الهمبورغر الأمريكي.

هنا جلس عباس الفران وهنا في مكانه طاولة وكرسيان وإلى جانبها طاولات لمقهى يقدم المأكولات الايطالية بيدي نادلة من أصل روسي، جميلة وفاتنة وخجولة، لاحظت بأنني متوتر فعرضت علي الدخول إلى المقهى المنعش بمكيف هوائي.

قلت لها: أفضل الجلوس هنا لأنني سأدخن وطلبت أن تحضر عصيرا باردا.

لم يجلس أحد غيري في المقهى، فالساعة مبكرة والناس في مكاتبهم وأعمالهم والطقس حار جدا ورطب.

أحضرت الفتاة الروسية العصير وقالت لي: هل تريد أن تأكل شيئا؟

اعتذرت بأدب وقلت لها: ربما لاحقا.

وقبل أن تختفي البسمة عن وجهها سألتها: هل عندكم خبز عربي؟

قالت: يعني "بيتا"؟

قلت: نعم بيتا. بيتا.

قالت: عندنا، هل تريد شيئا آخر مع البيتا؟

قلت: جبنة صفراء، فقط جبنة صفراء.

غابت الفتاة الروسية ولم تخف دهشتها من هذا الزبون الغريب، ويبدو أنني أثرت فضولها فرأيتها تتحدث إلى شاب وقف خلف مصطبة

وتبادلا الحديث ثم دلفت إلى المطبخ وعادت مع رغيف الخبز والجبنة، ثم تبعها الشاب وقال لي: أهلا وسهلا. هل كل شيء على ما يرام؟

قلت: على كيف كيفك! وانصرفا.

لم يكن لرغيف الخبز طعم الرغيف الذي كنت أشتريه من عباس الفران قبل عشرين عاما، ولم يكن للجبنة الصفراء نفس الطعم، فكل شيء تغير في هذه المدينة حتى طعم الخبز. لكنني شعرت بنشوة لم أعرفها من قبل لأنني أجلس في المكان الذي جلس فيه رجل كان في السبعين من عمره عندما غادرت حيفا، وكان هو منبت حبي للناس وللفقراء.

كان هو ينظر بصمت إلى المارة ولا يتفوه بكلمة. كان حزينا طول الوقت

لم أضع أمامي صحيفة ولا كتابا يبرران جلوسي في هذه الساعة وسط هذا الاحتضار المكاني. أكلت بتروٍ. ثم أشعلت سيجارة ولما أدرت وجهي إلى داخل المقهى رأيت الشاب العربي والفتاة الروسية يرقبان حركاتي، فأوعز لها بأن تأتي إلي، ولما تقدمت قلت لها قبل أن تنبس بكلمة: أدعوك للجلوس معي ما دام المقهى يخلو من الزبائن، وإذا شاء زميلك فيستطيع الإنضمام إلينا إلى أن يأتي زبون يعكر صفو قعدتنا.. والقهوة على حسابي.

ضحكت الفتاة وأشارت باصبعها إلى الشاب لينضم إلينا، وصرت أحكي لهما قصة عباس الفران. نظرت الفتاة إلى الشاب وابتسمت كأنها تسأل: ماذا يريد هذا الرجل الغريب منا؟ فقال لها: إسمعي! إسمعي، لا بد أنها حكاية غريبة.

التقيته لأول مرة عندما كنت طالبا في المدرسة وكنت أمر في كل يوم من هنا في طريقي إلى المحطة. كان عباس يبيع الخبز العربي، في البداية لم يلفت انتباهي عندما مررت من أمامه. كان هو ينظر بصمت إلى المارة ولا يتفوه بكلمة. كان حزينا طول الوقت ويثير الشفقة وفي أحد الأيام رأيت طالبا من زملائي يقترب من الطبق ويخطف رغيفا ويهرب فلحقت به وأعدت الرغيف إلى الطبق، وبعد أن شكرني وأثنى على عملي الطيب سألني: لماذا أعدت رغيف الخبز؟ قلت: هذه سرقة. قال: ربما أنه جائع ولولا ذلك لما تصرف هكذا. إنه يمر كل يوم من هنا ولا يخطف رغيفا، هل تعرفه؟ قلت: إنه زميلي ولا أعرف أنه يسرق، هل يجوز أن أكون حرمته رغيف الخبز؟ ودخلنا في جدل حول الجوع والفقر، وبدأت أكتشف أن هذا الرجل الذي يمضي يومه على قارعة الطريق هو رجل حكيم، وهو أقوى مما كنت أتصور، ولولا أنني كنت أخشى أن يفوتني الباص لأمضيت وقتا أطول معه، وكان هو يريد أن يحكي ويحكي لكنني قطعت عليه الكلام ووعدته بأن آتيه في اليوم التالي.

مفتاح البيت كان معي، دقيت عالباب ما

حدا فتح، فتحت الباب في المفتاح ودخلت

قال لي عباس الفران في لقائنا الثاني إنه لا يذكر نفسه الا في الفرن الذي بناه والده. كان هنا في هذا المكان، أكبر فرن في المدينة. كنا نوزع الخبز على جميع المطاعم. أعتقد انني ولدت فيه، فلا أذكر نفسي إلا في الفرن، "وفي واحد وعشرين نيسان سنة الثمانية وأربعين، دخل علينا جنود انجليز وقالوا لنا أتركوا كل شيء وأهربوا لأن اليهود راح يذبحوكم ويرموكم في النار. هربنا إلى الميناء، حملونا على اللانشات، وكبونا في صيدا. كنا أنا وأمي وابوي وزوجتي وأولادي الثلاثة، الكبير كان عمره عشر سنين، حاولت اقنعهم نرجع، كلهم رفضوا وخافوا يرجعوا في الليل، أخذت ابني الكبير، وقطعنا الحدود عند سعسع وكان معنا ثلاث زلام. اليهود كانوا رابطين لنا. بعد كم متر صاروا يقوسوا علينا. كلهم انقتلوا، كمان ابني، وانا الوحيد اللي نجيت. هربت لما شفت دورية عم تقرب. ابني والثلاثة ظلوا ملقحين، كلهم ماتوا. أنا رحت أركض في الجبال ووصلت على بلد اسمها حرفيش. احتميت في بيت، وبعد يومين ثلاثة وصلت لحيفا. الفرن كان مشموع والبيت مسكر. مفتاح البيت كان معي. دقيت عالباب ما حدا فتح. فتحت الباب في المفتاح ودخلت. كان كل شي على ما هو، ما راح شي من البيت. كانت أشيا جديدة مكومة على الأرض، ثياب وشنطات وكتب وصرامي كبار وصغار. رميت حالي على التخت وما غمضت عيني إلا سمعت صراخ وصياح. فتحت عيني كانوا خمسة واقفين قدامي، زلمة ومرة وثلاث اولاد شباب. خفت يذبحوني، وصاروا يحكوا معي بلغة ما عرفت شو هي، أنا بعرف عبراني، كان عندنا زباين يهود ييجوا من الكرمل، باعرف عبراني لبلب. بعد شوي وصل شرطي وثلاث جنود،

سألوني مين انت؟ قلت لهم قصتي، قالوا لي هاي الدار مش إلك لأنك تركتها وهربت. إطلع برا. ورموني في الشارع. رحت على وادي النسناس دوّر على اصحاب ظلوا في البلد. كل حيفا كانت تعرفنا أبا عن جد. كنا من أغنيا البلد والناس تضرب فينا المثل. صفيت لحالي لا بيت ولا فرن ولا أهل ولا مرة و ما عرفت وين ابني مدفون وما عرفت شو صار في أهلي... أنا هون بعدني عباس الفران مثل ما كنت، بعدني من أربعين سنة بانتظر أهلي يرجعوا وزوجتي واولادي. أهلي ماتوا وعيلتي في برج البراجنة، أنا هون من أربعين سنة شايف شو عم بيصير كل يوم على الدار، أنا حارسها وحارس الفرن وشايف كل شي بيصير فيها، يوم دكانة ويوم مطعم ويوم فرمشية، تقلبت عليها ايدين وتغيرت أشكال لا الها أول ولا آخر. كل واحد بييجي هون باحكي له قصتي. في ناس عندهم ضمير. مرة عيلة أصلها من العراق استأجرت من الحكومة الدار والفرن، فتحوا في الفرن دكانة قماش وعملوا الدار مكاتب. يوم طلعت عندهم بعد ما نفقت الخبزات وحكيت لهم حكايتي. صاروا يبكوا. والله العظيم صاروا يبكوا. وبعد شهر ودعوني وقالوا احنا مهاجرين على لندن، هاي البلاد ما بتنسكن. أنا هون بانتظر يرجعوا اولادي، ونسكن في الدار ونعمر الفرن. "

وأنا ساظل أنتظر

ساعة كاملة جلست الفتاة الروسية والشاب العربي يصغيان إلى قصة عباس الفران. لم يدخل أي زبون إلى المطعم. رن جرس الهاتف عدة مرات لكنهما لم يحركا ساكنا. دمعت عيونهما. قلت: لا بد أن عباس

الفران قد مات . قال لي أكثر من مرة انه لن يغادر هذا المكان إلا للقبر . هل رأيتما هذا الرجل هنا في يوم من الأيام؟

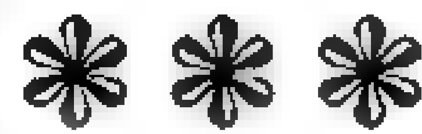
في ذلك اليوم شعرت بأن عباس الفران ينتظرني في مكانه الذي اعتاد الجلوس فيه .

ذهبت اليه فلم أجده .

جلست أنا أنتظره، فما جاء .

ستعذرني حيفا لأنني لم أكتب لقصصها، حتى الآن، نهايات سعيدة .

وأنا سأظل أنتظر عباس الفران في شارع يافا، حتى وان كان الطقس حارا وجافا .



سيأتي إلينا ..سنأتي إليه

كلنا على موعد مع الموت

عندما نولد يبدأ انتظار هذه النهاية

السعادة هي أن نجعل هذا الانتظار طيبا وجميلا

نهاية الانتظار لقاء جديد

"لاجيء في وطنه"...

عرّفوه قبل ستين عاما، هل أخطأوا التعريف؟

"لاجيء في وطنه"

كان له بيت وكانت له أرض وبئر ومقبرة وفضاء وشجرة توت في ساحة الدار

على الحد بينه وبين جاره نبتت سنديانة

غرس هو نبتة صبار

فامتدت لا تعرف الحد الفاصل بين ما له وما عليها

"لاجيء في وطنه"

صار ينظر من بعيد إلى بيته وأرضه وبئره وفضائه وساحة الدار، بلا شجرة التوت

يرى غياب السنديان والصبار

لا يرى نفسه هناك بل يرى غريبا يلوح له من بعيد

لا يفهم إن كان يدعوه إلى حفلة عشاء أو يلاحقه إلى وطن جديد

"لاجيء في وطنه"

يعود ولا يعود

هل أخطأوا التعريف؟

"لاجيء في وطنه"

يحمد الله على أنه ظل على قيد الحياة

فقط لأنه ظل على قيد الحياة

حين يُسأل: "كيف الحال؟"

يجيب على الفور:

" مش ناقصني شي ! بيكفي اني بأتنفس وآكل واشرب. . . وأنام"

ويتوقف لحظة ثم يردف:

"واعمل كمان شغله، ألله لا يحرمني منها "

ويضحك ملء فمه، ليفهم السامعون مغزى الكلام

وتقول زوجته :

"عزا! هاي تابعة للنوم"

"لاجيء في وطنه"

يحب الحياة كما يحب زوجته

هل أخطأوا التعريف؟

"لاجيء في وطنه"

يعود إلى رشده أو يعود رشده اليه

يُعرَف ولا يعرّف

يُعرف في بلده لاجئا في وطنه

ليس ابنَ بلد

غريبا كالغريب الذي غرّبه

لا يحق له أن يملك بيتا ولا أرضا
ولا أن يغرس نبتة الصبار على الحد بينه وبين جاره المقيم في المكان "أبا عن جد"

"لاجيء في وطنه"
يشرب ويتنفس ويأكل ويمشي ويروح ويجيء
فقير من المهد إلى اللحد
في الظل
لا يرفع رأسه إذا كان ابنُ البلد مرفوعَ الرأس
لا ينافس ابنَ البلد على وظيفة
لا يجني الا ما تركه الحصادون
يعمل بالسخرة والسخرة من ثقافة العبيد
فضل الناس عليه
ولا فضل له على أحد
يعمل ما يراد له، لا ما يريد

"لاجيء في وطنه"
لا يقيم وليمة على شرف الكبار لكنه في الولائم
يسقي الماء ويدير القهوة السادة
يرتب الكراسي في الأعراس
(معفي مسبقا من النقوط)
يمسح الغبار عن الطاولات ويجمع القناني الفارغة

يعود إلى بيته في آخر المساء مع صحن من الأرز

"لاجيء في وطنه"
يقبل الذل لأنه يرفض الموت
فهل أخطأوا التعريف؟
"لاجيء في وطنه"
أقسم بالله العظيم والوطن أن يكرس نفسه للقضية
غنى لها وتبرع وتطوع وتظاهر وسُجن وكتب وقرأ وشَتم وشُتم وضَرب وضُرب
واستراح ليس لأن القضية انتصرت، حاشا وكلا
ولا لأنه تعب، حاشا وكلا
بل لأنهم عزلوه عن تكريس نفسه للقضية
فالقائد الجديد يفضل النساء على الرجال
والمدير الجديد يفضل الجهاز على النساء
والمسؤول الجديد يفضل ابنه على الجهاز
والزعيم الجديد يتقن الانجليزية كما يتقن العربية
يعربي المنبت أمريكي النزعة

لاجيء في وطنه
هنا بين النهر وبين البحر وهناك من المحيط إلى الخليج
فهل أخطأوا التعريف؟

"لاجيء في وطنه"

يتسول في شوارع المدينة أو في طريقه إلى هناك

يتسكع بين بيروت والقاهرة وبين بغداد والرباط

يبحث عن سجن يأويه أو عن مومس تكون له أُما وأَمَة

يلاحقه الدرك العربي لأنه عربي

تحتجزه الشرطة العربية على الحدود لأنه عربي

تبصق على وجهه بالعربية لأنه عربي

تجلده لأنه عربي

تسحبه لأنه عربي

تشد قيده لأنه عربي

تمسحه في الأرض لأنه عربي

تحرمه الخبز لأنه عربي

وتأمره ، قل يا عربي !

"العرب أشرف امة من شك في قولي كفر"

فكم هو ذليل

لأنه عربي ولأنه عربي

"أللاجيئون في وطنهم"

كانوا يوما ثلاثمائة ألف، صاروا اليوم ثلاثمائة مليون

فهل أخطأوا التعريف؟

"لاجيء في وطنه"

يحيّره السؤال عن تاريخه وعن حاضره ولا ينتظر المفاجأة

يحتمي في ظل نظامه المقدس

يهتف نهارا في الساحات العامة :

"يعيش الرئيس ويحيا الملك"

لكنه يهمس الشعر الوطني ليلا في أذن زوجته

لا يعرف الكذب وإن كان لا يسمي الأشياء باسمائها

لا يعرف سوى أن نصف الحقيقة هو نصف الحقيقة

لكنه يدرك عبقرية الصراحة

لا ينظر إلى النصف المليء من الكأس

لا ينظر إلى النصف الفارغ من الكأس

يراقب ما يحدث ويسأل بقلق :

هل تمتليء الكأس ام تفرغ؟

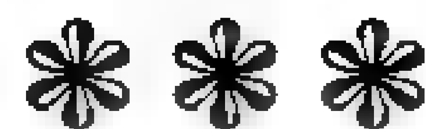
يهدأ حين يفلسف الحياة على أنها

مسألة ما سيكون لا مسألة ما كان

لاجيء في وطنه

صار يفكر

هل أخطأوا التعريف؟



حين ينام الآخرون

نمضي أياما طويلة مع الموت

ليس لأننا لا نعرفه وليس لأنه يتراكم علينا

بل لأننا لا نفهم هذا الموت فيصبح موضع جدل

موت عصي على الفهم والوعي والادراك

كأن للموت مبررا لكي يصبح قضاء وقدرا فلا يتهم أحد غيرهما به

فهل للموت ما يبرره؟

نحن لا نفهم مثلا أن شابا يخرج من بيته

أعزل من كل شيء

فتقتنصه بندقية

كطائر هائم قابل للتصيد

فلا هو انسان ولا يستحق الحياة

لا نفهم هذا الموت فصرنا نبحث له عن نظرية

ربما لنفهمه أكثر وربما لنبرر عدم قدرتنا على الفهم

صار يشغلنا هذا الموت كثيرا ولا يزال

صرنا ننشغل كثيرا بطقوس هذا الموت الذي لا مبرر له

صار الموت قضية

وصار احتفالا

وصار مهرجانا

وصار أوسمة

دروعا

مسرحا

سينما

أدبا ومعارض

صار أسطوريا

صار حالة ثقافية ووجدانية

صار رمزا للحرية والبطولة وبسملة الخطابات

صار حاجة تسد النقص

فنحن شعب من حقه أن يكون له علم ونشيد وشهيد

انشغلنا بالحديث عن الموت الجماعي

عن الموت كقضية وعن فلسفة الموت الوطني

صار موتانا أبطالا وشموعا ورموزا

بعد أن دفناهم جعلناهم تماثيل وحكايات ميثولوجية

لا لنرفع من مكانتهم هم بل لنرفع من مكانتنا نحن

لم نعد نذكر ونتذكر كل أسمائهم ولا طفولتهم ولا طموحهم

يعرف كل منا أنهم سقطوا

هنا تنتهي معرفتنا لأننا صرنا نتعامل مع الموت كما نتعامل مع القضية

نحن شعب له قضية وكل ما يعرفه عن هذه القضية هو أنه شعب له قضية

لا تجعلوا الضحايا أبطالا ورموزا لكي نحافظ على انسانية الضحية

لا تستبدلوا الموت بالبطولة

الموت شيء والبطولة شيء آخر

لكل قتيل أب وأم وأخت وأخ وعمة وخالة

هم لا يعيشون غيابهم فقط

هم يعيشون حضورهم أيضا وطفولتهم وضحكهم وبكاءهم

المقتولون لم يندفعوا إلى موتهم ولم يدفعهم اليه أحد

اندفع الموت اليهم

دفعته الجريمة

وراء كل ضحية مجرم وكل جريمة تخلف ضحية

لكي نميز بين الضحية وقاتلها

فلنسم الضحية باسمها، والجريمة باسمها

البطولة التي تلغي الحد الفاصل بين الجريمة والضحية لا نتمناها لأحد منا

نريد لأبنائنا أن يكونوا أبطالا ينتصرون ويبقون على قيد الحياة

حين نتحدث عن الموت كبطولة ندفع الآخرين إلى الموت

نرفع من قيمة الموت ونرخص قيمة الحياة

نحن شعب يريد الحياة

خطاب البطولة هو الكفاح من أجل ان نبقى على قيد الحياة

خطاب الموت رسالة انتحارية

حين نحكي عن الضحايا لا ينبغي أن نختزل موتهم وحياتهم بشعار أو بطقوس

تنتهي الطقوس واحتفالات التكريم والكلام المنمق

تعود الأمهات إلى وحدتهن

إلى العزلة

الى البكاء الصامت

الى بحر الدموع

إلى الهذيان والكوابيس

الى الانتظار

فقط مع صدى الأغنية

"يا ام الشهيد زغردي كل الولاد اولادك؟"

لا أحد يحل مكان ابنها الذي فقدته

لا يحق لنا أن نطلب منها أن تزغرد

يحق لها أن تطلب منا أن يكون الشهيد ابننا كما هو ابنها

أن نتعامل معه كفرد وانسان وليس قضية

أن نكون معها في ساعات الوحدة لا أن تكون معنا حين نحول القضية إلى شعار

ألا يهين الشهيد صرخة أم تقول: لقد انهار عالمي بعد ان سقطت؟

لا يجوز لنا أن نسمح بأن ينهار عالم أحد ممن ظلوا على قيد الحياة

نعود اليهم ونعيدهم الينا اطفالا حين كانوا يمارسون عبث الطفولة

يافعين يستحوذهم نزق الشباب

رجالا داهمتهم الحياة بثقلها فواجهوا واستبسلوا في الدفاع عن حياتهم وبقائهم

يشغلني فيهم سيرة كل منهم

طفولته

أحلامه

حركاته

طموحه

حبه لنفسه ولغيره

غضبه

غيرته

عشقه

اكله

شربه

ملابسه

يشغلني ذلك الانسان الذي يحكون عنه اليوم

كان يعطف على أمه واخوته

كان يسارع في القاء التحية على جيرانه

يبكر للعمل والعلم

يسهر مع أصدقائه حتى آخر الليل

يثير حركة وضجيجا في البيت والمدرسة

يغضب ، ثم يهدأ ، ثم ينام ، ثم يفيق

يسهر حتى انحسار الليل

ينام حتى تراجع النهار

يعرف الكسل مثلما يعرف الجد

يتفنن في رقته الشبابية

يفلسف نزقه الثقيل

لا يأخذ بجدية كلام أمه : ديربالك ع حالك يما !

ولا تحذير أبيه : انتبه من اولاد الحرام يابا ومن ساعة الغفلة !

أعود اليهم مع عودة الأم إلى غرفة ابنها

تفتح الباب

ألأم لا تطرق على باب ابنها لأنها تخشى أن يكون نائما فتوقظه

ألأم لا تعترف بحريته في غرفته

ألأم تجيز لنفسها معه ما لا يجيزه أحد غيرها

هو منها ولها وحدها

ألأم لا تطرق على الباب لأنها تحب أن تفاجيء ابنها لتثبت له سلطتها عليه

تعرف أنه ليس هناك

تغمض عينيها للحظة فتراه في كل الحالات المستحيلة
قاعدا واقفا في نفس الوقت
نائما يقظا
صامتا متكلما
على السرير
خلف الطاولة
على الأرض
يرفع صوت المسجل ويخفضه بلا حساب لشيء
ينظر اليها بعصبية
يحول نظره باستخفاف
يخلع قميصه
يرتديه
يطلب منها أن تخرج
يطلب منها أن تدخل
في لحظة يختفي ويترك الدموع في عينيها وأشياءه المبعثرة
تقول: كان يحيّرني
كان عكازتي
خطيبته لليوم ما خلعت المحبس من اصبعها
ألأم التي فقدت ابنها تبحث عن أشيائه الصغيرة
عن خرابيشه في دفاتر المدرسة

عن رسائله القصيرة

عن ملابسه التي تنبعث منها رائحة العرق

تتناول قميصه وتقربه من وجهها وتشمه

تستنشقه لعله القميص الأخير الذي لبسه قبل ان يخرج

ألأمهات لا يغسلن ثياب أولادهن ، بعد أن يموتوا

ألأمهات لا يرتّبن غرف أولادهن ، بعد أن يموتوا

ألأمهات لا يصدقن أنهم ماتوا ولن يعودوا

ألأمهات لا ينمن قبل أن يأتي أبناؤهن

تنتظر الأم عودة ابنها كما لو كانت تعرف أنه ذهب ليسهر مع أصدقائه

تنتظره حتى ساعات الليل المتاخرة

بين الحين والحين تقوم وتنظر إلى العتمة من الشباك

يهيأ اليها أنه سيأتي من العتمة

تسمع خشخشة وضربات أقدام

تسمع صرير الباب

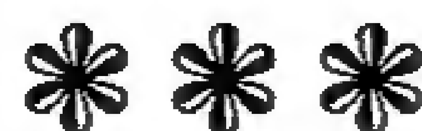
تنتفض مذعورة وفرحة

يأتي ولا ياتي

يأتي ولا يأتي

لا تنام في تلك الليلة

لا تنام



رسالة قصيرة إلى أبي

غاب في يوم ماطر - 19 شباط 1991

سلام عليك وألف سلام

....

وبعد انتظار، أتاني رجوعك ،بحلم تراءى على مفرق عين تكابر وجفن ينام

سلام عليك وألف سلام

لك راحة الموت، ولي رحلة الصحراء. وشوق يسجيني على كفن، تشده الريح إلى الأرض

وتأخذه الروح إلى السماء

لك راحة الموت، ولي رحلة الصحراء

ستأتيني طفلا ؛ قال لي الواعظون. ومرت شهور ومرت سنون. وقالوا: تمهل! سيأتيك حتما.

وكان انتظارك حلما، وكان ظنون

هنا انتظرت قدومك علي أراك، فعجل حضورك وانفض ثراك.

وإن لم تزرني، فيبدو بأني، سآتيك يوما إليك هناك

سلام عليك يا أبي. سلام على من معك، على جدي، على جدتي، على عمي، على عمتي، على كل الذين نحبهم، في موقع

* * *